قياس قدرات الإبداع الفنى

فى .. أكاديمية الفنون

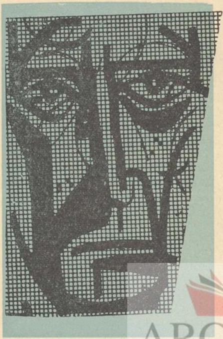
د. مصطفى سويف

السيد رئيس الجلسة ورئيس الجمعية ...

سيداتى .. سادتى ..

أرجو أن تسمحوا لى أولا بأن أتقدم بالشكر للجمعية المصرية للدراسات النفسية اذا أتاحت لى هذه الفرصة لكى أتحدث الى حضراتكم فى موضوع قياس قدرات الابداع الفنى فى أكاديمية الفنون . وأعتقد أن هذه البادرة من الجمعية .. مبادرتها بدعوتى لالقاء هذا الحديث ، أعتقد أنها تنم عن حسن تاريخى بالمسئولية الملقاة على عاتقها، لا فقط من حيث احتضان ما يتعلق بعلم النفس دراسه وتطبيقا فى مجتمعنا ، ولكن كذلك من حيث السهر على سمعة علم النفس ، وعلى ماينبغى أن يتوفر فى ممارسة المهنة ، وممارسة الدراسة النفسية من شروط معينة ، ومن معايير أخلاقية لا يجوز الخروج عليها ، جمعيه علم النفس بمبادرتها هذه عبرت عن هذا الحس التاريخى نظرا لأن الرأى العام فى الأسابيع الأخيرة بدأ يتحدث عن قياس هذه القدرات فى أكاديميتنا .

من هنا فانى أعتقد أن اجتماعنا هذا المساء أهمية تاريخية خاصة ، أهمية تتمثل لا فى مجر الحديث عن اختبارات أو مقاييس نفسية لقدرات معينة ، لكن تمتد وتعمق لتشمل الاطار الذى يضم هذا الحديث .. الاطار الأساسى أعنى به الصلة بين العلم والمجتمع ، الصله بين الباحثين الممارسين للبحث العلمى وبين مجتمعهم عندما يدعوهم المجتمع لتقديم خدمة تطبيقية معينة باسم خبرتهم ، وباسم السنين التى قضوها فى تحصيل هذه الخبرة ، وعندما يتقدمون هم لتلبية هذه الدعوة .. هنا الدلالة التاريخية لهذا الحديث ، ومن الممكن أن يتكرر مثل هذا الموقف فى فروع أخرى من فروع العلوم الانسانية ، ومن الممكن أن يتكرر مثل هذا الموقف فى فروع أخرى من فروع العلوم الانسانيه ، ومن الممكن أن يتكرر أيضا فى فروع أخرى من فروع الدراسات العلمية عامة ، وتظل الدلالة واحدة ، هى مسألة الصلة بين العلم والمجتمع .



والواقع انني حينما ابرز هذه الخلفية او هذا الاطار الأساسي أجد أنه يثير أمامنا عددا كبيرا من الأسئلة ، وأستطيع على الأقل أن أجتزىء من هذه الأسئلة بأربعة أعتقد أنها هى الأسئلة الرئيسية :

السؤال الأول :

هل نحن كمجتمع ، نريد فعلا أن نصبح مجتمعا عصريا يهتدى بالحلول العلمية فى مواجهة مشكلاته والتخطيط لحياته ؟

السؤال الثانى :

كيف نفهم العلم ، هل نفهمه على أنه منهج ، بحيث يتسع فهمنا ليشمل العلوم الانسانية الى جانب العلوم الطبيعية والبيولوجية ، وليشمل التكنولوجيا البشرية الى جانب التكنولوجيا الفيزيقية ، الآليه ؟ أم نفهمه على أنه قائمة محددة بما هو مباح وما هو غير مباح .

السؤال الثالث :

هل نحن كمجتمع ، نسعى فعلا الى توظيف الطاقات المتوفرة لدينا بأفضل صورة ممكنة ؟ . ما معنى أن ينتقل أستاذ جامعي متخصص فى العلوم السلوكية من الجامعة الى ميدان الوظيفة المكتبية ، اذا لم يكن هذا فى سبيل توظيف تخصصه والانتقال به من مجال الاهتمام الأكاديمى الى مجال التطبيق ، أى الى ميدان وضع علمه وتخصصه فى الخدمة المباشرة المجتمعة ؟

السؤال الرابع :

هل نحن كمجتمع ، مستعدون لأن نشجع الجديد ولو بحذر أم نحن مستعدون فقط للدفع الى المجاراة والامتثال للنموذج السائد ، فاذا دخل الجديد فى حياتنا ، فانما يدخل على الرغم منا مصحوبا بقدر كبير من النفور ومن المقاومة العنيدة ؟ .

لم تعد أهمية القياس فى الدراسات النفسية بحاجة الى مزيد من القول ، والدراسات النفسية عندما أريد لها منذ نهاية الثلث الأول من القرن التاسع عشر أن تصبح دراسات علمية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فطن أصحابها منذ البداية الى ضرورة محاولة قياس الوظائف النفسية .

***

ونحن عندما نتكلم عن القياس وعلم النفس نتكلم دائما عن أننا نقيس عددا من الوظائف النفسية ، وعندما نتكلم عن التقدم فى تاريخ القياس فاننا نتكلم عن التقدم فى زيادة كفاءة المقاييس التى تقيس وظائف معينة ، ومن ناحية أخرى عن التقدم كما يبدو فى زيادة عدد الوظائف النفسية التى نتمكن من قياسها .

وقبل التقدم الى أبعد من هذا فى الحديث اسمح لنفسى أن أعطى بعض التعريفات الأولية لكى يتم التواصل بيننا على أفضل مستوى ممكن .

نحن نتكلم عن وظائف سيكولوجية لها معنى محدد فى عقولنا ، وعندما نذكر الوظائف النفسية مقرونة بعملية القياس ، يثور بعض العجب عند غير أهل الاختصاص ، علما بأننا نقبل بكل بساطة مفهوم القياس عندما يقرن بالوظائف الفيزيولوجية (العضوية) . ولقد جاء يوم على الوظائف العضوية لم تكن تقاس ، ثم حدث التقدم وأصبحت قابلة للقياس .

ماذا نعنى نحن رجال علم النفس عندما نتحدث عن الوظائف النفسية ونفرق بينها فى عقولنا ، وبين الوظائف الفيزيولوجية ؟ الفارق الرئيسى هو أننا نربط بين الوظيفة الفيزيولوجية وبين عضو محدد ، فنحن نتكلم مثلا عن افراز هورمون الثيروكسى من الغدة الدرقية ، وهكذا نقرن مباشرة بين هذه الوظيفة ، وبين عضو معين يحدد فى الجسم ولكننا لا نستطيع أن نقرن بين وظيفة ما كانفعال الغضب وبين عضو محدد فى جسم الانسان ولا نستطيع أن نقرن بين تغير الحال النفسى وبين عضو محدد فى الانسان ، ولانستطيع أن نتحدث عن الشعور بالجوع ونقرن بينه وبين عضو محدد فى الجسم ، فالمعدة لا تجوع وان كانت عضلاتها تصاب ببعض التقلصات المتتالية. يصحب ذلك الشعور بالجوع ، ولكن الشعور بالجوع وظيفة متكاملة للكائن ، هذه الوظائف التى تصدر عن الكائن متكاملا ، والتى لا نستطيع أن نربط بينها وبين عضو محدد فيه هى الوظائف السيكولوجية التى نحاول أن نقيسها وقد استطاع علماء النفس أن يوفقوا الى قياس عدد كبير منها على مر التاريخ منذ بدأ تاريخ علم النفس العلمى، كما ذكرت من قبل ، فى أواخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر .

ولقد بدأ التقدم فى هذا الاتجاه يؤتى ثماره فى جوانب تطبيقية متعددة فى حياة المجتمعات . هذه الجوانب تدور كلها حول محاولة ايجاد وسيلة تتمثل فى مقياس يمكن اعتباره وسيلة موضوعية فى يدنا للمقارنة المحايدة ، أما بين وظيفة ووظيفة فى الفرد الواحد ، أو بين وظيفة فى مستوى معين ثم نفس الوظيفة فى نفس الفرد وقد تغير مستواها بعد علاج معين أو بعد مران معين .. الخ .. كما يستخدم المقياس فى المقارنة بين وظيفة معينة من حيث مستواها الراهن لدى عدد من الأفراد .

والوسائل الموضوعية المحايدة التى نملكها والتى نحاول أن نحسن فيها استخدمت وتستخدم الآن ، ولا يقتصر الأمر فى العناية بها على الدراسة الأكاديمية ولكن امتد الاجتهاد الى الاستفادة العملية التطبيقية فى مجالات مختلفة لعل أهمها : مجال التوجيه الدراسى ، ومجال التوجيه المهنى ، وميدان الخدمة الاكلينيكية ، وجوانب مختلفة من ترشيد الصناعة ، وفى القوات العسكرية ، وفى مجالات أخرى متعددة .

مر هذا التقدم كما يستشف مما ذكرت بمراحل ونحن الآن – على الأقل – نشعر عندما ننظر الى الوراء بأن المرحلة التى مر بها القياس فى أوائل هذا القرن – فى عشرينات وثلاثينات هذا القرن – نشعر بأن تلك المرحلة كانت مرحلة بدائية بالنسبة لما يتوفر لدينا الآن من عدد من المقاييس ، ومن كفاءة فى القياس . وقد نتج

هذا التقدم لا عن مجرد دأب علماء النفس على تحسين مايملكونه من وسائل ، ولكنه نتج بالاضافة الى ذلك أيضا عن تقدم فى بعض فروع الرياضة والاحصاء ثم انعكس أثر ذلك على هذا الفرع او هذه الدراسة مما يمكن العلماء المتخصصين من أن يزيدوا من كفاءة مقاييسهم ، وأنا أشير هنا بوجه خاص الى النهضة التى حدثت فى ثلاثينات هذا القرن فى أسلوب التحليل الاحصائى المعروف ، بالتحليل العاملى ، ففى هذه الفترة نشر «ثرستون» (طريقته المركزية) وفى هذه الفترة نشر «لولى» طريقته المعروفة باسم Maximum likelihood وفى هذه الفترة نشر « هوتيللينج » طريقته المعروفة باسم Principal Components فى هذه الفترة نشرت طرق متعددة تهدف الى مزيد من الدقة فيما يسمى باسلوب التحليل العاملى ، ومكن هذا من دفع عجلة التقدم فى مسألة المقاييس النفسية بصورة لم تكن متوقعة على الاطلاق فى عشرينات هذا القرن • النتيجة أننا أصبحنا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية على مشارف ما نستطيع أن نعتبره بداية هامة لتكنولوجية بشرية على قدر كبير من الدقة والكفاءة ، هذه الدقة والكفاءة تتزايد منذ ذلك التاريخ ، أى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بسرعة تكاد تكون سرعة لوغارتيمية •

بعد هذا اضيق رقعة الحديث بعض الشيء ، واتجه مباشرة الى الكلام عن قياس القدرات الابداعية لدينا فى أكاديمية الفنون •

مالذى حفزنا الى أن نقوم بهذه الخطوة ؟

بطبيعة الحال هناك الحافز العام ، مجرد أن شخصا من الأشخاص وجد أن لا معنى لأن يترك مكانه فى الجامعة وينزل الى ميدان الخدمة العامة دون أن يقدم ما يتقن • فاذا نحينا هذا الحافز العام جانبا تبقى أسباب موضوعية أخرى نجملها على النحو التالى :

أ – يتقدم لهذه المعاهد سنويا عدد كبير من طالبى الالتحاق بها ، وقد تقدم اليها هذا العام – على سبيل المثال ١٧٤٥ طالب (هبط هذا العدد عند عقد الامتحان الى ١٥٠٠ تقريبا) •

ب – قدرة المعاهد على استيعاب هؤلاء الطلاب وتزويدهم بالدراسات الفنية على المستوى الذى ترجوه الدولة قدرة محددة – وأرجو أن يستقر فى النفوس أن هذه المعاهد يجب أن تعامل فى الذهن معاملتنا لما اصطلحنا على تسميته بالكليات العملية لان معظم الدراسة فيها دراسة عملية • هذه المعاهد اذن لا تستطيع أن تتخطى رقما معينا فى القبول •

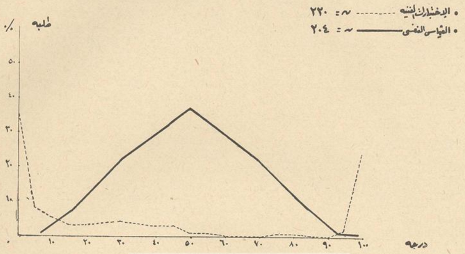
حـ – انتهى الامر بها الى أن قبلت أكثر قليلا من ٢٠٠ طالب ، أى انها قبلت السبع أو على أفضل تقدير السدس •

د – يتكلف الطالب الواحد على الدولة فى هذه المعاهد تكلفة باهظة وعلى سبيل التقدير الجزافى يمكن أن نقول ان التكلفة هى أربعمائة جنيه سنويا دون أن يدخل فى هذا الاستهلاك الذى تتعرض له مبانى وأثاثات المعاهد ••• الخ أتحدث فقط فى حدود الميزانية السنوية للمعاهد الفنية والتى تمثل ما يشبه المال السائل للانفاق المباشر •

لدينا اذن هذه الاعتبارات مجتمعة وازاء هذا فلابد أن يوجد لدينا معيار موضوعى محايد ودقيق للمفاضلة بين هؤلاء المتقدمين • فما هو المعيار الذى نتخذه ؟

جرت العادة على أن يتخذ معيار الامتحانات بصورتها التقليدية أى امتحانات القبول ، هذا هو الرد البسيط الذى يمكن أن نستمع اليه من أى مواطن فى مثل هذا الموقف « اعقدوا امتحانات قبول » •

وردنا المباشر أن امتحانات القبول بشكلها التقليدى لا يستطيع المتخصص فى العلوم النفسية أن يقبلها بسهولة ، رغم علمه بأنها هى الاداة السائدة أو النموذج المعمول به ، واذا أردنا أن نتكلم بما تقتضيه الامانة العلمية فان هذه الامتحانات لا تصلح معيارا موضوعيا دقيقا ، ليس معنى ذلك أن هذه الامتحانات لا قيمة لها اطلاقا ، ولكن معناه انه اذا كان فى امكاننا أن نضيف اليها ما يجعل عملية الاختيار من بين المتقدمين أكثر دقة فقد وجب علينا أن نقدم هذه الاضافة • وجدير بالذكر أن الشكوى من الامتحانات لم تنقطع أيا كانت المواد التى تتناولها هذه الامتحانات ، أو المستويات التعليمية التى تعقد عندها • ومعنى ذلك أننا لسنا أول ولا آخر المتحدثين عن مساوىء الامتحانات بصورتها



التقليدية . كل ما فى الامر أننا نأخذ هذا الحديث مأخذا جادا ونتقدم به الى منتهاه المنطقى .

والسؤال الذى ينبغى لنا أن نبدأ به الان ونضع اجابته واضحة نصب أعيننا هو ، ما هى الأسباب التى من أجلها لا نستطيع أن نثق فى امتحانات القبول التقليديه كمعيار موضوعى دقيق ؟ هنــاك أسـباب متعددة ، ربما أمكننا تلخيصها فيما يلى :

ان طريقة وضع الامتحان تسمح بصورة أو بأخرى بتدخل العوامل الذاتية لدى الممتحن وأنا ، عندما أشير الى العوامل الذتية لا أقصد طلاقا أى معنى يمس الجانب الاخلاقى لدى الممتحن ، فقد يكون الممتحن أشد أمانة مما نتصور ، ولكن هناك « تكنيك » خاص ببناء الامتحان ، اذا أردنا أن نضمن قدرا معقولا من الموضوعية أتبعناه . لا بد لنا من أن نعرف هذا « التكنيك » ، ثم علينا أن نتبعــه وأمــا اذا لم نتمكن من معرفته فلن نستطيع أن نضــع امتحانا يوفر أكبر قدر من الموضوعية ، ويضعف الجوانب الذاتية الى أقصى مدى ممكن .

وتدخل العوامل الذاتية يتبدى فى حقيقة هامة ، وهى عدم اتفاق المصححين ، فاذا افترضنا مثلا أننا وضعنا امتحانا فى مادة معينة من مواد الادب أو التاريخ أو الفلسفة .. الخ وأعطينــا الاجابة لاحد المصححين ليصححها ثم لمصحح آخر دون أن يطلع على تصحيح زميله ، بشرط أن يكون فى درجــة معادلة من الكفاءة ثم الى ثالث ورابع ، ففى أغلب الاحيان سوف نحصــل على على تقديرات متفاوتة .

هذا الكلام للاسف حقيقــه علمية نشرت عنها بحوث متعددة، ولكنها فيما يبدو غير معروفة المعرفة الكافية فى مجتمعنا . وأمامنــا البحث الذى نشره فولز J.D. Falls منذ سنة ١٩٢٨ ويعرض الجدول رقم (١) التى أسفر عنها هــذا البحث .

« توزيع الدرجات والمستوى الدراسى كما حدده مائة مدرس فى انجلترا نتيجة لتصحيح ورقة انشاء واحدة لطلب ما »

مستو الفرقة الدراسية	الدرجة من مائة								
	٦٠ـ ٦٤	٦٥ـ ٦٩	٧٠ـ ٧٤	٧٥ـ ٧٩	٨٠ـ ٨٤	٨٥ـ ٨٩	٩٠ـ ٩٤	٩٥ـ ٩٦	المجموع
١٥								٢	٢
١٤									صفر
١٣							١	٢	٣
١٢					١		٢	٣	٦
١١			٢			٦	٥	٢	١٥
١٠			١	٣	٨	٤	٧	١	٢٤
٩	١		١	١	٨	٤	٤	٣	٢٢
٨			٢	٢	٢	٣	٤	٣	١٦
٧				٢	٢	٢	١		٧
٦	١				١	١		١	٤
٥	١								١
المجموع	٣		٦	٨	٢٢	٢٠	٢٤	١٧	١٠٠

جدول رقم (١)

يوضح الجدول نتيجة تصحيح ورقة امتحان انشاء ، اشترك فى التصحيح ١٠٠ مصحح اخذها كل منهم على حدة مستقلا تماما دون أن يعرف شيئا عن تقدير زميله اياها .

وقد طلب من كل مصحح أن يعطيها درجة، وان يحدد الفرقة الدراسية اللائقة بالتلميذ صاحب الورقة .

وواضح من البيانات الواردة بالجدول ان هناك تفاوتا شديدا فى التقديرات ، فقد أعطاها ٣ مصححين من ٦٠ الى ٦٤ درجة وأعطاها ٦ من المصححين من ٧٠ الى ٧٤ درجة وأعطاها ٨ منهم من ٧٥ الى ٧٩ درجة و ٢٢ من الأساتذة المصححين اعطوها من ٨٠ الى ٨٤ درجة .. الخ.

ويمكن ملاحظة التفاوت الشديد أيضا فى تحديد الفرقة الدراسية التى رأى المصححون أن صاحب ورقة الاجابة لابد وأن ينتسب اليها .

هذه تجربة منشورة فعلا ، منذ أكثر من أربعين سنة ، ليس هذا فقط بل انه قبل سنة ١٩٢٨ قام ستارتش واليوت D. Starch and E.C. Elliot بنشر دراسة لها مثل هذا المغزى تماما سنة ١٩١٣ والخطير فى أمر هذه الدراسة أنها كانت تتناول تصحيح ورقة في مادة الهندسة وقد اشترك فى تصحيح الورقة ١١٦ مدرسا من مدرسى الرياضة فتراوحت درجاتهم بين ٢٨ ، ٩٢ .

الا يمكن القول بعد ذلك اننا محتاجون (على الأقل مثل من سبقونا فى البلاد الأخرى) الى الاقتراب من السلوك البشرى بطريقة موضوعية تسمح لنا بالمعرفة الصادقة لجوانبه للتقدم فى الطريق السليم بالخطوات الملائمة ؟

ان الامتداد المنطقى للخط الذى ترسمه هذه الحقائق بالغ لخطورة ، أعنى أن الاستنتاجات البعيدة التى يمكن ترتيبها على هذه الحقائق وأمثالها هامة جدا .

لكن هذا كله لا يدخل فى اطار هذا الحديث.

الشىء المهم هو أننا رتبنا على الجميع بين السلطة وبين العلم بهذه الحقائق شعورا بالمسئولية الأخلاقية وعلى اساس هذا الشعور اتخذنا قرارا بضرورة استخدام المقاييس

النفسية لقدرات الابداع بين الأفراد المتقدمين للالتحاق بالمعاهد من حيث حسن استعداد كل منهم للافادة من الدراسة فى هذه المعاهد .

ننتقل الآن الى الحديث عن المبادىء التى راعيناها فى اختيار مقاييسنا قبل المضى فى هذا الإتجاه أود أن أساعد على ازالة لبس معين وقر فى بعض الأذهان فقد ارتبطت كلمة « اختبار » بحكم معناها اللغوى بكلمة « امتحان » وأخذت الأمور مأخذا معينا فى اتجاه أن هذا امتحان ضمن الامتحانات التى يمر بها الطالب عند الدخول ، حتى لقد تساءل البعض : كيف تمتحنون أبناءنا فى مادة علم النفس وهم لم يدرسوا علم نفس .. وهذه كلها أمور لا صلة لها بمقاييسنا ولا بطبيعة القياس النفسى بوجه عام ، فكلمة اختبار فى الواقع ترجمة عربية غير دقيقة لكلمة Test . ونحن عندما نستخدمها الآن نستخدمها خضوعا لثقل التاريخ فقط ، ولكن Test تستخدم كذلك كمصطلح طبى ، فالأطباء مثلا يتكلمون عما يسمونه Liver Function Test لا يستطيع أحد ترجمة هذا التعبير بامتحان يجرى للكبد من أجل وظيفة معينة وانما المقصود بالمصطلح فى هذا المجال أننا بصدد فحص معين .

واذا كنا نقصد عندما نقول Liver function test أننا نفحص الكبد من ناحية معينة ، فكذلك يمكن القول أننا حين نذكر Psychological Test نقصد فحص وظيفة نفسية معينة .. الخ ، من أجل هذا ولكى أنأى بنفسى قليلا عن هذا اللبس أحاول بقدر الامكان أن أستخدم الكلمة التى كنا نود أن تسود بيننا وهى كلمة المقاييس أو المقياس كترجمة لكلمة Scales او Scalling راعينا عند اختيار مقاييسنا عدداً من المبادىء :

المبدأ الأول : أن تكون مناسبة للعمر ، والمتخصصون يعرفون ما يترتب على ذلك فى السن الصغير . كانت المقاييس المستخدمة امتحانات قبول الاعدادى مقاييس اداء عملى Performance ولم تكن مقاييس لفظية ، وهذا كما نعلم من دراساتنا النفسية يعنى أننا نتعامل حسب ما تقتضيه سيكولوجية الطفل ، فالتعامل بالألفاظ أصعب وأشق على الأطفال من التعامل الحركى ، ونحن هنا ننفذ اليهم من افضل وانسب السبل التى تقربنا من نفوسهم .

المبدأ الثانى : اخترنا مقاييس لقدرات الابداع وليس للذكاء (الا فى حالة واحدة استخدمنا فيها مقاييس الذكاء ، وذلك فى حالة



صغار السن الذين يبدأون حياتهم المدرسية ، استخدمناها فقط لكى نستبعد المتخلفين عقليا ، أو للنصح باستبعادهم وكاختبار لصدق هذه المقاييس نصحنا فى العام الماضى بعدم قبول ثلاثة تلاميذ من صغار السن فى أحد المعاهد ، وشعرنا بقدر من عدم رضا المسئولين الفنيين فى المعهد بهذه التوصية ، فقلنا نترك التجربة لكى نتعلم منها كلنا ، وفى هذا العام رسب الأطفال الثلاثة، اما بالتخلف فى بعض مواد أو برسوب كامل ، فى حين أن الأطفال الذين نصحنا بقبولهم رسب منهم فقط حوالى ٢٠٪) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى لم نضمن مقاييسنا مقاييس للسمات المزاجية للشخصية وعلى ذلك فاذا كانت هناك بعض المخاوف التى راودت بعض المواطنين من حين أن بعض المعلومات التاريخية التى نعرفها عن المبدعين من رجال الفن ورجال العلم .. الخ تدلنا على ان الكثيرين منهم كانوا يعانون من اضطرابات نفسية ، تصل بالبعض أحيانا الى درجة الذهان ، أى الى درجة الجنون ، أمام هذه المخاوف نود ان نوضح اننا لا نستخدم مقاييس للشخصية ، واقتصرنا على مقاييس قدرات الابداع فقط .

المبدأ الثالث : اننا تحرينا أن تناسب مقاييسنا نوعية النشاط الفنى التى سيقبل عليها الطالب ، فبالاضافة الى مجموعة من مقاييس قدرات الابداع الاساسية التى دلت البحوث التجريبية فى العشرين السنة الأخيرة كل عمل ابداعى سواء أكان في العلم أم فى الفن على أنها هى القدرات التى لابد من توافرها فى أم فى التكنولوجيا .. الخ بالاضافة الى هذا فنحن نقيس بعض الجوانب التى تفيد الدراسة النوعية فى معهد بعينه مثال ذلك : اذا كان الطالب مقبلا على الالتحاق بمعهد تحتاج الدراسة فيه الى قراءة النوتة الموسيقية ، فاننا نضيف اليه اختبارا لسرعة الادراك البصرى ودقته ، واذا كان الطالب مقبلا على الدراسة فى معهد ستتطلب الدراسة فيه العزف على آلة من الآلات الموسيقية ، وهذا يحتاج الى قدر من مرونة الأصابع ، والى قدر من السيطرة على حركة اليد ، فى هذه الحالة نستخدم مقياسا أو مقاييس للتعرف على مرونة اليد ومرونة الأصابع وهكذا .

المبدأ الرابع : بالاضافة الى هذه المبادىء الثلاثة اشترطنا درجة ثبات أو ما يمكن تسميته بوجه عام درجة دقة معقولة فى هذه المقاييس التى نستخدمها ، والمقاييس التى نستخدمها بالنسبة للشخص الواحد متعددة ومتوسط درجة الثبات التى توفرت لها ٠٫٧١ .

المبدأ الخامس : ان يكون قد سبق اجراء تحليل عاملى لهذه المقاييس وذلك لكى يتعين لنا قدر معقول من صدق هذه المقاييس — تحليل عاملى فى مصر وتحليل عاملى أو تحليلات عاملية فى الخارج .

المبدأ السادس : ان نستخدم عدة اختبارات لكل طالب واحد ولا تقتصر بأى حال من الأحوال على استخدام مقياس واحد فقط ، هذه النقطة الخاصة باستخدام عدد من المقاييس تعتبر نقطة هامة لأننا نستطيع أن نضم لدرجات (وهذا بالضبط ما نفعله) التى ينالها الطالب على المقاييس المحددة(١) . وبعد ضمها بهذه الصورة تصبح الدرجة التى نحصل عليها أكثر ثباتا أى اكثر دقة من كل درجة على حدة من الدرجات الجزئية التى أوصلتنا الى هذه الدرجة الكلية . وبعبارة أخرى فان هذه المقاييس التى بدأنا بها وهى على درجة معينة من الدقة تنتهى منها الى ما يشبه أن يكون مقياسا واحدا يضمها جميعا ، وهو على درجة من الدقة تفوق درجة كل منها(٢) .

لا أريد أن أدخل هنا فى تفصيل الطرق الفنية (تكنيكات) التى توضح كيف تزيد درجة دقة أو ثبات المقاييس اذا صمت معا لتكون منها مقياس واحد كبير ، ولكن سأشرح بعبارة مختصرة من الناحية المنطقية **لماذا تزيد الدقة** .

لنتصور منطقيا أن كل مقياس من هذه المقاييس يأخذ عينة من سلوك الشخص ، هذه

---

(١) وطريقة الضم لها أسلوب احصائى معين اذ لابد أن تحول قبل أن تضم حسابيا على النحو التالى : نحول الدرجات الخام الى مايسمى درجات تائية T. score وبعد ذلك نستطيع أن نضمها .

(٢) هناك طرق أخرى لضم درجات المقاييس الجزئية لتصير مقياسا كليا ومنها على سبيل المثال الضم بعد اجراء تحليل عاملى للمقاييس للتعرف على الجزء من الدرجة الكلية الذى تمثله عامليا درجة كل مقياس فى بناء الدرجة الكلية ونحن بسبيلنا الى استخدام هذه الطريقة بعد أن تم الاتفاق بين أكاديمية الفنون وبين مركز الحساب العلمى الالكترونى بجامعة القاهرة لاستخدام الامكانيات الهائلة للحاسب الالكترونى من حيث السرعة من حيث الدقة لاجراء الحسابات المطلوبة . ومع التسليم بأن هذا الاسلوب سيزيد من دقة حساباتنا الا أن الامانة تقتضينا أن نقرر أن هذه الزيادة لن تؤثر بشكل ملموس فى النتائج العملية للتطبيق .

العينة عبارة مثلا عن جزء من مائة من سلوكه ، نحن نحكم على السلوك بناء على هذه العينة وكلما كبرت العينة المقيسة كان الأرجح أن تصبح أكثر تمثيلا للسلوك المطلوب قياسه وبالتالى تكون النتيجة أكثر استقرارا وتجعلنا أكثر اطمئنانا على سلامتها وبهذه الصورة نصل الى درجة أكثر ثباتا وعلى هذا الأساس فاننا اذا استخدمنا مقاييس درجة ثبات كل منها ٧١ر. فاننا نتوقع أن تكون درجة الثبات النهائية أعلى من ذلك فتصل الى ٩٠ر. ، وأمام دارس علم النفس والمتخصصين منا مثال على ذلك ، مقياس وكسلر للذكاء فمن المعروف أن درجة ثبات كل مقياس فرعى من أجزائه منخفضة نسبيا . وهى تتراوح غالبا من ٦ر. الى ٧ر. تقريبا وبضم هذه المقاييس الفرعية Subscales معا نجد أن درجة الثبات الكلية لهذا المقياس تصل الى أكثر قليلا من ٩٠ر. .

المبدأ السابع : بعد كل هذه الاحتياطات لم ننفرد أطلاقا بتطبيق المقاييس النفسية لنجعلها المعيار الأول والأخير فى الالتحاق بالمعاهد بل احترمنا التراث واحترمنا مشاعر الزملاء القائمين على الامتحانات بصورتها التقليدية واحترمنا خبرتهم واحترمنا كذلك بشريتنا الناقصة فقد تكون مخطئين ولو بنسبة ضئيلة .

اذن لنترك للتراث أن يؤدى دوره فتسير الامتحانات التقليدية الى جانبنا وأكثر من هذا أيضا جعلنا لهذه الامتحانات التقليدية ٦٠٪ من الدرجة التى تحكم نهائيا بقبول دخول الطالب و ٤٠٪ للمقاييس النفسية(١) . ثم حددنا درجة دنيا على المقياس النفسى الكلى المكون بالطريقة التى شرحتها آنفا وكانت هذه الدرجة ٥٠ (خمسين) علما بأن الدرجة النهائية على هذا المقياس ١٠٠ (مائة) .

لماذا حددنا درجة ٥٠ بالذات كحد أدنى ؟ يمكن توضيح ذلك على النحو التالى :

نحن فى هذا المجال ، مجال دراسة الفنون نكثر من الحديث عن الموهبة وقد كتب الكثيرون بأملهم فى أن تخرج لنا هذه الأكاديمية الدارسين الموهوبين او الفنانين الموهوبين وكلمة الموهبة لها معنى محدد في الدراسات النفسية ، وبالتعريف

(١) رغم اقتناعنا من الناحية العلمية بأن الامور ينبغى أن تتم على نحو آخر ، غير اننا مقتنعون كذلك – وفى الوقت نفسه – أن القرارات التى تتضمن نوعا معينا من التمييز الاجتماعى يجب الا تقام على الحقيقة العلمية فحسب ولكن على تهيئة الرأى العام كذلك ..

القاموس الاصطلاحي للموهبة نجد أن الموهوبين على أى قدرة من القدرات لا يزيدون على ٥ر٢٪ من أبناء المجتمع بمعنى أنه اذا تصورنا أننا قسنا أى قدرة من القدرات ووزعنا درجاتها ورسمنا منحنى التوزيع سنلاحظ أننا اذا أخذنا عينة كبيرة ممثلة للمجتمع تمثيلا جيدا اقترب المنحنى من الشكل الاعتدالى وعلى هذا الأساس فان الـ ٥ر٢٪ التى تقع فى قمة التوزيع الخاص بهذه القدرة النفسية التى يقيسها تمثل بالفعل من يمكن أن نطلق عليهم لفظ الموهوبين(٢) .

اذا حسبنا الحسبة على أساس تحديد الموهوبين على النحو الذى تحدده الدراسات التى اعتمدت عليها القواميس المتخصصة ستكون أدنى درجة مقبولة لأى موهوب على مقاييسنا واقعة بين ٧٠ ، ٨٠ تقريبا (١) .

ولما كانت درجات ثبت المقاييس التى نستخدمها معروفة لنا (٢) فاننا نستطيع أن نحسب ما يسمى بالخطأ المعيارى للدرجة التى نحن بصددها . ولهذه الدرجه معادلة معينة نوردها فيما يلى :

الخطأ المعيارى للمقياس = ع × الجذر التربيعى لـ (١ – ر ١١).

حيث ع = الانحراف المعيارى على المقياس

ر = درجة ثبات المقياس

فاذا طبقنا هذه المعادلة على المقياس الكلى للابداع على أساس أن درجة ثباته ٩ ، ٠ ، والانحراف المعيارى عليه = ١٠

فان الخطأ المعيارى فى هذه الحالة = ١٠ × الجذر التربيعى (١ – ٩ و ٠)

= ١٠ × ٣٣ر٠ = ٣ر٣

ونحن نحدد ثقتنا فى أية درجة على المقياس بأنها غاليا لن تزيد على ما يساوى ضعف الخطأ المعيارى فوق الدرجة وتحتها . بعبارة أخرى أن أية درجة ينالها الشخص على مقياسنا اذا لم تكن

(٢) يمكن الرجوع فى ذلك الى القواميس النفسية ومن اهمها قاموس English Comprehensive Dictionary for Psychological and Psychoanalytical Terms وهى تكاد تجمع على تعريف الموهبة على هذا النحو

(١) يلاحظ أن المتوسط ٥٠ والانحراف المعيارى ١٠ وقاعدة التوزيع مقسمة الى خمسة انحرافات معيارية لان الدرجات التى ندخلها فى حسابنا هنا درجات تائية.

(٢) وهذه هى احدى المميزات الهامة التى تميزها من الامتحانات التقليدية .

هى بالضبط درجته الحقيقية فلن تخرج درجته الحقيقية على أن تكون أكثر أو أقل منهذه الدرجة بمقدار ٦ر٦ • وفى حدود هذا المدى نولى ثقتنا للدرجة التى نحن بصددها •

فلنفرض الآن أن شخصا حصل على ٨٠ على الحقيقية تتراوح بين ٧٣ر٤ و ٨٦ر٦ • واذا حصل المقياس فالدقة والامانة تقتضينا أن نقول أن درجته على درجة مقدارها ٧٠ فالامانة تقتضينا أن نقرر أن درجته الحقيقية تقع فى موضع ما بين ٦٣ر٤ و ٧٦ر٦ •

ومن الواضح أن هذا المدى يتأثر فى تحديده بدرجة ثبات المقياس •

فلنفرض أن ثبات المقياس كان ٧ر٠ فقط

فيكون الخطأ المعيارى = ١٠ × الجذر التربيعى لـ (١ — ٧ ر ٠)
= ٥ر٥ عندئذ تكون الدرجة ٨٠ واقعة بين ٦٩ و ٩١

وتكون الدرجة ٧٠ واقعة بين ٥٩ و ٨١

فاذا هبط ثبات المقياس الى ٦ ر ٠ :
فان الخطأ المعيارى = ١٠ × الجذر التربيعى (٤ ر ٠) = ١٠ × ٦٢ر٠ =
٦ر٣ عندئذ تكون
الدرجة ٨٠ واقعة بين ٦٧ر٤ و ٩٢ر٦
والدرجة ٧٠ واقعة ٥٧ر٤ و ٨٢ر٦

هنا ينبغى للقارىء أن يتوقف ويتأمل الدرجة ٥٠ التى حددناها كحد أدنى يجب أن يحصل عليه المتقدم للالتحاق بمعاهد الاكاديمية • أن الحصول على ٥٧ر٤ اذا قبلناه فمعناه أننا نعتبر درجة الموهبة ٧٠ ودرجة ثبات المقياس ٦ر • ومع ذلك فقد هبطنا عن ذلك ووصلنا الى القبول عند درجة ٥٠ لا لشىء الا لكى نضمن أننا لم نخطىء بترك أى شخص يكون موهوبا •

وبطبيعة الحال كان يعنى ذلك أننا أخطأنا فى الاتجاه المضاد بأخذ عدد من غير الموهوبين ولكننا فضلنا هذا النوع من الخطأ على النوع الاول لان الخسارة تكون فادحة حقا بالنسبة للمجتمع اذا تركنا الموهوب الحقيقى •

هذا هو الاساس العلمى الرياضى لوقفتنا عند الدرجة ٥٠ ونتيجة لهذه الاحتياطات جميعا حصلنا على نتائج نحكم عليها بضميرنا بأنها تدعو الى درجة عالية من الاطمئنان •

والرسم البيانى ص ٩ ، يوضح احدى النتائج التى حصلنا عليها من المقاييس النفسية مقارنة بنظيرها للامتحانات التقليدية فى أحد معاهد اكاديمية الفنون •

هذا الرسم يقدم منحنيين ، أحدهما يمثل توزيع النتائج على المقاييس النفسية للابداع (وهو المرسوم بالخط الثقيل) ، والآخر يمثل توزيع النتائج على امتحانات القبول التقليدية التى طبقت على المرشحين أنفسهم الذين تلقوا النفسية (١) • ومن الواضح أن الفرق كبير بين التوزيعين • فالتوزيع على حسب نتائج القياس النفسى نسميه عندما يتخذ هذا الشكل الواضح فى الرسم توزيعا اعتداليا أو قريبا من الاعتدال • وهو توزيع يدل على أن أداة القياس تدرجت تدرجا معقولا من الصعوبة الى السهولة فنتج عن ذلك هذا الشكل المعقول فى التوزيع ويتلخص فى أن عددا ضئيلا نال درجات منخفضة ضعيفة ، وعدد ضئيلا آخر نال درجات مرتفعة أما الغالبية فهم أقرب الى الدرجات المتوسطة • هذا التوزيع نسميه معقولا لانه نمط يتكرر بالنسبة للغالبية العظمى من خصائص الكائنات الحية ، ابتداء من أطوالها وأوزانها حتى الخصائص أو الوظائف النفسية ومن بينها قدرات الابداع التى نحن بصددها • وقد تنبه أهل الاختصاص الى أهمية هذا النمط أول ما تنبهوا فى مجال الخصائص البيولوجية ، ثم امتد نظرهم الى بعض الخصال السيكولوجية ، ثم أصبح النمط قاعدة نحاول أن نخضع لها فنحققها فى التوزيع الذى نخرج به على كثير من مقاييسنا التى نحاول أن نضعها للوظائف النفسية الحديثة الاكتشاف •

فى مقابلهذا نجد التوزيع (٢) الذىيشير اليه الخط المنقط الخاص بالامتحانات الفنية • وأهم ما يميزه الارتفاع الواضح عند الطرفين الادنى والاعلى ، والانخفاض الشديد المتصل بين هذين الطرفين • ومعنى ذلك أن هذه الامتحانات الفنية لم تكن متدرجة بما فيه الكفاية ، بل كان يترتب عليها اما اعطاء درجه منخفضة جدا أو درجة

---

(١) لكى يمكن مقارنة الامتحانات التقليدية بدرجات المقاييس النفسية حولنا الدرجات التائية الى درجات تائية معدلة لتصبح متدرجة من صفر الى مائة .
متدرجة من صفر الى مائة .

(٢) الفرق بين عدد من تلقوا الاختبارات الفنية وبين من تلقوا المقاييس النفسية ناتج عن تغيب البعض.

مرتفعة جدا ولا وسط بين الطرفين . وهذا طراز من النتائج لا يتفق والمفهوم الاساسى لاستعدادات التفكير الابداعى التى نحاول أن نقيمها عند المتقدمين الجدد لمعاهد الاكاديمية ، ولا يتفق والاساس العميق لعمليات التقويم الكمى التى يقدمها العلم الحديث فى أى فرع من فروعه .

هذا الرسم مثال واحد من أمثلة أخرى متعددة حصلنا عليها من تحليلنا لنتائج القياس النفسى ومقارنتها بنتائج الامتحانات الفنية التى نعقدها فى مسابقات القبول بالمعاهد . ومع ذلك فقد أبقينا الامتحانات الفنية على ما هى عليه واكتفينا باضافة المقاييس النفسية الى جانبها بالصورة التى أوضحناها ، لا لشىء الا لاعتبارات احترام ماجرى الناس عليه واحترام المشاعر والعادات التى كونوها حول هذا الذى جروا عليه

بعد عرض هذه النتائج نتوقف عند سؤالين دارا بالاذهان :

الأول : كيف يمكن تكوين مقياس للابداع الفنى أو لجانب من جوانب الابداع .

الثانى : هل أجريت دراسات محليه على هذه المقاييس وعلى مفاهيم ميدانالابداع قبل استخدامها تطبيقيا ؟

الاجابة على هذين السؤالين على النحو التالى : —

فيما يتعلق بالسؤال الأول : كيف يمكن تكوين مقياس للابداع فى الفنون أو — الابداع عامة ؟ أو كيف يمكن تكوين مقياس لاى وظيفة نفسية ؟

الطريقة من حيث خطوطها الرئيسية تكون على النحو الآتى : تؤخذ عينة من مظاهر السلوك التى نريد أن ندرسها ، وهناك طرق معينه لاخذ العينات عموما يعرفها المتخصصون ... ويمكن القول بأن مسألة أخذ العينة من المادة التى نريد دراستها تمثل مبدأ علميا عاما فى المرحلة الراهنة من تقدم العلوم .

وللمتخصصين فى علوم النفس طرقهم الفنية فى أخذ العينات ، ومن بين هذه الطرق الرجوع الى كافة المصادر التى سجلت فيها جوانب مختلفة من حياة هذا الشخص اذا لم يكن هذا الشخص قائما أمامنا ، أما اذا كان قائما أمامنا وضع موضع الملاحظه بطرق متعددة .

وقد تقدم علماء النفس بدرجة ملحوظة فى هذا الميدان ، ميدان طرق الملاحظة المضبوطة لمظاهر السلوك المختلفة ابتداء من ثلاثينات هذا القرن ، وقد بدأ التقدم فى ميدان دراسة الاطفال لان تناولهم أسهل وأطوع ، ثم تطور ووصل بنا الى مزيد من الضبط فى جميع الملاحظات على سلوك الراشدين .

وبالنسبة للمبدعين فى الفنون والعلوم توجد مصادر مختلفه يرجع اليها ، وقد رجع اليها المختصون فعلا عند تكوين هذه المقاييس . ومن هذه المصادر على سبيل المثال ما يأتى : —

أولا : التقارير الاستبطانية عن عملية الابداع كما وردت بصورة تلقائية عند بعض المبدعين مثال ذلك بعض الكتابات التى تركها ليونارد دافنشى وغيره من المبدعين فى مجال النحت والتصوير والموسيقى والادب ... الخ ترك هؤلاء — المبدعين تقارير عن مشاعرهم أثناء عملية الابداع ، وقد كتبت بصورة تلقائية فى أثناء كتابتهم خطابا لشخص من الاشخاص ، أو فى أثناء تدوينهم للمحوظة لاحظوها على أنفسهم واثارت اهتمامهم فى أثناء الابداع ليسجلونها أو يقلدونها لتلاميذهم كنوع من توريث الخبرة .

ثانيا : وبالاضافة الى هذه التقارير التلقائية توجد تقارير استبطانية غيرتلقائية ، كان يكونوا قد أغروا بكتابة سير حياتهم ، مثال ذلك ستيفن سبندر World within World الذى قدم كثيرا من المعلومات عن حياته تعتبر عينة صالحة نقيم عليها تحليلات كثيرة ، وتقتبس منها عناصر كثيرة هناك أيضا بولى كلى وتوماس مان وغيرهما كثيرون .

ثالثا : بالاضافة الى التقارير الاستبطانية توجد الملاحظات التى تجرى على المبدعين من خلال سيرهم ، وتعرض هذه الملاحظات فى كتب معينة تؤرخ لهم مباشرة .و من خلال التأريخ لحركات فنية معينة مثال ذلك أنه أصبح معروفا عن شاعر مثل لورد بايرون السهولة أو الطلاقة التى كان يفيض بها شعرا ، كذلكعرفت مثل هذه السهولة أو الطلاقة عن أديسون المخترع التكنولوجى فى أواخر القرن ١٩ (طلاقة تصوراته وأفكاره التكنولوجية) مثال ذلك أيضا بيكاسو والطلاقة التى تنطلق بها تصوراته التشكيلية .

رابعا : سيرة المبدعين المكتوبة نتيجة الملاحظة عن قرب ، وقد قدر لبعض المبدعين اقتراب بعض أصدقائهم أو المعجبين بهم منهم وكان هؤلاء الاصدقاء أو المعجبون يدونون عن المبدعين كل صغيرة وكبيرة . مثال ذلكصداقة جيمس سابارتيز لبيكاسو، فقد كتب لنا سابارتيز أشياء كثيرة على

درجة عالية من الاهمية عن بيكاسو كذلك سميت ايكرمان عن جيته وهو على مقربة منه ، وكتب عن كافكا ٠٠ الخ ٠

خامسا : ما يحصل عليه علماء النفس نتيجة مسألتهم لبعض المبدعين مثال على هذا الفريد بينيه مع بول أرفييه فقد تمكن الفريد بينيه العالم النفسى من الاتصال بالاديب الفرنسى بول أرفييه وأستبره بعدد كبير من الاسئلة كشفت عن كثير من جوانب عملية الابداع لدى هذا الاديب ٠ وفى نفس الاتجاه تمكن ماكس فوتهيمر عالم النفس الالمانى من استبار البرت اينشتاين ، وكانت النتيجة باهرة من حيث الحصول على معلومات على قدر لا بأس به من الأهمية من وجهة النظر السيكولوجية ٠

سادسا : تحليل أعمال المبدعين من حيث عملية الابداع نفسها وتتلخص هذه الطريقة ٠ فى تتبع عملية الابداع وخاصة فيما نسميه بالمسودات أو المحاولات الاولى المتوالية التى يجتازها الفنان الى أن يصل الى المرحلة الاخيرة التى يرتضيها ويقدمها لنا ، والمثال الواضح لهذا الاسلوب الدراسة التى نشرها سنة ١٩٦٣ رودلف أرنهايم عن جيرنيكا بيكاسو ٠ وقد قام بدراسة وتحليل عدد من المسودات المتوالية لهذه اللوحة ٠ مثال أسبق من ذلك ما قمنا به من دراسة بعض مسودات لشعراء مصريين وعرب هذه المصادر الستة وغيرها تؤخذ منها معلومات لاحصر لها عن مختلف مظاهر السلوك الابداعى ٠ ثم تجرى عليها التحليلات الاحصائية المتوالية التى تعرف باسم تحليل المضمون وتحليل البنود ، وتنتهى فى النهاية الى مجموعة هامة من العناصر التى نعرف انها اذا توفرت تكون دليلا على أن نسق الحياة لهذا الشخص تشبيه بنسق الحياة للشخص الذى استمددنا منه هذه المادة بعد ان أثبت نفسه فى الحياة ٠

هذه خلاصة اجابتنا على السؤال الاول .

السؤال الثانى : وهو المتعلق بالدراسات المحلية ٠ سأمر فى حصر سريع لهذه الدراسات :

الدراسة الاولى : الاسس النفسية للابداع الفنى فى الشعر ، وقد بدأت سنة ١٩٤٦ وانتهيت منها ونشرت سنة ١٩٥١ وهذه الدراسة عبارة عن تحليل كيفى لعملية الابداع وشروط انطلاقها ٠

الدراسة الثانية : وهى دراسة نظرية تمت سنة ١٩٥٧ وكان موضوعها « مقاييس القدرات الابداعية ، عرض ونقد ومناقشة للامكانيات الاكلينيكية » قدمتها الى جامعة لندن سنة ٥٩ بمناسبة وجودى هناك فى مهمة علمية ونشرت



سنة ١٩٥٩ وعلى ضوء هذه الدراسة نشرت الكتيب المعروف باسم العبقرية فى الفن ·

الدراسة الثالثة : « عملية الابداع لدى المصورين» وقد اتممتها على المرحوم الفنان المصور محمود سعيد ، وهى عبارة عن تحليلات كيفية ، وفيها تحليلات كمية بناء على عدد من مقاييس الابداع ومقاييس الشخصية ، ولم تنشر هذه الدراسة بعد ·

الدراسة الرابعة : « الاستعدادات الابداعية وعلاقاتها بالسمات المزاجية للشخصية » قام بها بالاشتراك معى الاستاذ عبد الحليم محمود فى جامعة القاهرة سنة ١٩٦٢ وقد استخدمنا فيها عددا من مقاييس القدرات بعد أن طوعناها بناء على مقتضيات البيئة ، وبعد أن حسبنا لها درجة الثبات بطريقتين مختلفتين بطريقة القسمة النصفية Split half وطريقة ثبات التصحيح Inter scorer reliability اطمأننا الى ثبات المقاييس ثم استخدمناها ، وقد كان عدد مقاييس الابداع فى هذه الدراسة ١٢ مقياسا ثم حللت عامليا وأجريت المقارنات بين نتائجنا والنتائج التى نشرت فى الخارج على هذه المقاييس فى شكالها الخارجية·

الدراسة الخامسة : الاستعدادات الابداعية والمرض العقلى، نقوم بها حاليا ،ويشترك معى فيها الاستاذ صفوت فرج فى جامعة القاهرة ، بدأناها سنة ١٩٦٥ على ٢٠٠ شخص من الاسوياء و ٢٠٠ شخص من الذهانيين نزلاء مستشفيات الامراض العقلية هنا فى مصر ، وقد فرغنا من أجزاء كثيرة من هذه الدراسة ، واستطعنا أن نصمم ثلاث مقاييس جديدة لجوانب فى الابداع لم يكن قد صمم لها مقاييس من قبل ، ونحن الآن بسبيل نشر هذه المقاييس فى الخارج ·

الدراسة السادسة : الفروق بين الجنسين فى الاستعدادات الابداعية – تقوم بها بالاشتراك معى السيدة ناهد رمزى منذ سنة ١٩٦٦ على ١٥٠ تقريبا من الذكور و ١٥٠ من الاناث ، وعدد مقاييس الابداع التى استخدمت ١٤ مقياسا أجريت عليها التعديلات اللازمة ، وحسبت لها معاملات الثبات، وكونت الى جانبها مقاييس جديدة على نسقها ·

الدراسة السابعة : دراسة الابداع الفنى فى الرواية ، عملية الابداع الفنى لدى الروائيين · وهنا لا نستخدم مقاييس للقدرات أو الاستعدادات الابداعية ، ولكن نستخدم ما يسمى استخبارا محددا ومقننا Standard Questionair ، ونطبقه على عدد من كتاب الرواية المصريين ، ويشترك معى فى هذه الدراسة الاستاذ مصرى عبد الحميد حنورة منذ سنة ١٩٦٧ فى جامعة القاهرة ·

الدراسة الثامنة : « الابداع الفنى وعلاقته بمستوى التوتر النفسى » ، وتقوم بهذه الدراسة معى السيدة سلوى الملا على حوالى ٥٠٠ شخص انتهينا فقط من مرحلة التجربة الاستطلاعية ، وهى تبشر بنتائج ايجابية ، وخطوتنا القادمة هى التجربة الاصلية الموسعة ·

الدراسة التاسعة : دراسة نمو القدرات الابداعية : وهنا نأخذ عددا من الأعمار المتوالية ، ويقوم بهذه الدراسة معى الاستاذ زين العابدين عبد الحميد منذ سنة ١٩٦٧ على حوالى ٣٠٠ شخص من الذكور يمثلون ثلاث مراحل عمرية متتالية ·

الدراسة العاشرة : دراسة السياق النفسى الاجتماعى للابداع ، يقوم بها معى الاستاذ عبد الحليم محمود منذ سنة ١٩٦٨ لا تزال نوضح فيها مفاهيمنا النظرية ، ولم نحدد بعد الخطة النهائية التى سنتقدم بها للتجربة ·

الدراسة الحادية عشرة: دراسة الاصالة وعلاقتها بأسلوب الشخصية كما يتكشف فى بعض أساليب الاستجابة Response Set ، يقوم بها بالاشتراك معى الاستاذ عبدالستار ابراهيم فى جامعة القاهرة أيضا ·

من هذه القائمة يتضح أننا قمنا بدراسات محلية عديدة وتقوم هذه الدراسات على استخدام مقاييس الابداع وعلى تحليل عملية الابداع ، وقد تأكد لدينا بكل ما تعنى كلمة التأكد فى العلم من من معنى من قيمة هذه المقاييس فى بيئتنا وجدواها وكفاءتها من حيث احتفاظها بالخصائص التى تجعلها أدوات عملية قيمة أى على درجة عالية من الدقة والموضوعية والصدق ·

الى هنا أتوقف عن الحديث عن مقاييس الابداع الفنى وأعود مذكرا بالاسئلة التى بدأت بها ولاسيما السؤال الاول :

هل نحن كمجتمع نريد فعلا أن نصبح مجتمعا يهتدى بالحلول العلمية فى مواجهة مشكلاته ؟ والتخطيط لحياته ؟

ارجو ان نوفق فعلا فى هذا الاتجاه ، ارجو ان نوفق فعلا الى الخير مهتدين بنور العلم ، وأن نوفق الى احترام التخصص ·

مصطفى سويف

قضية الحرب النفسية

د. أحمد فايق

● إن تأمل تاريخ الصراع الإنسانى وحروبه ، يبرز حقيقة أقرب إلى أن تكون قانوناً لفهم انقلابات الأحداث وتطوراتها : من لا يطيق الهزيمة لن يستطيع الانتصار ، ومن لا يستطيع الهزيمة لن يطيق الانتصار .

● تمهيد لفهم الحرب النفسية

منذ حرب يونية ١٩٦٧ ونفوس الناس فى مصر تتحرك متاججة وتفور فورات لم تعهدها منذ زمان بعيد ، وعقولهم فى نشاط وتفزز .. نفوس تبحث عن هدوئها وعقول تجتهد فى تعقل موقف يبدو امامها محيرا غاية التحير. وكان أول تساؤل طرح بعد الهزيمة : ماذا حدث ؟ كانت الهزيمة من نوع غريب .. سريعة بلغت فى سرعتها حدا لم يتوقعه المنتصر والمنهزم على السواء ، غير متناسبة مع القوة الفعلية للطرفين المتحاربين، ناقصة لكل من الغريمين رغم كمالها المظهرى . لذلك وقف الشعب المصرى - وبالرغم من كل ماحدث - حائرا امام ماحدث له وماحدث منه . ومرد الحيرة في واقعه يعود الى امرين:

اولا : انه بالرغم من تحطيم القوة العسكرية المصرية تحطيما كاملا تقريبا ، لم يتقدم العدو الى غرب القناة . وكان واضحا بشكل ما ان عدم تقدمه لم يكن لأسباب عسكرية خالصة او لأسباب سياسية .

ثانيا : انه بالرغم من ظروف عديدة ومتنوعة سبقت المعركة، تغرى العدو بتوجيه ضربة حاسمة للنظام فى مصر ، فوجىء الجميع بان الشعب المصرى - وعلى عكس ما كان يشاع - يتمسك بدولته تمسكا بلغ حدا من القوة لم يكن فى حسبان احد .

وبعد التاسع والعاشر من يونية ، تحول السؤال عما حدث

الى كيفية حدوثه . فمن طبيعة الأمور ان تتعدل صيغ التساؤلات اذا عجز الموقف عن اجابتها . وفى محاولة الاجابة على هذا السؤال : كيف حدث ؟ زاد الموقف غموضا على غموض . لقد اتجهت اغلب المحاولات الى البحث عن مسئول او مسئولين عن الهزيمة . بل لقد اقترح الرئيس اجابة على هذا السؤال بأن يتحمل مسئوليتها كاملة . ولكن رفض الشعب لهذا الاقتراح كان وليد احساس بأن السؤال ليس بسيطا ببساطة هذه الاجابة المقترحة . فحجم الهزيمة لا يمكن أن يكون مسببا بشخص واحد او بعدد محدود من الاشخاص . والدليل على ذلك ان وقفة الشعب فى ٩ ، ١٠ يونية تشير الى ان قدرة الجماهير لم تكن منقطعة الصلة بالاحداث بل هى العامل الحاسم فى مجرياتها . وفى هذين اليومين تبين بجلاء ان ادعاء البعض بانعزالهم وعجزهم عن المشاركة فى مصير بلدهم هو ادعاء يخفى سلبية ، ذاتية فى اغلبها .

وهكذا ادت الحيرة امام مشكلة المسئول عن الهزيمة الى صياغة التساؤل صياغة ثالثة . اذا كنا جميعا مسئولون عن الهزيمة بطريق مباشر او بطريق غير مباشر : فهل يعنى ذلك اننا ذوو خصائص معينة ؟ هل نحن امة لها صفات نوعية تفسر لنا ماحدث منا ؟

كانت صيغة التساؤل على النحو السابق ذات قوة جذب شديدة لكثير من الكتاب والمفكرين . فبعد الهزيمة اتجهت اكثر الجهود الفكرية الى البحث عن خصائص الشعب المصرى وخصائص العدو . وكان من الطبيعى أن يرجع رد السؤال صدى لما يثيره السؤال نفسه من حيرة . فالسؤال يطرح مشكلة الحيرة حول طبيعتنا وما بها من خصائص تفسر الهزيمة ، وجاء الرد تصديقا على مطلوب : ان لنا خصائص يجب أن نحاربها فى نفوسنا واخرى يجب أن نتيح لها فرصة لتبرز حتى نواجه خصائص مقابلة فى عدونا .

وبالتدريج برزت النتيجة الحتمية لهذه الصياغة ... قضية الحرب النفسية . ان بلورة القضية واختزالها الى : ماهى طبيعتنا النفسية وماهى طبيعة العدو - ان اختزال الموقف الى هذه النقطة يعنى تحويل المعركة - فى هدوئها المترقب - الى معركة نفسية . ولا شك ايضا فى ان اختزال المعركة الى جانبها النفسى سوف يرتبط فى مفاهيمه بقضية النوعية النفسية للشعب المصرى وما يقابلها عند العدو . ولنا على هذا الموقف بعض الملاحظات التى ان لم تفد ، فانها على الأقل سوف تمنع بعض الضرر الذى نلمحه حاليا فى ثنايا مشكلة الحرب النفسية .

أسباب لأسباب

ان تأمل تاريخ الصراع الانسانى وحروبه يبرز حقيقة اقرب الى ان تكون قانونا لفهم انقلابات الأحداث وتطوراتها : من لا يطيق الهزيمة لن يستطيع الانتصار ، ومن لا يستطيع الهزيمة لن يطيق الانتصار .. وبالرغم من هذه الحقيقة تشيع فى الكتابات السياسية الحالية تعبيرات المعركة المصيرية : والمرحلة الحاسمة ، وما الى ذلك من تعبيرات تكشف عن توتر شديد ونفاذ صبر . ويمكننا ، مستفيدين من التحليل النفسى ، أن نرجع الموقف النفسى لأصحاب هذه الأفكار الى سببين :

الأول عدم تقبل موضوعى للهزيمة وتقبل وجدانى لها مما جعل أصحاب هذا الموقف لايطيقون الهزيمة ، اى لا يتحملون غيرها . لذلك تتميز افكارهم بانها رد فعل مباشر لخوف مفرط يمكن ارجاعه الى نرجسية شديدة جرحتها الهزيمة فاثارت فيهم نوازع الانتقام . والواقع أن الموقف لا يبرر هذا الاتجاه لعدة أسباب . فمصير مصر - وغيرها من الدول ذات القوام التاريخى الثابت - لا يتقرر بهزيمة أو حتى باحتلال كامل . بل الأجدر بمثل هذا الفزع أن يكون شعار الاسرائيليين الذين كانوا قبل حرب يونيو فى موقف لا يتحمل هزيمة وأصبحوا حاليا فى موقف يتحمل هزيمتين لا ثالث لهما .

أما السبب الثانى فهو عدم قيام الصراع بيننا وبين العدو على اسس الانتقام . ان المعركة تختلف من جانبنا عن طبيعتها من جانبه . بالنسبة لنا نحن فى حرب مع الاستعمار ، واسرائيل قوة استعمارية يجب ان نصطدم بها اصطدامات عديدة لاتنتهى بهزيمة كاملة أو انتصار كامل الا فى مدى طويل . فليس هناك مبرر كاف لأن نعتبر صراعنا مع اسرائيل صراعا اساسه الغيظ والخجل والتباهى وما الى ذلك ، بل هو صراع مصيرى من حيث ارتباطه بمصير الراسمالية العالمية . فضلا عن ذلك هناك سبب ثالث يجعل الموقف النرجسى من هزيمة يونيو موقفا خطيرا . فقبل حرب الأيام الستة كانت نفس العبارات تملأ الصحف ، ولم تفد هذه العبارات فى تغيير الأمر كما وضح لأصحابها ان المعركة لم تكن مصيرية كما ظنوا فى نرجسية غلبتهم وعاقت بصيرتهم .

السبب الثانى فى شيوع هذه العبارات هو مغالبة المخاوف النرجسية بالنزعات الانتحارية . فمن الحيل النفسية المعروفة أن المرضى النرجسيين يلجاون الى الانتحار فى شجاعة مفرطة اذا ما خدش عشقهم لصورتهم . وقد كانت هزيمة يونيو خدشا لنرجسيتنا جميعا ، ولكن وقعها على البعض كان أثقل من وقعها على غيرهم . لذلك ظهرت لديهم أعراض الانتحار فى شكل تفزز الى الدخول فى معركة واحدة تمحو عار الماضى وترد للذات مبررات عشقها . ومثل هذا الموقف ياخذ شكلين : انتظار مؤلم الى حين اعداد قوة ساحقة ترد الاعتبار للذات : او اندفاع باشلاء قوة فى دفعة انتحارية واحدة تنهى على ما بقى لنا من قوة . هذه الحيلة النفسية فى الواقع هى مصدر لا ينقطع لخلافات الراى بين المفكرين والساسة . ومنبع لكثير من سوء فهم لعدد آخر من



المفكرين لموقفهم من الاحداث موقفا يبدو غامضا فى ضوء الانحياز لواحد من الشكلين .

ان الفزع من جرح نرجسيتنا ومغالبة هذا الجرح بالنزوع الى الانتحار المادى والمعنوى هو المحرك الوحيد لنمط تساؤلاتنا منذ يونيو ١٩٦٧ : ماذا حدث ؟ كيف حدث ومن المسئول ؟ هل العلة فينا وفى شخصيتنا ؟ ان الفزع من خدش نرجسيتنا هو الذى حول القضية السياسية الى قضيلة صمود وتراخ نفسيين : لذلك يجب ان نشك شكا منظما ودقيقا فى قيمة ما طرح من تساؤلات حتى لا يجرفنا حرصنا على نرجسيتنا الى الاندفاع الانتحارى او الشك فى نفوسنا شكا يماثل مخاوفنا من الحرب النفسية . علينا ان نتساءل ونبحث بجدية عن اسباب للأسباب ، دون ان نستمتع بهذه اللعبة الفكرية متعة نرجسية .

● بداية تصلح نهاية

ان أول مايثير الشك فى جدوى الاندفاع وراء الشائع عن الحرب النفسية هو غفلتنا عما حدث فى يونيو ١٩٦٧ . ان هزيمة يونيو ١٩٦٧ حدث لم يكتمل بعد بل هو مجرد بادرة وعلامة أولنقل هو جزء من حدث مركب غاية التركيب. فهزيمة يونيو لاتعد حدثا الا بمقدار ما جمعته من مقدمات منطقية لها . ويكفى لذلك دليلا أن الدور الذى لعبته هزيمة يونيو فى أحداث السودان وليبيا لا يخفى على عين ويشير الى أن الهزيمة فى ذاتها جزء من حركة دينامية بين قوى الصراع فى المنطقة العربية . لذلك يمكننا دون تردد ان نرفض منهجيا جميع التساؤلات التى قامت على اساس ان هزيمة يونيو حدث فى ذاته يدل بذاته على أمر محدد . يمكننا ان نرفض تسلسل التساؤلات الذى قاد الى مسالة النوعية المصرية ـ والعربية ـ بدليل ان أحداث هذه الهزيمة وما تلاها لا تعطى ارضا صلبة لراى محدد فى مسالة النوعية المصرية .

ثم يتضح ايضا ان البحث عن « النوعية البشرية للشعب المصرى » بحث يقوم على مسلمات غاية فى التحيز ـ وبغض النظر عن نتائج هذا البحث . فالشعب المصرى لا يختلف عن

غيره من الشعوب فى قابليته للانقياد وقدرته على الثورة • كما انه ليس أقل من غيره من الشعوب ميلا الى التغير والتغيير، وليس اكثر منها نزوعا الى التحفظ والمحافظة • كل ما فى الأمر انه ـ وبحكم وضع جغرافى خاص ـ يعد مرآة مكبرة لخاصية شعبية معروفة هى التمثل النوعى للتيارات الحضارية الغازية • فالوضع الجغرافى للشعب المصرى يعرضه بدرجة أكبر لتيارات فكرية وحضارية وثقافية عديدة ، وفى فترات زمنية غير متباعدة ومتكررة ، بما يجعله فى صراع مستمر مع التغير العارض والتحفظ الدائم . لذلك لا يمكن البحث عن خاصية نوعية للشعب المصرى ، فلسنا على العراقة الوهمية التى يتمسك بهـا المنفعلون بالشعب المصرى . ولسـنا بالخنوع والسذاجة التى يتمسك بها المنفعلون من الشعب المصرى . بل نحن كغيرنا من الشعوب ـ لنا مالنـا وعلينـا ما علينا ـ اذا كان من الممكن التحكيم بين الشعوب .

واخيرا يقودنا الشك المنظم فى القضايا المطروحة الى حقيقة يصعب التغافل عنهـا ، الا وهى : انه ليس هنـاك شعب وشعب ، بل هنـاك تاريخ وتاريخ • فتعبير « الشعب المصرى » تعبير مبالغ فى مضمونه نظرا الى الاختلافات التاريخية بين طبقاته وما تعرضت له عبر زمانها من خبرات • فالطبقة العاملة فى مصر تقترب بخبراتها التاريخية من الطبقات العاملة فى كثير من دول العالم الثالث وتبتعد عن طبقة الراسمالية الوطنية المصرية ذاتها • لذلك لا يمكن البحث عن نوعيـة بشرية للشـعب المصرى ، لأنه لا يوجـد « مصرى » يمثل المصريين •• ان هذا الراى يحمل تعميما مبالغة فيه ، كما يجب الا نتكلم عن مصر واحدة فى ضمير جميع المصريين لأن فى ذلك تعاميا عن اهم مافى الحرب النفسية من جوانب : جانب وحدة الرؤية ووحدة الاحساس بالموقف •

لابد ، اذن ، من أن تنظر نظرة أخرى الى البداية التى بدأت منها التساؤلات • هذه البداية فى الواقع تصلح نهـاية لفهم الحرب النفسية . فالقضية على النحو الشائع عنها ترتبط بامر آخر غير الحرب النفسية ، انها ترتبط بما هو معروف « بالحرب المعنوية » • فالبحث عن « النوعية البشرية » ومهما دق ونجح سوف يكشف عن مناطق الحساسية والصلابة فينا بما يسمح بدعم المقوض منها والاعتماد على الصلب فيها • والفرق بين الحرب النفسية والحرب المعنوية فرق شاسع • فالحرب المعنوية تعالج معالجة سطحية مشاكل عارضة تنتزع من التاريخ قسرا ، ويعمم دواؤها على جميع ابناء الشعب دون تمييز بين من يعانى ومن هو محصن . فقوام الحرب المعنوية هو « الدفاع » وليس « الهجوم » • اما الحرب النفسية فتتعامل مع الانيه Identity ، بكل ماتعنيه الانية من الغاء للفروق المظهرية للشخصية Personality • فالانية الشعبية هى نقطة اتفاق يمكن بالكشف عنها الغاء الفروق بين الجماعات لفترات مناسبة تسمح بالوحدة الوطنية • لذلك تعد الحرب النفسية امرا معقدا لأنها تاخذ فى الاعتبار تاريخ الأمة ـ وما كان فيه من أسباب للتمايز والتنافر بين جماعاته وطبقاته ـ تحاول تاجيل اهميتها بالنسبة لها ، وتاخذ فى الاعتبار كذلك المعنى النوعى للأحداث بالنسبة للفئات فتحاول ان تستخرج منـه المعنى العام لتجمع الجميع وراء فكرة موحدة • بعبارة اخرى: الحرب النفسية هى هجوم على مكامن الخطر وليس دفاعا عن مكامن الأمن • وبذلك يمكن ان نجد للحرب النفسية شقين : شقا لنا وشقا لعدونا . فمن المهم ان نعى الفرق بين الحرب المعنوية والحرب النفسية لأهمية ذلك عندما نخطط لحرب نفسية ضد العدو •

الغاية والوسيلة

من احصاء طريف عن الحرب ، تبين ان الجنس البشرى لم ينعم بالسلام اكثر من ٢٩١ عاما خلال الخمسين قرنا الماضية (٥٠٠٠ عاما) • ومعنى ذلك أن الحرب بالنسبة للانسان عمل ينفق فيه عاما ويستريح ثلاثة اسابيع وبضع ساعات • وغاية الحرب ـ مهما تخفت تحت الشعارات السياسية والوطنية ـ هى السيطرة على الأرض اى الثروة او على الانسان اى قوة العمل ، او الاثنين معا • فالمعارك العسـكرية والحروب الاقتصادية ماهى الا وسائل لغاية هى الاستيلاء على الثروة او قوة العمل • والاستعمار القديم كان يستهدف من الاحتلال قسر المحتل على التخلى عن ثروته او قوة عمله • اما الاستعمار الحديث فيتبع أساليب غير عسكرية تؤدى الى نفس الفرض وهو : التنـازل يأسـا او اقتنـاعا ـ عن الثروة أو قوة العمل •

لذلك تعد الحروب ـ عسكرية كانت او سياسية ـ وسيلة للانتصـار النفسى على شعب آخر • فالغاية من الحـروب هى الانتصار فى معركة نفسية تسمح للمنتصر أن يحصل على مبتغاه باقل جهد • ويمكن ان نعبر عن الأمر بشكل اوضح فنقول : ان المعارك العسكرية والضغوط السياسية والاقتصادية هى وسائل غايتها كسب حرب نفسية بين متصارعين • ولا ادل على ذلك من فكرة اسرائيل عن حـرب يونيو • لقد صرح مسئولوها بانهم ينتظرون من هذه الهزيمة حالة نفسـية واقتناعا بضرورة التفاوض • وقد عبر الرئيس عبد النـاصر فى تصريحاته بعد النكسة عن ذلك بما معناه اننا لن نستسلم، وظهر بوضوح ان الوسائل العسكرية والاقتصادية لم تبلغ باسرائيل مشارف النصر النفسى •

هذا الراى يفسر لنا مكمن الخطر من الاندفاع وراء ماهو شائع حاليا عن معنى الحرب النفسية • فالشائع حاليا ان الحرب النفسية وسيلة يتبعها العدو للانتصار العسكرى والسياسى، او وسيلة نتبعها نحن لننتصر عسكريا وسياسيا • والواقع ان هذا هو قلب للسبب بجعله نتيجة واستبدال الغـاية

بالوسيلة . ان ما سبق وقلناه بان هزيمة يونيو كانت بالنسبة لنا هزيمة من نوع غريب .. ناقصة رغم شدتها ، غير فعالة رغم فعلها الواضح - ان ما سبق ان قلناه يجد ما يفسره . لقد ظن العدو ان الانية المصرية من التحلل بحيث يمكن للهزيمة تغييرها . ولكن ظهر ان الهزيمة كانت عاملا شديد الفاعلية فى كشف هذه الانية لهم .. بل واكتشاف المصريين انفسهم لها .

● مشاكل الحرب النفسية



تلك هى بعض الظلال التى تخفى تفاصيل مفهوم دقيق هو مفهوم « الحرب النفسية » فالحرب النفسية ليست تكتيكا يمارس لغاية بل هى استراتيجية تحتاج الى عدة تكتيكات منها المعارك العسكرية والضغط السياسى والاقتصادى والحملات الاعلامية التى تشكل حربا معنوية . فضلا عن ذلك فان الحرب النفسية ذات شقين ، كل شق منها له مشاكله كما أن العلاقة بين الشقين مشكلة فى حد ذاته . مثال ذلك ، ان العدو قد قدر ان الهزيمة كفيلة بهزيمة نفسية للشعب المصرى . وبعد توقف القتال بدأ فى التلويح بالسلام محاولا أن يستغل حالة الحزن لدينا ليحولها الى حالة يأس . وكان هدفه من ذلك مزدوجا : واحدا يتعلق بنا والآخر يتعلق به . كان هدفه ان ننظر الى المستقبل فنرى طريقا طويلا لا تلوح فيه بوادر امل واضح ، وبذلك نمارس ضغطا شعبيا على السلطة كى تهادن وتنقذ ما تبقى . الا ان احداث ٩ ، ١٠ يونيو اثبتت عكس ذلك ، فلا الشعب رضى بالاستسلام ولا القيادة كانت راغبة فى الاستسلام او فى الوقوف امام الزحف الشعبى . اما الهدف الثانى للعدو فكان خلق موقف نفسى داخل لديه يسمح للسلطة العسكرية ان تستمر فى ضغطها على الشعب اليهودى ليظل حاملا سلاحه على أساس أن الأمل فى السلام قريب . ولكن احداث ٩ ، ١٠ يونية جعلت اليهودى يشك فى انه يسير فى طريق السلام او ان مايراه قريبا هو قريب بالفعل .

لذلك يمكن أن نحدد مشاكل الحرب النفسية فى النقاط الآتية :

الحرب النفسية غاية وليست وسيلة ، وادارة حرب من هذا النوع تحتاج الى مهارات متنوعة تتآزر تآزرا دقيقا ، بحيث تعتبر كل مهارة منها تكتيكا يتبع لبلوغ الغاية .

(ب) الحرب النفسية مجمل لمتناقضين : فشن حرب نفسية على عدو يعنى شن حرب نفسية اخرى على الذات بحيث يتم نوع من التناسق بين النتائج هنا والنتائج هناك .

(ج) الحرب النفسية تستهدف الانية اى الجوهر ولا تستهدف الشخصية وهى عرض • فالغاية من الحرب النفسية هى تغيير جذرى فى الذات وفى العدو يستمر فترة طويلة بتسيير ذاتى • وهذه هى النقطة المميزة بينها وبين الحرب المعنوية التى تستهدف الشخصية ، تقوى فيها لتتحمل مشاق المواقف ، بحيث تنهار الشخصية اذا انضب المورد المعنوى •

(د) ان الحرب النفسية لا تقوم على أساس دراسة للنوعية البشرية او النوعيات البشرية ، بل تهدف الى بلوغ هذه النوعية • فمن الصعب ان تشن حرب مادية تستهدف حالة نفسية عند عدو ان لم تكن الانية لدى العدو مهتزة او تبدو كذلك • حينئذ يغرى اهتزاز الانية بالتدخل بحيث تقام على غرار يناسب مطامع الخصم •• اى خلق نوعية بشرية ملائمة للخصم •

هذه النقاط الاربعة تفتح امامنا السبيل الى وضع صيغة عامة عن طبيعة الحرب النفسية • ان الحرب النفسية فى شقها المعادى هى محاولة استغلال تفكك النوعية والانية لشعب ، لاقامة انية ونوعية جديدة تلائم الطامع فى ذلك الشعب • وشكل هذا الاستغلال يكون عادة فى صيغة تعميق لتنافر يظهر بين طبقات الشعب وفئاته او بين الطبقة الحاكمة وقيادتها • وعن طريق هذا التعميق تحدث العزلة الشعبية التى تسمح بتوجيه ضربات معنوية واقتصادية وسياسية لكل منها على حدة فتسهل عملية الانتصار • اما الحرب النفسية فى شقها القومى فخلق نوعية وانية جديدة قوية تلائم مطالب مراحل الصراع • وطريقة خلق هذه الانية عملية ليست بسيطة لارتباطها من جانب بتلقائية شعبية لا يمكن خلقها خلقا ، ولارتباطها من جانب آخر بالهام يأتى القادة او القائد ليحرك هذه التلقائية حركة مناسبة فى وقت مناسب ، ولارتباطها من جانب ثالث بعملية تخطيط عملية تحتضن التلقائية الشعبية والمبادأة القيادية فى عملية منظمة تؤدى الى صلابة الجبهة الداخلية واطلاق طاقات العدوان الى خارج المجتمع وتجاه العدو الصحيح •

● مثال لمعركة نفسية

يمكننا ان ناخذ احداث مايو ويونية ١٩٦٧ مادة لمثال طيب عن حرب نفسية • فمنذ تفاقم الازمة باغلاق خليج العقبة الى نزول الرئيس على ارادة الجماهير بالبقاء فى مركز القيادة يوم ١٠ يونيو كانت الأحداث تتوالى بسرعة • ويمكن ان نعطى بعض الملاحظات على هذه الاحداث قبل تحليلها :

اولا : ان الأحداث الخطيرة تتغير فى طبيعتها بسرعة تجعل معناها يتغير كذلك تبعا لكل جديد يضيف اليها اضواء او يسحب عنها اضواء مؤقتة زائفة • فاختلاف تفسير احداث يونيو ١٩٦٧ لا يصدر عن تفاوت فى مقدرات المحكمين بل هو ناجم عن الحدث ذاته •• كان سريع التغير بما لا يسمح بالحكم عليه حكما واحدا ، او لنقل كان تغيرا يسمح باعطاء اكثر من حكم عليه فى كل يوم جديد •

ثانيا : ان احداث يونيو كانت سببا فى تغير جذرى لعلاقات القوى الشعبية فى مصر ، كما انها كانت نتيجة لتغير فى علاقات هذه القوى ايضا • ومثل هذا التغير الذى أصبح مرحلة هامة فى تاريخ الشعب المصرى يحول بين جيلنا وبين ادراك واضح لما حدث ، حيث يكون ادراك معنى هذه المرحلة من نصيب جيل قادم •

ثالثا : ان تحليل هذه الاحداث رغم الصعوبتين السابقتين هو جزء من الأحداث ذاتها • فالعجز او عدم الاطمئنان للتحليل الجيد يجب الا يمنع المحاولة لأن الأحداث هى تفسيرات : بعضها يفعل وبعضها يقال ويكتب • ان احداث يونيو هى تفسيرات قام بها العدو وقمنا بها ، وتفسيرنا لها هو جزء منها لأن هذا التفسير هو استجابتنا لما حدث فى الاطار الفكرى •

بهذه التحفظات نحاول تحليل احداث يونيو بوصفها نموذجا لحرب نفسية •

كان من الشائع فى تفكير الجهاز الراسمالى العالمى ان نظام الحكم فى مصر يستقر على قوة ضغط بوليسية • وظل اسلوب الصراع معنا والهجوم علينا واحدا منذ ١٩٥٤ ، وهو ضرب اداة الحكم حتى تخف قبضتها عن الشعب ، بامل الثورة على النظام • ولن نعدم ان نجد من المصريين من ظن ظن الراسمالية بصدد نظام الحكم فى مصر • بمعنى آخر ، كان تقدير اجهزة الحرب النفسية للدول الراسمالية ان الانية المصرية مفككة وان الصلة بين الدولة والشعب واهية بحيث يمكن توجيه ضربة الى هذه الصدوع عن طريق عسكرى او سياسى او اقتصادى •

وكانت حملة ١٩٦٧ فى سيناء مزدوجة الهدف • من ناحية اعتبرها الغرب واسرائيل ضربة فى هذا الصدع المفترض • ومن ناحية اخرى كان هدفها الأساسى هو تكوين انية مصرية مسالمة تخشى الاداة العسكرية اليهودية • بعبارة ثانية كان الانتصار العسكرى لدى اسرائيل يخدم غرض تحطيم كامل للانية المصرية واعادة بنائها على نسق ملائم لاسرائيل • ولا يخفى على احد ان وراء هذا التصور لأسلوب الحرب النفسية تقدير ما موجزه : ان الجيش كان اداة ثورة ١٩٥٢ واداة تنفيذ القرارات الاشتراكية عام ١٩٦١ وتصفية الاقطاع وكل ما تم

من انجازات حتى الآن . وبضربه يفقد النظام دعامة وجوده. ولا يخفى كذلك ان قيام الجيش بهذه المهام قد خلق بعض فئات تعاديه اما لأنها أضيرت على يديه واما لتصرفات خاطئة جاءت كجزء من تنفيذ هذه المهام .

ولايخفى كذلك أن قيام الجيش بهذه المهام قد خلق بعض فئات تعاديه فى اما لانها اختبرت على يديه واما لتصرفات خاطئة جاءت كجزء من تنفيذ هذه المهام .

ولكن أحداث التاسع والعاشر من يونيو كشفت بوضوح غريب لنا ولأعدائنا ان هذا التصور معكوس انعكاسا تاما .. فبعد ٨ يونية لم يكن الجيش فى وضع يسمح له باى تصرف من اى نوع . وكان بنـاء الدولة بادى الغموض فى ضمير الشعب ، وكان قائد الأمة مستعدا للتنازل عن الحكم .. ظروف أكمل مما كان العدو يطمع فيه، ولكنها جاءت بنتيجة مناقضة تماما لكل توقع . لقد كان العنصر الأساسى فى الحرب النفسية علينا ـ وهو وجود جفوة بين الشعب والدولة ـ محسـوبا حسابا خاطئا . وبدلا من ان تاتى الضربة بانشطار يفتت الانية ، كانت الضربة عاملا لرتق كل الثقوب ولصق كل الشروخ . لقد كانت حسابات العدو للحرب النفسية مشبعة بما هو معروف فى علم النفس بمركزية الذات حيث تعمى البصيرة بالرغبة المتاججة فلا يعرف المتمركز الذاتى الفرق بين مايريد ان يراه وما يراه فعلا او ماهو موجود حقا وما يريد ان يكون موجودا .

اما من جانبنا فكان الموقف كذلك فيه الكثير من المفاجآت. فعندما شن العـدو علينا حربه العسكرية بهدف النيل منا نفسيا ، كنا فى وضع غريب الى حد كبير . لقد كان الشعب فى علاقة بالجيش لا يمكن ان توصف بأنها قوية . كانت بعض تصرفات عدد من الرجال العسكريين تثير الضيق لدى المواطنين ، وكان تمييز العسكريين فى بعض جوانب الحياة اليومية يخلق نفورا تلقائيا لدى فئات شعبية معينة . فضلا عن ذلك كانت اجهزة الاعلام تركز تركيزا ضخما على المبالغة فى قوتنا العسكرية وضعف العدو العسكرى . وما ان بدأت المعركة حتى تكشف للشعب صدق بعض ظنونه كما تكشف له أهميته البالغة فى أى انتصار أو هزيمة. لذلك ـ وبرغم سرعة الأحداث ـ واجه الشعب لأول مرة خطرين : خطر الهـزيمة النفسية ـ وخطر التفكك المدمر لجهاز الدولة . اما من حيث الهزيمة النفسية فكانت فترة القتال فترة تتجاذب الشعب فيها قوتين الأولى العدوانية الداخلية والثانية اليقظة الى خطـورة هذه القوة على الذات . وفى لحظة لا تتجاوز فى حـكم الزمن بضع دقائق تغلبت اليقظـة الوعى على النزوعات التدميرية الذاتية . ولاشك من الناحية النفسية الخالصة ـ ان تصرف الرئيس بعرض تنازله عن السلطة ـ كان العامل الحاسـم والأساسى فى هذه اليقظة . لقد جسد التنازل الخطر الذى قد يغفل عنه المجروحون نفسيا اذا انساقوا فى غفلتهم عما ينتظر وطنهم . كان التنازل هو لحظة حدس قيادى نادر اتفق اتفاقا غريبـا مع تلقائية شعبية ولحظـة تكشف جماعى نادر هو الآخر .

كانت التلقائية الشعبية هى العنصر الذى لم يحسب الأعداء حسابه بدقة . فعنف الهزيمة واقتراب الخطر بكل ما يثيره من مشاعر نرجسية قوية كان عاملا هاما فى تغليب الوعى على الغرق فى النزعات المرضية . لقد كانت لحظة الوعى هى لحظة ادراك خطر تفكك الدولة على الذات . وربما يبدو الحديث فى هذه النقطة غامضا ، ولكننا نود ارجاء ايضـاحه لمقال ثان . ولكن ـ وفى العموم ـ أحس الشعب متفاعلا مع معنى تنحى الرئيس هدف المعركة وهو القضاء على الانية ، لذلك حـدث رد فعل عكسى غير محسوب من اى طرف من الأطراف .

يمكن حاليا ان تقدم فكرة اكثر تفصيلا عن مشكلة الانية التى تهدف الحرب النفسية الى تحطيمها . ان الانية هى رؤية الذات فى أمر آخر خارجى . فالعلم والشعار والعقيدة هى أمور تشكلها الانية لتتشكل بها . لذلك تعد الهزيمة النفسية انفضاض عن محور للانية اما لرفض هذا المحور اولا ستحالة التوحد فيه . وكان الدف الاستعمارى من الحرب هو ضرب محور للانية المصرية هو الرئيس ينفض الشعب عنه او يشعر باستحالة التوحد فيه . وكان الخطا فى ذلك ان الشعب لم يكن متوحدا فى رئيسه وحده ، نظرا الى توحده الاصلى فى اشتراكيته ، ثم تنبه ـ عنـــدما تقدم الرئيس بعرض التنحى ـ الى ان الهدف الاستعمارى هو ضرب انيته . حينئذ التف الشعب حول الرئيس واستبدله شخصيا بمحور انيته . وهذه العملية فى الواقع ذات اعماق بعيدة ، نحاول ابرازها فى عبارة يمكن نطقها : « أنتم تريدون ان تحطمونا بتحطيم رمز دولتنا ، ولكننا لسنا فى الواقع متوحدين فى هذا الرمز توحدنا فى الدولة ذاتها ، لذلك ـ وحتى نقاومكم ـ سوف نستبدل بالدولة زعيمها نلتف حوله ، فتخيب الضربة لخيبة التقدير الذى كانت له » .

لايبقى بعد ذلك لفهم الحرب النفسية الا تنبية ثم تحذير اما التنبيه فهو الى مكامن الخطا فى تقدير العدو . لقـد قدر العدو ان الرئيس هو محور انية الشعب ومكمن اغترابه، ولم يكن ذلك بالتقدير السليم . لذلك تحمل الشعب الهزيمة وافاق الى انيته . اما التحذير فهو محاولة اقامة الانية على التوحد فى شخص . فهذه الانية قد تبدو فى مظهرها قوية ولكنها فى جوهرها تكون ضعيفة فضلا عن تعرضها السريع للخطر . وبذلك يمكن ان نقلب التنبيه الى تحذير ونقلب التحذير الى تنبيه ـ اذا كنا جادين فى شن حرب نفسية على اسرائيل . علينـــا ان ننتبه لأهميـــة تدعيم مفهوم الدولة الاشتراكية فى ضمير الشعب حتى لاتهتز الانية بسهولة ؛ وعلينا ان ننتبه الى ان الانية الاسرائيلية المعاصرة قائمة على التوحد فى شخصية قادتها العسكريين وساستها الذين يدعون مهارات ودهاء امام جماهيرهم .

احمد فائق

حول التفسير النفسى للتاريخ

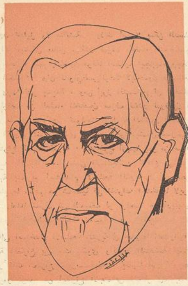
قدرى حفنى

- ان العلوم الانسانية ككل مازالت تربطها بالفلسفة روابط وثيقة ، وبالتالى فقد وقر فى أذهان الكثيرين ، انه على المتخصص فى العلوم الانسانية أن يفسر كل ما يتعلق بالانسان .

- انه اذا كان الانسان هو صانع العلوم جميعا ، حيث انها نتاج حضارته ومجتمعه، فان العلوم الانسانية تجمع بين كونها نتاجا للانسان ، وبين كون ذلك الانسان موضوعا لدراستها بوجه عام .

- لقد خلقت الراسمالية فى تطورها انسانا حكم عليه بان يكون قليل الحيلة ، فظروف مجتمع الحضارة الغربية تحول دون ممارسة الانسان لحريته الايجابية . وتدفع به الى حرية سلبية ، أى تدفع الى الهروب من الحرية .

يتسم عالمنا المعاصر - ضمن ما يتسم به - بانه عالم تعددت فيه مجالات العلم ، وازدادت تفرعاته وتخصصاته حتى كاد ذلك الازدياد ان يذهب بشمولية نظرة العالم الى الكون ، أو أن يجعلها أمرا يقرب من الاستحالة . واذا كان علينا ان نسلم بانه لم يعد فى مقدور عالم فرد ان يحيط احاطة تفصيلية بدقائق كافة مجالات العلم ، بل انه لم يعد من الأمور الميسورة ان تتوفر للعالم تلك الاحاطة التفصيلية الشاملة حتى بمجال تخصصه المحدود ، فان علينا أيضا الا ننساق فى تيار تشجيع الاغراق فى التخصص بحيث نصل برجل العلم الى حد الانغلاق على نفسه بعيدا عن عالمنا ومايحيط به ويجرى فيه من مشاكل وقضايا تبعد بدرجة أو بأخرى عن نطاق تخصصه ، وتقترب بنفس الدرجة من تخصصات غيره من العلماء . وبين ضرورة انفتاح العالم على مشكلات عالمنا المعاصر ، واستحالة احاطته التفصيلية بدقائق كافة مجالات العلم فى هذا العالم ، يصبح طريق رجل العلم الراغب فى الانفتاح على مشكلات المعاصرة ، مع مايفرضه ذلك الانفتاح من ضرورة التصرف بشكل دقيق على الخصائص النوعية للمجال الذى تقع فيه المشكلة موضع الاهتمام ، يصبح طريقه وعرا تحف به مخاطر شتى ، وتملؤه كذلك شتى المغريات فاستحالة الاحاطة التفصيلية بمختلف مجالات المعرفة قد تدفع بالعالم الى العزوف عن مجرد محاولة اجتياز الطريق منذ البداية ، قانعا بمجال تخصصه الضيق المحدود ، محتميا بشعار احترام التخصص كمبرد لانعزاليته ومن جانب آخر قد يؤدى الحاح المشكلات والقضايا المعاصرة ، واحساس العالم بضرورة مشاركته فى تناولها الى اغرائه بالاندفاع محاولا تخطى ذلك الطريق الوعر دون تحفظ ولا تحوط . ومن اخطر اشكال ذلك الاندفاع ان يعمد رجل العلم



س . فرويد

المتخصص الى أيسر الطرق ــ وأن كان أخطرها وأبعدها عن الصواب ــ مرتديا ثوب فيلسوف العصور القديمة الذى يحيط بكل شىء علما ، جاعلا من تخصصه العلمى المحدد والمحدود نظرة شاملة تغطى مجالات الحياة جميعا ، مفسرة لها ، ومحلله اياها ، بل ومتنبئة بمستقبل ظواهرها ايضا ، متجاهلا بذلك وجود علوم أخرى قدتكون أقرب الى مايتعرض لهمن قضايا، ومتجاهلا ايضا الكثير من الحقائق التى قد تكون بعيدة بالفعل عن النطاق المباشر لتخصصه ، ولكن الأحاطة بها تشكل جانبا هاما فى فهم القضايا التى يتعرض لها فهما موضوعيا كاملا . ولاتعنى وعورة الطريق أن يتقاعس العالم الجاد عن محاولة اجتيازه مغلقا على نفسه باب تخصصه ، منعزلا عما يصطرع فى العالم خلف ذلك الباب من قضايا ومشكلات . كما أن مغريات الطريق لاينبغى أن تكون مبررا لاندفاعه نحو تناول سهل متسرع لتلك المشكلات معتبرا أن ماحصله فى مجال تخصصه كفيل بان يفسر كل شىء خارج مجال ذلك التخصص. على رجل العلم اذن أن يتفاعل مع مشكلات العالم المعاصر ، ولكن عليه أيضا أن يعى جيدا حدود تخصصه ، وأن يضيف الى معرفته المتخصصة علما جديرا بما وصل اليه من سبقه من الباحثين فى المجال الجديد الذى يطرقه ، وأن يلم الماما كافيا بوقائع ذلك المجال ، بالقوانين النوعية التى تحكم مافيه من ظواهر ، حتى يمكنه أن يتناول مشكلات ذلك المجال تناولا خلاقا يضيف اليها من علمه شيئا جديدا .

بين الالتزام الاجتماعى والتخصص العلمى .

هناك نماذج عديدة لعلماء متخصصين امتد اهتمامهم الى ما هو خارج حدود تخصصهم ، الى مشكلات وقضايا المجتمع الذى يعيشون فيه ، فاسهموا وما زال بعضهم يسهم بالفعل فى مواجهة تلك المشكلات والتصدى لحلها . ونستطيع أن نميز فى تلك النماذج موقفين مختلفين :

الموقف الاول يجمع بين عدد من العلماء المتخصصين ، أتاحت لهم ثقافتهم فرصة الامتداد بأبصارهم الى ما يدور خارج نطاق تخصصهم ، وأحسوا أن عليهم اتخاذ موقف محدد مما يجرى حولهم ، واتخذوا بالفعل ذلك الموقف والتزموا به . ولم يحاول أى من هؤلاء العلماء أن يفرض ماحصله في نطاق تخصصه كأساس لتفسير نهائى للمشكلة التى يتخذ موقفا حيالها . ان أغلب هؤلاء العلماء لم يتصدوا أساسا لتقديم تفسير متعمق ونهائى لتلك المشكلة التى يتخذون موقفا حيالها . بل ان موقفهم يتسم بأنه أقرب الى أن يكون موقفا عمليا مباشرا ، مترتبا على موقف فكرى واخلاقى عام ، كان يتخذ رجل العلم المتخصص موقفا مؤيدا لقضية السلام على المستوى الاخلاقى والفكرى ، ومن ثم يلتزم موقفا عمليا مباشرا ضد حرب عدوانية معينة . وفى هذه الحالة لاتكون مهمته هى تقديم تفسير محدد لأسباب الحروب عامة ، ولا حتى للإسباب الخاصة التى أدت الى وقوع تلك الحرب بالذات ؛ بل يكفيه قبول وتبنى التفسير الأكثر اتفاقا مع منطلقه الأخلاقى والفكرى ، والذى تقع مهمة تقديمه على عاتق غيره من ذوى التخصص فى هذا الباب . ولايعنى ذلك سلبية كاملة يركن اليها رجل العلم . فقبوله وتبنيه لوجهة نظر تفسيرية معينة دون سواها انما يتم غالبا على أساس من التحليل النقدى المنطقى لمختلف وجهات النظر المطروحة والتى تتسق جميعا وبدرجات متفاوتة مع منطقة الفكرى والأخلاقى حتى لو افترضنا أنه قد استبعد وجهات النظر المعارضة لمنطقة

هذا دون تحليل ولا مناقشة ، وذلك أمر لا يمكن التسليم به جزافا وبشكل مطلق . اذن فهؤلاء العلماء المتخصصون الذين نتحدث عنهم يتخذون موقفا انتقائيا ايجابيامن وجهات النظر المختلفة ، وان كانوا في نفس الوقت لايأخذون على عاتقهم صياغة وجهة نظر جديدة . ومن أبرز النماذج لمن اتخذوا ذلك الموقف من العلماء المختصين سوف نختار نموذجين من مجالين علميين مختلفين . نموذجنا الاول هو الدكتور اوبنهايمر العالم الذرى الشهير الذى اسهمت بحوثه بشكل فعال مباشر فى أختراع القنبلة الذرية . لقد خرج أوبنهايمر من صومعة تخصصه ملقيا بكل ثقله العلمى الى الجانب الدفاع عن السلام والمطالبة بتحريم استخدام الاسلحة الذرية ، اى تحريم استخدام ما ساهم هو شخصيا فى اختراعه استخداما لايرضى عنه . ولعلنا نسرف فى التعسف لو توقعنا من أوبنهايمر أن يقدم لنا تحليلا متعمقا لطبيعة القوى الاجتماعية التى تصر على استخدام الاسلحة الذرية فى حروبها العدوانية ، وطبيعة الصراع بين تلك القوى والقوى المناهضة لها ، ومسار ذلك الصراع ، ومستقبله . يكفينا اذن أن يحدد أوبنهايمر موقفه من الصراع الاجتماعى الدائر فى مجتمعه، يدين الجانب الذى يراه مستحقا للادانة ويؤيد الجانب الذى يراه جديرا بالتأييد . ونموذجنا الثانى هو الدكتور سبوك طبيب الاطفال الامريكى المتخصص ، وصاحب الكتابات الطبية المتخصصة فى هذا المجال ، والذى أصبح الى جانب تخصصه من أبرز الشخصيات القيادية فى الحركة المعادية للتدخل العسكرى الامريكى فى فيتنام . وهذان النموذجان ليساسوى مثلين لموقف محدد يتخذه علماء متخصصون بل وبارزون فى تخصصاتهم من قضايا اجتماعية معاصرة تشد انتباههم ، وتبرز التزامهم ، وتدفعهم لاتخاذ ذلك الموقف وتبنيه والدفاع عنه ، ويتميز مثل هؤلاء العلماء بانهم لايفرضون الرؤية التى تمليها عليهم تخصصاتهم على تفسيرهم للمشاكل الاجتماعية التى يتخذون منها موقفا ، هذا اذا أقدموا أصلا على طرح مثل ذلك التفسير . فدكتور سبوك مثلا لم يحاول أن يفسر العدوان الأمريكى العسكرى على فيتنام بانه انما يرجع الى أمراض تصيب الأمريكيين فى طفولتهم ، وتدفعهم عند الرشد الى ما يقومون به من أعمال وحشية ، وأن الوقوف فى وجه العدوان الأمريكى فى فيتنام يتطلب معالجة تلك الأمراض والقضاء عليها . ولو تصورنا جدلا ان الدكتور سبوك قد اتخذ مثل هذا الموقف بالفعل ، لما أمكننا - في البداية على الأقل - أن نقلل من تقدميته كمعاد للعدوان الأمريكى على فيتنام وكنصير للسلام بوجه عام . ولكن موقفه حينئذ سوف يكون أقل فعالية بكثير - من الناحية العلمية على الأقل - من موقفه الحالى ، بل انه قد يؤدى به الى النكوص حتى عن ايجابيته ، عائدا الى معمله ليعد الامصال القاضية على أمراض الأطفال المتسببة فى تلك المذابح ، أو لعله حينئذ ينزلق الى مهاجمة المحاولات « السطحية » لوقف العدوان الأمريكى على فيتنام دون القضاء على جذوره الأصيلة . وكذلك الحال بالنسبة لأوبنهايمر أو سواه . هناك اذن علماء متخصصون استطاعوا أن يتناولوا مشاكل العالم المعاصر ، متخذين من تلك المشاكل موقفا محددا ينم عن التزامهم بقضايا مجتمعهم، دون أن يقعوا في شرك أن يغريهم تخصصهم بفرض نتائجه المتخصصة - بل وقوانينه النوعية - كتفسير يقدمونه لطبيعة المشاكل التى يتخذون حيالها موقفا . وقد يرى البعض أن عدم تردى هؤلاء العلماء فى منزلق من هذا النوع انما يرجع الى ان مجالات تخصصهم بعيدة تماما عن مجال المشكلات التى يتخذون منها موقفا ، ولكن ذلك - رغم صحته النسبية - لا ينفى الدور الذى لعبه وعيهم الذاتى فى حياتهم من ذلك الانسياق الخطر .

وفي مقابل ذلك الموقف هناك موقف آخر اتخذه ويتخذه عدد من العلماء المتخصصين . وقبل أن نعرض لذلك الموقف تفصيلا هناك عدة ملاحظات يجدر بنا الاشارة اليها :

أولا : هناك سمة عامة تجمع بين اصحاب هذا الموقف من العلماء المتخصصين ، او بين اغلبهم على الاقل ، وهى ان مجالات تخصصهم العلمى تنتمى بشكل يكاد يكون مطلقا الى ما يسميه أهل الاختصاص بالعلوم الانسانية ، بينما يغلب على أصحاب الموقف الاول من العلماء المتخصصين انتماء مجالات تخصصهم الى ما يعرف بالعلوم الطبيعية . وتقوم التفرقة بين هاتين المجموعتين من العلوم على أسس شتى منها ان مجموعة العلوم الطبيعية انما تختص بدراسة المادة فى مختلف صورها ، بينما تختص مجموعة العلوم الانسانية بدراسة مختلف جوانب الوجود الانسانى . ورغم ما قد تثيره تلك التفرقة من مجادلة مبدئية لسنا فى معرض التعرض لها ، فان ما يعنينا هو ان دراسة الذرة ، والفلك ، والطب ، والكيمياء وما الى ذلك انما تندرج تحت لواء المجموعة الاولى ، فى حين ان علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والتاريخ ، والسياسة ، والاقتصاد وما الى ذلك انما تندرج تحت لواء المجموعة الثانية اى مجموعة العلوم الانسانية .

ثانيا : تقودنا الملاحظة الاولى الى ملاحظة اخرى ، وهى ان العلوم الانسانية تتميز - ضمن ما تتميز به - بخاصية الحداثة التاريخية حيث انها أحدث تاريخيا من العلوم الطبيعية من حيث انفصالها عن الفلسفة . ولقد أدت تلك الحداثة التاريخية - الى جانب غيرها من العوامل - الى عديد من النتائج نذكر منها نتيجتين :

١ - ان العلوم الانسانية ككل مازالت تربطها بالفلسفة روابط وثيقة ، وبالتالى فقد وقر فى اذهان الكثيرين - ومنهم بعض ذوى الاختصاص - انه على المتخصص فى العلوم الانسانية ان يفسر كل ما يتعلق بالانسان . او بعبارة اخرى ان ياتى بنظرية شاملة للوجود الانسانى ، اى ان يقوم بالدور التقليدى للفيلسوف :

٢ ـ ان الحدود الفاصلة بين العلوم الانسانية بعضها وبعض لم ترسخ نهائيا بعد ، وبالتالى فهى تغرى باختراقها دون تهيب . فليس من المستغرب أن يتحدث عالم نفسى عن موضوع 'دخل فى اختصاص علم الاجتماع منه فى اختصاص علم النفس ، ولا أن يتناول عالم اقتصادى مشكلة من صميم مشكلات علم التاريخ . فى حين أنه من المستغرب تماما أن نستمع مثلا لحديث متخصص فى حركة الاجرام السماوية من احد علماء الكيمياء .

ثالثا : ان ما اصطلحنا فى هذا المقال على تسميته بمشكلات العالم المعاصر انما هى فى صميمها مشكلات تتعلق بالانسان ، أو بتحديد أدق فانها تتعلق بعلاقة الانسان بغيره ، وليس بعلاقته بالطبيعة أو بالعالم المادى . وهى بالتالى أدخل من حيث مجالها فى نطاق مجموعة العلوم الانسانية ككل . ويترتب على ذلك أن تلك المشكلات تكون أكثر الحاحا بحكم موقعها على المشتغلين فى مجال العلوم الانسانية منها على المشتغلين فى مجال العلوم الطبيعية ، ولذلك فانهم يكونون عرضة لمزيد من الحساسية بتلك المشاكل ، ومزيد من المسئولية تجاهها بحكم مجال تخصصهم .



رابعا : انه اذا كان الانسان هو صانع العلوم جميعا ، حيث انها نتاج حضارته ومجتمعه ، فان العلوم الانسانية تجمع بين كونها نتاجا للانسان ، وبين كون ذلك الانسان موضوعا لدراستها بوجه عام كفرد وكجماعة ، بل وكحضارة ايضا . وذلك يعنى أننا لو استطعنا تعسفا أن نعزل العلوم الطبيعية عما يصطرع فى المجتمع من صراعات وما يدور فيه من أحداث ، فانا نعجز عن ذلك فيما يتعلق بالعلوم الانسانية .

ولعل تلك الملاحظات التى عرضنا لها تسهم الى حد ما في تفسير ظاهرة ملحوظة تميز ما نحن بصدده من موقف يتخذه مجموعة من العلماء حيال مشكلات العالم المعاصر . ان الكثير من رجال العلوم الانسانية (التى ينتمى اليها غالبية أصحاب هذا الموقف) اذا ما تناولوا احدى تلك المشكلات فانهم يصبغونها بصبغة تخصصهم ، حتى ولو لم تكن داخلة أساسا فى نطاق ذلك التخصص ، أى لو كان هناك فرعا متخصصا آخر من فروع العلوم الانسانية يغطى تلك المشكلة . وهم بذلك ، وبغض النظر عن تقدمية أو رجعية موقفهم العملى حيال المشكلة ، انما يقدمون على عمل تتهدده مخاطر عدة أهمها :

١ ـ ان تعمق رجل العلم المتخصص فى مجال تخصصه المحدود وسعة درايته به قد يدفعه الى التمسك بمعارف ذلك المجال وقوانينه النوعية ، ومحاولة فرضها على تناوله للظاهرة التى هو بصدد اتخاذ موقف منها ، وقد يؤدى ذلك الى نوع من انتقاء الوقائع التى تؤيد فكرته

النابعة من مجال تخصصه مهملا غيرها من الوقائع التى لا تتفق مع تلك الفكرة . ولا يتحتم أن يكون ذلك الانتقاء مقصودا من العالم ، بل انه قد يكون - وهو كثيرا ما يكون بالفعل - نوعا من الانتقاء الخاطىء لوقائع فرعية برى من وجهة نظره انها بالغة الاهمية ، مهملا وقائع أخرى هامة لبدو وكأن لا دلالة لها من وجهة نظره . صحيح ان تلك الخطورة قد تتهدد الباحث حتى وهو بصدد بحث ظاهرة تقع داخل نطاق تخصصه ، ولكن ذلك التهديد يتزايد بلاشك لو كانت الظاهرة تخرج بالفعل عن نطاق ذلك التخصص .

٢ - أن تناول العالم المختصص لظاهرة معينة خارج مجال تخصصه ومن وجهة نظر تخصصه فحسب قد يؤدى به الى تفسير لتلك الظاهرة بل والى تنبؤ بمسارها يجافى واقعها ، نظر لان كل ظاهرة انسانية - شأنها شأن أى ظاهرة أخرى - لها قوانينها النوعية التى تحكم مسارها وتفسر تغيرها ، وذلك سواء كانت ظاهرة اقتصادية أو سياسية أو نفسية او غير ذلك . وينبغى أن نفرق هنا بين ما ذكرناه من خطورة فرض القوانين النوعية الخاصة بمجال معين على ما يقع خارج ذلك المجال من ظواهر ، وبين ما يفرضه الواقع من تعقد فى الظواهر الانسانية - بل والطبيعية كذلك - يجعل من الضرورى دراستها من جوانب متعددة . فقطعة من الحجر مثلا يمكن أن تكون موضوعا لدراسة عالم متخصص فى علم الآثار القديمة ، وتكون فى نفس الوقت موضوعا لدراسة عالم آخر متخصص في علم طبقات الارض ، وعالم ثالث متخصص فى الطبيعة وهكذا . ونستطيع أن نتصور نفس الوضع فى مجال العلوم الانسانية ، فوقوع أزمة اقتصادية فى بلد معين مثلا ، يمكن أن يكون موضوعا لعالم متخصص فى علم الاقتصاد ، وتكون الآثار المترتبة عليها موضوعا يمكن أن يتناوله المتخصصون فى علوم التاريخ والاجتماع وما الى ذلك . ولكن ذلك كله أمر يختلف تماما عن اقدام أحد علماء الاقتصاد مثلا على تفسير الامراض العقلية تفسيرا اقتصاديا ، بارجاعها الى عوامل اقتصادية فحسب ، وبتفسيرها فى ضوء القوانين النوعية لعلم الاقتصاد ، أو اقدام أحد علماء النفس مثلا على تفسير ظاهرة الصراع الطبقى تفسيرا نفسيا ، بارجاعها الى اصول نفسية فحسب ، بل واخضاع مسارها للقوانين النوعية الخاصة بعلم النفس والتى تحكم ما يقع داخل نطاقه من ظواهر .

نخلص من كل ذلك الى أن الكثير من العلماء - وبوجه خاص رجال العلوم الانسانية - حين يحاولون ترجمة اهتمامهم بقضايا العالم المعاصر الى تناول فعلى لتلك القضايا ، يتعرضون لخطورة صبغهم لها بطابع تخصصاتهم ، حتى ولو كانت طبيعة تلك القضايا تنأى من نطاق تلك التخصصات بشكل واضح . وقبل أن نعرض لنماذج من تلك المحاولات ينبغى ان نشير استيفاء الموضوع الى أن حديثنا لا يعنى بحال من الاحوال انكار وجود قوانين عامة تحكم مسار الظواهر الانسانية جميعا بل والظواهر الطبيعية كذلك ، ونعنى بها قوانين المادية الجدلية . لقد كان اكتشاف تلك القوانين بمثابة وضع حجر الاساس لعديد من النظريات العلمية فى كافة مجالات المعرفة ، ولكن صحة تلك النظريات ظلت وما تزال قائمة ومشروطة تماما بصحة التجارب أو الوقائع العلمية أساسا وليس بصحة قوانين المادية الجدلية . بل ان المادية الجدلية رغم كونها هى الموجهة لتلك النظريات فانها تزداد بواسطتها رسوخا وثراء . وباختصار فان وجود نظرية شاملة لا يعنى بحال اهدار القوانين النوعية ، بل أن شمول النظرية انما يتوقف على مدى ما تأخذه في اعتبارها من قوانين نوعية صحيحة .

التحليل النفسى والطريق الوعر

أشرنا فيما سبق الى أن الحدود الفاصلة بين العلوم الانسانية بعضها وبعض لم ترسخ نهائيا بعد ، ولكن ذلك لا يعنى عدم وجود حدود فاصلة على الاطلاق ، فهناك بالفعل مجال متخصص لعلم التاريخ ، وآخر متخصص أيضا لعلم النفس ، وثالث لعلم الاجتماع ، ورابع لعلم الاقتصاد ، وهكذا . ولقد أقدم الكثير من المتخصصين فى مختلف تلك العلوم الانسانية على تناول مشكلات العالم المعاصر ، ولا يتسع المقام ، كما لا يسمح الجهد ، بعرض نماذج لمحاولات المتخصصين فى مختلف تلك المجالات . ولذلك فسوف نكتفى بالتعرض لبعض محاولات المتخصصين فى علم النفس فى تناول قضايا العالم المعاصر .

وفى الحقيقة فانه من بين المدارس النفسية العديدة برز مدرسة التحليل النفسى ، باعتبارها المدرسة الرئيسية - ان لم تكن الوحيدة - من مدارس علم النفس ذات المحاولات المحددة فى هذا المجال . ولعل ذلك انما يرجع الى ان بناءها الفكرى حتى صياغته الأولى التى قدمها رائد تلك المدرسة - أعنى سيجموند فرويد - انما يتكون من مزيج بين مجموعتين من الافكار ، تدور المجموعة الاولى حول التسليم باننا اذا ما تتبعنا التطور التاريخى الذى سلكته البشرية لوجدناه يرجع الى جماعة وقبيلة بدائية براسها زعيم واحد يدين له الجميع بالولاء والطاعة ، ويحتكر لنفسه كل نساء القبيلة محرما على ابناء القبيلة الاقتراب من اى منهن ، وينتهى الامر بأن يقتل الابناء اباهم الزعيم متحملين فى سبيل ذلك أقسى المشاعر بالخطيئة والاثم ، ولقد توارثت البشرية تلك المشاعر التى حكمت أبناء وبنات القبيلة البدائية الاولى جيلا بعيد جيل . ولم يتم ذلك التوارث عن طريق الانتقال التاريخى عبر الوعى الشعورى للبشرية ، فان قسوة تلك المشاعر وضراوتها قد

دفعت بها الى أعماق اللاشعور او ما يمكن ان يسمى باللاشعور السلالى . أما المجموعة الثانية من الافكار فتقوم على التسليم بأن المشاعر المؤلمة والصادقة والمرتبطة بالشعور بالاثم ، كل تلك المشاعر والخبرات يقوم الفرد بكبتها او بدفعها الى اللاشعور الذى يمكن ان يسمى اذن بلاشعور الفرد . ومن خلال المزج بين هاتين المجموعتين من الافكار **يصل التحليل النفسى الى أن حياة الفرد انما هى تلخيص للتاريخ البدائى للجنس البشرى ، وأن الطفل مطالب بالانتصار على البذور البدائية فى داخله خلال سنواته** الثلاث الاولى وكبتها فى اللاشعور ، ونظر لان ذلك الانتصار لا يمكن أن يكون نهائيا ولا حاسما ، فان ما كبت يظهر فى **صور مختلفة من الاحلام والاعراض العصابية .**

لقد فرض هذا البناء الفكرى على مدرسة التحليل النفسى منذ البداية ارتباطا بقضية تخرج عن الحدود المباشرة لعلم النفس ، أعنى قضية نشأة المجتمع الانسانى. وهى قضية تاريخية انثروبولوجية تماما . ولعل ذلك هو ما يفسر ارتباط الفرويدية منذ البداية ارتباطا وثيقا بالانثروبولوجيا وبوجه خاص بالانثروبولوجيا التطورية **البريطانية وبالتحديد بنظريات روبرتسون** سميث . ويكفى **للتدليل على هذا الارتباط ان فرويد قد وجد فى نظريات سميث التبرير للعديد من المفهومات** الاساسية فى **التحليل النفسى مثل فكرة الجماعة البدائية الاولى ، وما ارتبط بها من توارث للذكريات على نطاق** السلالة ومن **البيولوجية الولادية للمراحل الجنسية الطفلية** .. الى آخره .صحيح **ان تطور البحوث الانثروبولوجية** قد غير من الموقف كثيرا، **بل ان الانثروبولوجيا الحديثة** ترفض دفضا يكاد يكون **قاطعا مثل تلك الافكار ، وصحيح كذلك ان التيار العام للتحليل النفسي لم يعد يلح كثيرا على أفكار من هذا النوع ، الا آن كل ذلك لا ينفى ان مدرسة التحليل النفسى قد ارتبطت تاريخيا منذ بداية نشاتها بقضايا تخرج من النطاق المحدود لعلم النفس .**

تخلص من ذلك الى أن مدرسة التحليل النفسى كانت تحمل منذ نشأتها بذور التطلع الى تقديم نظرية شاملة لوجود الانسان فردا ، وتاريخا ، وحضارة . ونستطيع ان نلمح تعبيرا صريحا من ذلك الطموح فى كتاب « المدنية ومنغصاتها » الذى أصدره سيجموند فرويد عام ١٩٣٠ أى قبل وفاته بتسع سنوات محاولا فيه تناول العديد من القضايا الحضارية ذات الطابع الثقافي العام ، بل الوصول الى صياغة نظرية عامة تفسر الحضارة الانسانية فى شمولها ، وتصل الى حد طموح التساؤل عن مستقبلها . ومنذ صدور كتاب فرويد المشار اليه عام ١٩٣٠ حتى الآن ، أى خلال ما يقرب من الاربعين عاما ، لم يكف الكثيرين من أتباع نظرية التحليل النفسى عن الاهتمام بالقضايا المعاصرة ، بل وتناولها تناولا يؤدى فى الغالب الى صبغهم لها برؤيتهم الخاصة النابعة من تخصصهم المحدد . لقد كتب المحللون النفسيون عن العديد من قضايا الانسان المعاصر ، ولكن أكثر ما كتبوه خطورة فيما نرى هو كتاباتهم التى حاولوا بها تحليل بعض الظواهر السياسية التاريخية المعاصرة . وترجع أهمية تلك الكتابات بالتحديد الى انها تطرح مشكلة نظرية بالغة الاهمية والخطورة من الناحيتين المنهجية والعملية . ونستطيع ان نضع المشكلة في صورة السؤال التالى : هل ما يصدق على الفرد يصدق بالتالى على الجماعة ؟ أو بعبارة اخرى هل القوانين التى تحكم نمو الافراد هى بالضرورة نفس القوانين التى تحكم تطور المجتمعات ؟ وهل القوانين التى تفسر سلوك الافراد تصلح بنفس الكفاءة لتفسير حركة الجماهير ؟ ولعل طرحنا للمشكلة بهذه الصورة يشير الى أن التيار العام للتحليل النفسى رغم انه لم يعد يلح كثيرا ـ كما سبق ان ذكرنا ـ على فكرة أن حياة الفرد انما هى تلخيص للتاريخ البدائى للجنس البشرى ، فان جوهر تلك الفكرة ، أى المطابقة بين ما هو فردى وما هو جمعى من حيث القوانين العامة ، هذا الجوهر مازال له صدى يتردد بل يكاد يصل الى أن يكون صوتا مسموعا فى كتابات المحللين النفسيين عند تناولهم للقضايا المعاصرة .

ولسوف نعرض بشىء من التفصيل لمحاولتين من محاولات أبناء مدرسة التحليل النفسى لتناول قضايا ذات طابع سياسى اقتصادى تاريخى . المحاولة الاولى هى محاولة اريك فروم تحليل ازمة المجتمع الراسمالى الغربى فى نهاية الثلاثينات . والثانية هى محاولة الدكتور احمد فايق فى نهاية الستينات تحليل أحداث الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ راجعا بتحليله حتى جذور تاريخنا الثورى الحديث ، ومتقدما به حتى مشارف المستقبل .

محاولة اريك فروم

ولد اريك فروم وتعلم فى المانيا حيث درس علم الاجتماع وعلم النفس فى جامعات فرانكفورت وميونيخ وهيدلبرج التى حصل منها على شهادة الدكتوراه عام ١٩٢٢ . وقد تدرب فروم على التحليل النفسى الفرويدى فى جمعية التحليل النفسى ببرلين ، واستقر به المطاف فى الولايات المتحدة حيث أصدر أشهر مؤلفاته وهو «الهروب من الحرية» . ويقرر فروم منذ البداية أنه وصل الى ما وصل اليه في مؤلفاته باتباع منهج التحليل النفسي ووسائله ، كما انه يقرر تسليمه مع فرويد بان القوى التى تحدد سلوك الانسان ومشاعره وأفكاره انما هى فى الاساس دوافع لاشعورية . وتدور مفاهيم فروم فى تحليله لطبيعة المجتمع الراسمالى حول فكرة أساسية هى ان هناك تناقضا يحكم الحياة النفسية لما يسميه فروم بالحضارة الغربية او الحضارة الراسمالية . لقد خلقت

الرأسمالية فى تطورها انسانا حكم عليه بان يكون قليل الحيلة ، خائفا ، قلقا ، يائسا ، وحيدا ، محبطا . فظروف مجتمع الحضارة الغربية تحول دون ممارسة الانسان لحريته الايجابية ، وتدفع به الى حرية سلبية ، اى تدفع به الى الهرب من الحرية . ويرى فروم انه لكى يتخلص الانسان فى الحضارة الراسمالية من شعوره غير المحتمل بالعزلة وقلة الحيلة ، اى لكى يهرب من الحرية ، ليس أمامه سوى أن تمارس الميكانيزمات اللاشعورية فعلها ، وأهم تلك الميكانيزمات فى رأى فروم هى :

(أ) مكانيزم المازوشية ـ السادية : وهو محاولة التخلص من ذلك الشعور غير المحتمل بالعزلة وقلة الحيلة اما بالضياع الكامل فى آخر ، أو بعبارة أخرى التخلص من أزمة الحرية بافنائها فى آخر ، واما بمحاولة نفى ذلك الشعور ببديل له هو ممارسة سيطرة معذبة على الآخر .

(ب) ميكانيزم التدمير : وهو محاولة للهرب من ذلك الشعور غير المحتمل بتحطيم العالم الخارجى ، اى بتحطيم مصدر ذلك الشعور المؤلم رغم ما يؤدى اليه ذلك الميكانيزم ـ الذى تختلط فيه الكراهية بالعدوان ـ من تضاعف للشعور من جديد بالضعف والعزلة .

(ج) ميكانيزم الانصياع الآلى : وهو أكثر الحلول انتشارا بين أبناء مجتمع الحضارة الغربية ، وهو محاولة للخضوع لمعايير السلطة أيا كانت تلك السلطة ، ومن ثم القاء الحمل عليها والانصياع لها دون تفكير تخلصا من الشعور بالضياع .

ويرى فروم أن تلك الميكانيزمات لا تحل مشكلة المجتمع الراسمالى على الاطلاق ، وان لا حل لتلك المشكلة الا بالممارسة الايجابية البناءة للحرية ، وهو مالايمكن ان تتيحه ظروف الحضارة الغربية الراسمالية . فالراسمالية تتميز عموما ـ في راى فروم ـ بأنها مدمرة ومجافية للمنطق . ودوافع انسان الحضارة الغربية الراسمالية ـ وبشكل مطلق أيضا ـ دوافع مجافية للمنطق واجبارية ولاشعورية . ومن هنا يبدأ التناقض فى أفكار فروم ، فتسليمه بأن الراسمالية عموما وبشكل مطلق ظاهرة مدمرة ومجافية للمنطق أمر يتعارض تماما مع ما يمدنا به علم التاريخ والاقتصاد السياسى من أنها احدى مراحل تطور المجتمع الانسانى ، فضلا عن تعارضه مع مبادىء المادية الجدلية : فالمجتمع الراسمالى يحمل نقيضه فى داخله فى صورة جوانب طيبة وثورية ، وبالتالى فمن المجازفة أن نعتبر المجتمع الراسمالى ـ أو سواه من المجتمعات ـ بناء واحدا متسقا ، وان نحكم على كل من يعيشون فى المجتمع الراسمالى بانهم يمارسون حرية سلبية أو يهربون من الحرية سواء كانوا عمالا ام راسمالية ام مثقفين ثوريين هذا من الناحية النظرية ، أما من الناحية العملية فقد واجه فروم سؤالا محددا هو : ما الحل ؟ اننا اذا ما سلمنا مع فروم بأن الراسمالية هى مصدر تلك الدوافع الاجبارية المجافية للمنطق ، وانه لا استثناء ولا مهرب أمام كل من يحيا فى ظل ذلك النظام مالكا كان أو أجيرا ، عاملا أو رأسماليا . فلا طريق أمامه يجنبه العصاب وينجيه من تلك الممارسة السلبية لحريته سوى أن يمر بخبرة التحليل النفسى لتتحول دوافعه الاجبارية اللامنطقية الى دوافع فعالة ومنطقية ؛ ولتتحول ممارسته السلبية لحريته الى ممارسة ايجابية فعالة لها . ولكن الى أين يذهب هذا الفرد بعد تحليله ؟ انه سيعود الى مصدر الخبرات الصارمة ، اى الى الرأسمالية من جديد ، بل انه سيعود وقد جرد حتى من دفاعاته اللاشعورية ، فماذا سيفعل ؟ ليس أمامه ـ تمشيا مع منطق فروم ـ الا ان ينتحر أو يستعيد صورا جديدة من دفاعاته القديمة ، اى يستعيد عصابه القديم ، اى يهرب من حريته مرة أخرى . ما الطريق اذن ؟ يقدم فروم اجابته على هذا السؤال فى كتابه « المجتمع العاقل » محاولا صياغة مفهوم جديد لمجتمع صحى عاقل يجنب الفرد الانتحار أو الوقوع من جديد فى براثن العصاب اذا ما عاش في ظل ذلك المجتمع العاقل . ويسمى فروم مجتمعه العاقل هذا بالمجتمع « الاشتراكى » . لم تقم اشتراكية فروم على أسس من علم الاقتصاد أو علم التاريخ بل قامت على أسس من نظرة فروم الى المجتمع من خلال مفاهيم التحليل النفسى ، تلك النظرة التى أدت بفروم الى اعتبار أن الصراع الدائر فى المجتمع والمحرك لمساره انما هو صراع بين الشعور واللاشعور ، وانه لا منجاة لاحد فى ظل المجتمع الراسمالى من خطورة هذا الصراع راسماليا كان أو بروليتاريا . وما دام فروم قد ساوى فى نظرته بين الرأسماليين والبروليتاريين ، فمن المنطقى اذن أن تقوم اشتراكيته على التعاون بين هؤلاء وهؤلاء أى بين المستغلين والمستغلين .

ولكن حتى فى هذه الحدود ، أى فى حدود الدعوة لمجتمع «اشتراكى» يقوم على التعاون بين الرأسماليين والبروليتاريين ، يواجه فروم مازقا حرجا هو : من الذى يبنى ذلك المجتمع العاقل الاشتراكى ؟ لا يمكن بالطبع فى راى فروم ان يبنيه أبناء المجتمع الراسمالى من العصابيين الهاربين من حريتهم سواء كانوا عمالا أو رأسماليين . من يبنيه اذن ؟ لقد وصل فروم بافكاره الى ان الدعاة الاشتراكيين الحقيقيين لابد وأن يتم تحليلهم نفسيا فى البداية حتى يتخلصوا من دفاعاتهم المرضية ، بل لقد فكر فروم بالفعل فى أن ينضم الافراد الذين حللوا ليكونوا خلايا للدعوة الاشتراكية . ولم يقف فروم عند حد التفكير فحسب ، بل انه يشير الى انه قد تمت بالفعل عدة محاولات من هذا القبيل كان مصيرها الفشل . ويتوقف فروم عند تلك النهاية وتبقى التساؤلات معلقة حائرة تبحث عن اجابة . لماذا فشلت محاولة فروم تطبيق أفكاره عمليا، كيف يمكن أن نفسر نجاح الثورات الاشتراكية فى كثير من



بلدان العالم رغم ان قادتها ـ فيما نعلم ـ لم يمروا بخبرة التحليل النفسى ؟ وفوق كل ذلك يبقى تساؤلنا الرئيسى قائما : هل مايصدق على الفرد يصدق بالتالى على الجماعة؟ لقد حاول فروم عمليا أن يجيب على هذا التساؤل بنعم ، فانتهت به محاولته من الناحية العملية الى الفشل ومن الناحية النظرية الى تبنى فكر انتهازى رجعى أى تبنى فكر المجتمع الراسمالى الذى كان يهدف فى البداية الى محاربته والوقوف في وجهه .

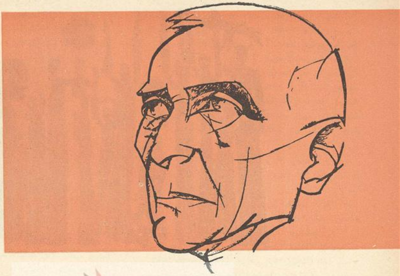
محاولة الدكتور أحمد فايق

ولعله من أكثر الامور مدعاة للتفاؤل وجدارة بالتشجيع ان تتسع دائرة اهتمام المتخصصين من بيننا لتصل الى ما هو خارج نطاق تخصصهم الضيق . ويصبح الامر مدعاة لمزيد من التفاؤل والتشجيع اذا لم يقف الاهتمام الجديد عند حدود المتابعة فحسب ، بل يصل الى المساهمة بالكلمة والقلم . ولذلك يصبح لزاما علينا أن نقوم أولا بواجب التشجيع مسجلين للدكتور أحمد فايق ان جوهر مقاليه « عناصر الحرب النفسية ومشكلات الحرب النفسية » كان والحق يقال دفاعا ـ من وجهة نظر كاتبه ـ عن اصالة ثورة ١٩٥٢ ومن بعدها ثورة ١٩٦١ الاشتراكية، وهو امر جدير بلاشك بالاشارة بل وبالاشادة أيضا . ولكن الهدف المرجو ـ أيا كان ـ لا ينبغى أن يلهينا عن عدد من الملاحظات .

أولا : رؤية المجتمع فى حركته

ان نقطة البداية الصحيحة فيما نرى لفهم وتقييم تناول مثل هذا الموضوع هى تحديد رؤية الكاتب للمجتمع وللقوانين التى تحكم حركته . ونستطيع أن نستشف من تناول الدكتور أحمد فايق للقضية رؤيتين متعارضتين أشد التعارض للمجتمع بعامة ، ولمجتمعنا بوجه خاص .

الرؤية الاولى هى أن الامة ـ أى امة ـ ليست سوى كيان واحد منسجم يتحرك حركة واحدة ، ويستجيب استجابة واحدة ، وهى رؤية تتعارض مع كافة الحقائق التى تمدنا بها علوم التاريخ والمجتمع والاقتصاد ، والتى تدور حول ما تضمه الامة داخل اطارها من طبقات اجتماعية تتناقض مصالحها وتتعارض أهدافها . وتتضح هذه الرؤية لدى الكاتب أكثر ما تتضح فى عبارة محددة تعد ـ فيما نرى ـ حجر الزاوية فى البناء النظرى الذى يقدمه الكاتب وهى « ان كل خاصية في شخصية ما ـ ولتكن الشخصية القومية ـ تخفى نقيضها فى حالة كمون » . والعبارة كما هو واضح مركبة من جملة أصلية أدخلت عليها جملة اعتراضية . وفى هذا الادخال بالتحديد يكمن جوهر رؤية الكاتب للمجتمع . الجملة الاصلية دون اضافة هى صياغة لاحدى نتائج نظرية التحليل النفسى القائمة على التسليم بما فى الشخصية الانسانية من تناقض بين الشعور واللاشعور . وبالجملة الاعتراضية التى أضافها الكاتب أصبح ما قد يكون صحيحا بالنسبة للفرد صحيحا



اوبنهايمر

كذلك بالنسبة للمجتمع ، وما قد يصدق على شخصية الفرد ، يصدق كذلك على الشخصية القومية . وعلى اى حال فان الكاتب يذكر بوضوح « انه اذا تبين ان أمة تبدى سمة ما وبشدة معينة نستطيع أن نتنبأ أن نقيض هذه السمة وبنفس قوتها موجود ويمكن استفزازه . » ولابد لنا من اشارة منهجية لقضية التناقض . صحيح فيما نرى ان التناقض هو محرك كل تغير وهو بالتالى قانون جدلى شامل للطبيعة وللمجتمع معا . ولكن هناك ما يسميه أصحاب المادية الجدلية بالطابع النوعى للتناقض ، بل انهم يؤكدون ضرورة حل التناقضات المختلفة كيفيا بأساليب مختلفة كيفيا . والطابع النوعى للتناقضات التى تدور داخل الافراد ـ سواء أخذنا بمنهج التحليل النفسى أو بغيره من المناهج ـ يختلف عن الطابع النوعى للتناقضات التى تحكم حركة المجتمعات . ولعل هذا ـ ودون دخول فى مزيد من التفصيلات ـ يكاد يكون المبرر الوحيد لوجود علم النفس والاجتماع والاقتصاد والتاريخ كعلوم انسانية منفصلة ، والا لاندمجت جميعا فى علم واحد يدرس الانسان فى كافة مظاهر وجوده . وللقارىء أن يتساءل هنا : أليس ثمة تغيير من هذا النوع يمكن أن يحدث على نطاق الامة ؟ والاجابة نعم . ولكن ذلك لايتم ببزوغ نقيض كان فى حالة كمون لاشعورى ، بل باستيلاء طبقة جديدة على السلطة لها من المصالح والقيم والتقاليد ما يجعل منها نقيضا للطبقة التى كانت تسود قبلها . ونظرا لان الافكار السائدة في اى مجتمع انما تكون على العموم افكار الطبقة المسيطرة فى ذلك المجتمع ، فانه بتغيير الطبقة السائدة ـ عن طريق الثورة ـ بحلول طبقة جديدة محلها تتغير الافكار السائدة فى المجتمع متخذة طابع أفكار تلك الطبقة الجديدة . لقد أدت رؤية الكاتب به الى محاولة تطبيقها على ما اعتبره «انقلابا خطيرا قد حدث للشخصية اليهودية فى الفترة الاخيرة تحول فيها الشباب منهم الى مقاتلين شرسين بعد أن كان يعرف عنهم فى العالم أجمع الوداعة والخنوع » وبغض النظر عما قدمه من تفسير لهذا «الانقلاب» يحق لنا أن نتساءل هل حدث «انقلاب» كهذا حقا ؟ هل الوصف الشائع لليهود بالوداعة والخنوع وصف شامل وعلمى ؟ وهل يصدق ذلك الوصف بالفعل على كافة اليهود ؟ أم انه يصدق على فقرائهم دون أغنيائهم ؟ أم انه يصدق على العامة منهم دون الصفوة ؟ وهل شمل ذلك «الانقلاب» اليهود جميعا ؟ هل تحولت الاقليات اليهودية التى مازالت تعيش فى شتى البلدان الى مقاتلين شرسين ؟ أم ان ذلك «الانقلاب» قاصر على اليهود الصهاينة ؟ وهل ذلك «الانقلاب» قاصر على اليهود الذين عانوا من العسف النازى أم أنه شامل أيضا اليهود من أبناء فلسطين والبلاد العربية ؟ وهل يرجع ذلك «الانقلاب» الى عملية نفسية تمت استجابة لحدث تاريخى أم انه استجابة مستمرة لاحداث اقتصادية وسياسية مستمرة كذلك ؟ قد تساعدنا اجابة مثل تلك الاسئلة على التوصل للتساؤل الاصلى وهو هل يحدث انقلاب بحق ، وعلى اى حال فالامر فى حاجة الى مزيد من الجهد المتخصص الذى لايكفيه هذا المرور العابر .

نتنقل بعد ذلك الى الرؤية الثانية للكاتب فيما يتعلق بالمجتمع وحركته ، فبعد ان استمر يتحدث طوال المقال عن «الشخصية القومية» و «الانية المصرية» و «مضمون الشعور الشعبى» ، بل بعد ان قرر بوضوح أثناء مناقشته لقضية «النوعية البشرية للشعب المصرى» ان الفرق بين الامم انما يكون « فى قدرتها وذكائها واصرارها على استغلال تاريخها المحدود احسن استغلال » . بعد كل ذلك ، وفي الجزء الثانى من المقال تواجهنا عبارات مثل « لا يمكن البحث عن خاصية نوعية للشعب المصرى » و « تعبير الشعب المصرى تعبير مبالغ فى مضمونه » الى آخر مثل تلك العبارات التى تبرز رؤية الكاتب الثانية للمجتمع . لقد كاد الكاتب فى رؤيته الاولى ان يلغى أى تمايز بين طبقات المجتمع المختلفة معتبرا انه كيان واحد منسجم ، واذ به فى رؤيته الثانية يبرز التمايز بين طبقات المجتمع الى الحد الذى يكاد يذهب بوحدته كاملة . ويبلغ ذلك الموقف قمة التعبير عنه حين يقول الكاتب مرجعا استحالة البحث عن نوعية بشرية للشعب المصرى الى الاختلافات التاريخية بين طبقاته قائلا « ان الطبقة العاملة فى مصر تقترب بخبراتها التاريخية من الطبقات العاملة فى كثير من دول العالم الثالث ، وتبتعد عن طبقة الرأسمالية الوطنية المصرية ذاتها » . وقضية العلاقة بين الطبقات بعضها وبعض داخل كل مجتمع ، والعلاقة بين تلك الطبقات والطبقات المناظرة لها فى المجتمعات الاخرى ، أو بعبارة ادق قضية القومية والاممية ليست بالقضية البسيطة التى يسمح المجال بتناولها تفصيلا ، وان كنا نستطيع ان نشير باجمال الى ان الامر يبدو على عكس ماأورده الكاتب تماما ، فالطبقة العاملة فى مصر تقترب بخبراتها التاريخية من طبقة الرأسمالية الوطنية . والتعبير العملى عن ذلك الاقتراب هو ان الطبقتين يضمهما معا التحالف الشعبى لقوى الشعب العامل فى المرحلة الحالية ، وهو تحالف لا يقل — ان لم يكن يزيد — عما يربط بين تلك الطبقة والطبقات العاملة فى دول العالم الثالث ، اذا ما وضعنا فى الاعتبار عامل القومية والانتماء لها ، وما يترتب على ذلك من نتائج وارتباطات ، واذا ما كنا نتحدث عن الطبقة وليس عن طليعتها او قيادتها فحسب .

ثانيا : العلاقة بين القائد والشعب

لقد انطلق فكر الكاتب من احدى مسلمات نظرية التحليل النفسى بأن هناك تناقضا بين ما هو شعورى وما هو لاشعورى ، فارضا تلك المسلمة — كما سبق أن أشرنا — على رؤيته للمجتمع . وقد أدى ذلك الى افتراضه لوجود شعور ولاشعور قوميين . ولم يكن هناك مفر بعد ذلك من ان تحكم تلك المسلمة رؤية الكاتب وتحليله للعلاقة بين القائد والشعب . فهو يرى « ان العنصر الاول فى الحرب النفسية هو حسن استغلال الزعامة للظروف المتاحة لها » ، لكن كيف ؟ يحسم الكاتب ذلك قائلا ان «مادة هذا العنصر هى قدرة الزعامة على صياغة مضمون الشعور الشعبى صياغة سليمة وفى ضوء الظروف المحيطة به وطرحها على الشعب فينطلق نقيض الشعور — اى اللاشعور — فتحدث الثورة النفسية » ولسنا فى حاجة الى القول بأن وقائع علم التاريخ تؤكد لنا ان تعبير الزعيم عن مضمون الشعور الشعبى وطرحه لذلك التعبير على شعبه انما يؤدى الى تدعيم لمضمون هذا الشعور ، وتدعيم أيضا لقيادة هذا الزعيم . ولقد استند الكاتب فى تدعيم فكرته الى واقعة تاريخية هى خطاب الرئيس عبد الناصر فى جامع الازهر أثناء عدوان ١٩٥٦ والذى راى فيه الكاتب «صياغة لفكرة شعورية اجتاحت نفوس الشعب .. نقاتل ونموت أبطالا ولو فى غباء العنيد ، ولكن صياغة الفكرة الشعورية هو السبيل لانطلاق الفكرة اللاشعورية وهى ننسحب ونعيش لكفاح يتسم بذكاء المصر اللبق » . ولسنا نرى فى الخطاب مجالا لقضية اللاشعور على الاطلاق . لقد كان تساؤل الرئيس هو : هل نقاتل ام نستسلم ؟ وكانت اجابته التى صاغها وطرحها على الشعب ، وانطلق الشعب مؤكدا لها ، هى سنقاتل سنقاتل . لم تكن قضية الانسحاب مطروحة اصلا فى الخطاب ولا فى الاستجابة الشعبية له بشكل شعورى ولا بشكل لاشعورى . واسترجاع بسيط للتواريخ يوضح ان امر الانسحاب قد صدر فى مساء الاربعاء ٥٦/١٠/٣١ ، وبدأ الانسحاب بالفعل فى فجر اليوم الاول من نوفمبر عام ١٩٥٦ ، وكان خطاب الرئيس فى الازهر يوم الجمعة ١٩٥٦/١١/٢ أى بعد ان بدأ بالفعل تراجع الجيش من سيناء للالتحاق بالشعب والقتال جبهة واحدة ، وهو الشعار الذى أطلقه الرئيس ورددة الشعب (ولم يردد نقيضه اللاشعورى) ومارسه بالفعل حتى تحقق الانسحاب .

أما العنصر الثانى للحرب النفسية فيما يرى الكاتب فهو «زعامة شعبية صلبة يمكن للشعب التوحد بها » أما الاسلوب الذى يمارس به هذا العنصر تأثيره فهو « الحركة المتمشية مع العدو لاثارة الحركة العكسية لدى الشعب » . ورغم ثقتنا بحسن نوايا الكاتب الا اننا لا نستطيع سوى القول بأنه مهما حسنت النوايا فانها لا تسمح بالتجاوز عن الدور الخطير الذى يمكن أن تلعبه مثل تلك الافكار كتبرير جيد لكافة القادة الانتهازيين بل والانهزاميين ايضا . ولابد لنا من التفرقة بحسم بين المجال العسكرى والمجال الفكرى ، ففى المجال الاول قد يكون من المسموح به بل ومن المطلوب احيانا التمشى حركيا مع العدو بمعنى التقهقر عند تقدمه ، والتقدم عند تقهقره وهكذا . ولكن على المستوى الايديولوجى يصبح مثل ذلك التمشى امرا مرفوضا تماما . الواقعة التاريخية التى يستند اليها الكاتب فى توضيح فكرته هى قرار الرئيس عبد الناصر بالتنحى يوم ٩ يونيو سنة ١٩٦٧ . ويبدأ الكاتب تحليله لتلك الواقعة التاريخية بالتسليم بأن هدف الاستعمار كان تنحى

عبد الناصر وبالتالى فقد كان قرار التنحى تمشيا مع رغبة العدو مثيرا بذلك الحركة العكسية لدى الشعب اى رفض التنحى . ووقائع تاريخنا الثورى تسمح لنا بأن نصحح المسلمة الاولى ، فمطلب وهدف الاستعمار لم يكن أن يتنحى عبد الناصر بل كان الهدف الاصيل هو ضرب المسار الثورى للثورة المصرية ، وحبذا لو تم ذلك بأن يتنكر عبد الناصر نفسه لثورته أى بأن يستسلم . ولم يكن قرار التنحى تنحية للثورة – وهو ما هدف اليه الاستعمار – بل انه على العكس قد تضمن عرضا شاملا لمنجزات الثورة وتأكيدا لاستمرارها . ثم تضمن اقداما شجاعا من القائد لتحمل مسئولية كل ماحدث كطرح للثقة به على الشعب . وكان تحرك الشعب تجديدا وتأكيدا لثقته بالقائد واصراره على بقائه عزما على المضى فى طريق الثورة . لم تكن هناك اذن حركة متمشية مع العدو ، وبالتالى لم يكن هناك اثارة لحركة عكسية لدى الشعب .

ثالثا : وقائع التاريخ وتفسيرها

لاشك ان لكاتب المقال الحق فى تفسير الاحداث التاريخية كما يشاء وللآخرين ان يختلفوا معه اذا ما شاءوا ذلك . ولكن لاستخدام ذلك الحق حدودا اذا ما تجاوزها الكاتب كان للقارىء حينئذ ان يفترض ان انطلاق الكاتب من مسلمته التى أشرنا اليها قد دفعه الى تحريف بعض الوقائع والتعسف فى تفسير البعض الآخر لكى تتناسب الاحداث مع نتائج مسلمته التى بدأ بها . ونكتفى بايراد الامثلة التالية كنماذج لذلك التحريف والتعسف :

١ – جاء فى المقال ان حرب يونيو سنة ١٩٦٧ قد فاجأتنا بأن اليهود المستذلين الضعفاء قد أصبحوا قساة شرسين . وسبق أن تعرضنا لتساؤلاتنا عن واقعة التحول ذاتها ، ولكن لو سلمنا بحدوثها فيكفى – وبدون الرجوع الى ماتضمنته قصص التوراة من عنف – أن نستعيد ما لجأت اليه العصابات الصهيونية من عنف فى ظل الانتداب البريطانى فى فلسطين ، وان نستعيد فظائع تلك العصابات فى حرب عام ١٩٤٨ ، بل يكفى حتى أن نشير فحسب الى مذبحة دير ياسين ليتضح لنا ان الوجه العنيف للصهيونية لم يفاجئنا عام ١٩٦٧ بل ان ذلك الوجه كان سافرا ومعروفا بل عانينا منه الكثير قبل ذلك بكثير .

٢ – يذكر الكاتب فى معرض حديثه عن ثورة عرابى ان نقطة الضعف « الوحيدة » فى الثورة العرابية كانت عدم وضوح الوجهة القومية ، مما أدى الى انه بدلا من أن يستغل عرابى عنصر الدين والقومية تركهما سلاحا فى يد عدوه . وتشير وقائع التاريخ – ويكفى هنا الاستشهاد بالرافعى – الى انه من أهم الاسباب المعلنة التى حركت العرابيين ، تمييز الجراكسة على العرب ، والاحتجاج على التدخل الاوروبى فى الشئون المالية الداخلية ، وهى أسباب قومية بلاشك اذا كان المقصود بصفة القومية العداء للمستعمر الاجنبى . أما من حيث الدين فان وقائع التاريخ تشير ايضا ، بل تبرز الى حد يكاد يقرب من الاتهام ، اعتماد عرابى على الدين فى رفعة لمعنويات جنوده ولمعنويات الشعب ايضا .

٣ – يعتبر الكاتب عام ١٩٤٢ بداية لانهيار الوفد – ولعله يقصد حادث ٤ فبراير الشهير – منطلقا من فكرة ان جماهيرية الوفد كانت تقوم على أساس من التوحد بسعد الزعيم ، وان القيادات التالية له كانت أضعف منه فلم يتم التوحد بها وبدأت فى الانهيار فى ذلك العام . ولو وضع الكاتب فى اعتباره الظروف السياسية والاقتصادية التى كانت تحدد ما يمثله حزب الوفد طبقيا لما اضطر الى تجاهل اكتساح الوفد للانتخابات العامة سنة ١٩٥٠ وعلى رأسه نفس من كان على رأسه فى فبراير سنة ١٩٤٢ ، بل لعله كان فى استطاعة الكاتب حينئذ أن يفسر ذلك ولو بعيدا عن قضية التوحد بالزعيم .

٤ – يرى الكاتب ان هناك نقاطا هامة قد غابت عن الاستعمار فى تحليله لظروف عدوانه علينا عام ١٩٥٦ مرجعا ذلك الى « غرابة التحالف الذى قام ضدنا : حزب محافظ وآخر اشتراكى ، وتنظيم فاشى » ولا نجد فيما يمدنا به التاريخ أى مبرر للغرابة ان يقوم تحالف بين عدة تنظيمات تعبر جميعها سياسيا وطبقيا وفكريا عن نفس القوى الرجعية ، بل لعله كان أدعى للتعجب أن نجد بينهم خلافا فيما يتعلق بموقفهم من قوى حركة التحرير فى المستعمرات هذا بالطبع اذا ما تركنا جانبا اللافتة التى يحملها الحزب « الاشتراكى » الفرنسى ونظرنا الى المصالح الطبقية التى يعبر ويدافع عنها .

٥ – يقرر الكاتب فى حسم انه « فى عام ١٩٥٨ أنضاف الى الانية المصرية عنصر جديد هو التفتح على مبدأ مهاجمة الاستعمار فى قواعده المحيطة بنا » والامر هنا لا يحتاج الى مراجع تاريخية متخصصة ، فمبدأ مهاجمة الاستعمار فى قواعده المحيطة بنا قد بدأ فى أواخر عام ١٩٥٤ ، وبلغ ذروته فى رد الفعل الشعبى عام ١٩٥٥ لتوقيع العراق لحلف بغداد .

ونعود فى النهاية لنؤكد ان ما أوردناه من ملاحظات على مقالى الدكتور أحمد فائق لاينفى ما فيه من جهد واخلاص ، وان كانت تلك الملاحظات تبرز من ناحية أخرى اهمية التزام الحيطة والحذر فى اجتياز ذلك الطريق الوعر .

قدرى حفنى

بين النظرية والمنهج في علم النفس

عبد الستار ابراهيم محمد

لماذا نلجأ الى مناهج العلوم الاخرى ونحن أمام الانسان ذلك الكائن ذى التركيب المعقد المتجاوز لوضعه وتاريخه ، ولكل قوانين مفسرة ؟! ألا يكفينا قربنا من الظاهرة – حيث نحن موضوع الاهتمام والتصاقنا بعلاقات مستمرة بالآخرين حتى نحصل معرفتنا الصحيحة بالانسان ؟ فما الذى نصبو اليه غير الوصول الى الحقيقة ؟!

تثار مثل هذه التساؤلات دائما فى مواجهة تطبيق المنهج العلمي فى دراسة السلوك الانسانى ومن الحق أن نعترف بشكل عام أن الوقوف على مثل هذه التساؤلات أصبح من قبيل الوقوف على قوالب جامدة من التفكير والحكم . ويكفى للدلالة على ذلك أن نجمع بين هذه الدعاوى ، وما تعنيه النظرة العلمية – بمعناها الصحيح – حتى يتضح خطأ اثارة هذه الاسئلة على هذا النحو .

فلا شك أن النظرة العلمية للسلوك – السلوك الانسانى على وجه الخصوص – تدرك جيدا الطبيعة الفريدة ، وشبكة العوامل المعقدة الكامنة وراء هذا السلوك . ولا شك أن الافكار العظيمة فى علم النفس – شأنها فى ذلك شأن العلوم الاخرى – ليست صورا ذهنية معزولة عن الواقع ، وانما هى تسمح لنا بالتعامل مع

المواقف الخارجية بصورة أفضل. وفى كل الاحوال لا تهدف النظرة العلمية للسلوك الى أكثر من الوصول الى الحقيقة ، والى المعرفة الصحيحة بالانسان ٠

لكن عالم النفس عندما يثير هذه القضايا على هذا النحو لا يقف على الجوانب السلبية منها موقف المغلوب على أمره بل يتعدى ذلك الى اضاءة جوانب من حقيقة الظاهرة التى يدرسها ، بمفهوم خاص عن الحقيقة ٠ وبهذا تكتسب هذه التساؤلات فى ذهنه حيوية فائقة تستثير لديه كل قدراته على التحدى والصراع ٠ والمتتبع لتاريخ علم النفس - العلمى - يدرك هذا الامر بوضوح ٠ فتاريخ هذا العلم - وهو لا يكاد يتجاوز مئة عام - محاولة متصلة دائبة فى تكشف مظاهر السلوك المختلفة - البسيطة والمعقدة على السواء - وتحديد ،وتنظيم الشروط المساهمة فى ابراز معالمها عن طريق المنهج العلمى ٠ ا

ولعل أول المسلمات التى ينطلق منها عالم النفس فى نظرته لموضوع دراسته - وهو السلوك - والتى أدت به الى أن يتخذ موقعا يمكنه من تكشف الكثير ، هو أنه بصدد موضوع قابل لأن يفسر بمعنى أن للسلوك منطقا ينتظم من خلاله : أسبابا وشروطا ، وعلاقات بين هذه الاسباب والشروط ٠ وقد يعتبر عالم النفس أن صراعه من أجل الحقيقة قد انتهى عندما يتمكن يوما ما من الوصول الى صياغة - أو معادلة نهائية - لفظية أو رياضية تصف على نحو صحيح وواقعى كل أنماط وأشكال العلاقات التى تربط بين السلوك وشروطه بطريقة تجعل تنبؤاتنا مقنعة دقيقة ٠ غير أن هذا الصراع فيما يبدو لن يقف يوما ، فأنماط السلوك نفسها تتغير ، والحياة تطرح باستمرار شروطا جديدة تغير فى شكل العلاقات نفسها ، مع ذلك فان هذا الصراع يستمر مخلفا وراءه فى المراحل المختلفة انتصارات يزهو بها العلماء ، فهى تبين لهم أن صراعهم من أجل الحقيقة لا يسير فى طريق مغلق أبدا ٠

ومفهوم الحقيقة - كما يتبناه عالم النفس - لا يختلف فى الواقع عن مفهومها فى ذهن غيره من العلماء ٠ فالعلماء كل فى ميدانه الخاص يحاول التعبير عن المنطق الصحيح لأنماط العلاقات بين الاشياء ٠ فهذا ما يفعله علماء البيولوجيا مثلا ، أن يمكنونا من المنطق الذى من خلاله يمكن أن تنمو ساق نباتيه معينة نموا ناجحا بتحديد الشروط الأساسية التى تنظم عملية النمو ٠ كطبيعة التربة ، ودرجة الحرارة ، والتعرض لأشعة الشمس ، وكمية الهواء ٠٠ الخ ٠ وهذا ما يفعله أيضا علماء الكيمياء ٠ أن يصوغوا لنا المنطق الذى تتفاعل من خلاله المواد ببعضها بتحديد خصائص المادة التى تحدد مسار هذا التفاعل ٠ وهو نفس ما نطلبه من عالم النفس : أن يوضح لنا الشروط والاسباب - البيئية والشخصية - التى تجعل الناس يدركون ، ويفكرون ، ويبدعون أفكارا جديدة ، ويحكمون ، وينحرفون فى سلوكهم الاجتماعى ، أو الانفعالى ، ويحلون مشكلات الواقع بدرجات متفاوتة الكفاءة ٠٠ الخ ٠

ومثل هذا الهدف كما تتبناه المعرفة العلمية - كجانب من جوانب المعرفة الانسانية - وهو التأليف بين جوانب الواقع والجمع بين جزئياته هو نفس هدف الافكار العظيمة فى كل المجالات الفنية أو الفلسفية ٠٠ الخ (فهكذا مثلا برزت عبقرية الفنان جيوتو Giotto التأليفية الذى استطاع أن يربط معا فى لوحاته عن المسيح بين أزمة الانسان ومعاناة المسيح ، بطريقة تضيف منظورا جديدا لمفهومنا من الانسان ، وعن المسيح وهكذا برزت عبقرية ماركس الذى استطاع ان يجمع بين علاقات الانتاج وشكل الانتاج بطريقة أضاءت كثيرا من فهمنا لجزئيات المجتمع فى شموله ٠ لعل هذا ما يشد انتباهنا الى روايات الاديب المصرى نجيب **محفوظ** حيث استطاع - بذكاء نادر - أن يجمع بين حيرة وهزيمة ابطاله، وبين حيرة الانسان فى البحث عن يقين ، بطريقة تعمق احساسنا بأبطاله وبالانسان ٠)

لكن المعرفة العلمية تتميز عن غيرها من أنواع **المعرفة فى نقطتين :**

١ - أسلوب المعرفة ٠

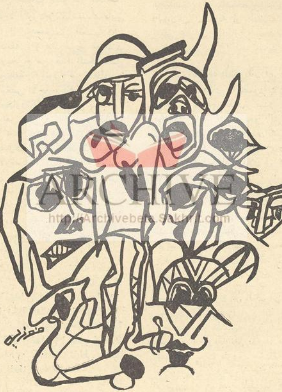
٢ - التنظيم النظرى لمنطق الوقائع ٠

فالعالم لا يهتم بالوقائع الشائعة بقدر ما يهتم بأسلوب الوصول الى هذه الوقائع ، هادفا فى النهاية الى : الفهم ، والتنبؤ ، والضبط ٠ ولعل هذا ما يعنيه وايتهيد عندما يقارن بين عصر العلوم والعصور الاخرى فيقول « ان اليوم بدأ لسؤال كيف نعرف ؟ يحظى بالاهمية القصوى بدلا من السؤال ماذا نعرف ؟ » ويذكر العالم النفسى جيلفورد - وهو واحد من القلائل الذين ينمون اتجاها علميا فى فهم وبناء العقل البشرى - أن

مجرد المعرفة بالسلوك لاتخلق عالما نفسيا، قاصدا بذلك الاشارة الى أسلوب المعرفة .

ولعلنا نعرف الآن أن أسلوب المعرفة ـ عند العالم هو المنهج العلمى بأبعاده وعناصره المختلفة ولا يختلف المنهج العلمى فى دراسة السلوك عن المنهج العلمى فى دراسات موضوعات الطبيعة الاخرى . والعناصر الاساسية فى كل واحدة

فى المنزل ، فى المصنع ، فى الشارع .. الخ) فيفترض مثلا أن الاحباط يؤدى الى عدوان . ويضع فرضه فى شكل لفظى يعبر تعبيرا مؤقتا عن هذه العلاقة (اذا حدثت أ حدثت ب) . وبداية من هذه الصياغة ، يحاول التأكد من هذه العلاقات هادفا الى تنظيم معرفتنا بالسلوك العدوانى ، والتحكم فيه . وثمة طريقان أساسيان يلجأ اليهما فى ذلك : ١ ـ التعبير عن العلاقة فى شكل



وهى : الملاحظة ، واجراء التجارب والقياس . ويلاحظ عالم النفس مثلا فى مواقف مختلفة من الحياة أن هناك اطرادا ذا طبيعة محددة بين مظاهر كثيرة من السلوك العدوانى على المستوى اللفظى أو الفعلى وبين اعاقة التوصل الى هدف معين أو اشباعة فى مواقف مختلفة من الحياة (فى المدرسة،

ما يسمى بمعامل الارتباط : ينتخب الباحث عددا معقولا من الاشخاص . ويطبق عليهم عددا من المقاييس الموضوعية لقياس الوظائف ، أو المتغيرات أو المظاهر السلوكية التى يريد دراسة العلاقات فيما بينها . وهى فى مثالنا العدوان والاحباط والخطوة لتالية لذلك هي التعبير عن نتائج هذه

العلاقات فيما يسمى بمعامل الارتباط ، كتقدير كمي نستطيع من خلاله ان نتبين الوحدة التي تجمع بين هذين الخاصيتين : بأي مقدار يظهران معا ، ويختفيان معا ، أو يزيدان معا أو ينقصان معا . هذا أبسط شكل لمعامل الارتباط . غير أن هناك مناهج أخرى تقوم عليه .. وهي أكثر تعقيدا من هذا الشكل وتهدف الى مزيد من التنظيم للعلاقات التي ينتظم من خلالها السلوك . مثلا مايسمى بالتحليل العاملي في هذا الشكل لاينتخب الباحث مقياسين أو ثلاثة انما ينتخب عددا أكبر من المقاييس .. تقيس سمات سلوكية مختلفة، ويطبقها على عدد أكبر من الأشخاص لا يقلون عن ٢٠٠ . ويحلل العلاقات بين هذه المقاييس المختلفة ، (عن طريق معاملات الارتباط أيضا) . ويخرج من هذا التحليل بتجمعات احصائية مختلفة ، أنواع من المقاييس ترتبط ببعضها دون البعض الآخر ، وهذا مايسمى بعوامل أو أبعاد أو محاور السلوك الرئيسية . وهذه الابعاد أو العوامل هي في الواقع مفاهيم احصائية تقوم – على حد تعبير الدكتور مصطفى سويف بمثابة خطوط وهمية كخطوط الطول والعرض على الكرة الارضية ، ليس لها وجود فعلي في الحياة النفسية ، لكنها مع ذلك مفيدة جدا في بناء علمنا ، تماما كفائدة خطوط الطول والعرض في تنظيم قسط من معلوماتنا الجغرافية

والقارىء الذي استطاع من خلال هذه السطور أن يفهم منطق المنهج الارتباطي ، والتحليل العاملي يستطيع أن يفهم بسهولة الانجازات المختلفة التي أنجزها علم النفس من خلاله اعتماده على هذا المنهج . مثلا ما توصل اليه أيزنك H.J. Evsenc من أن هناك نمطين أو بعدين أساسيين ينظمان السمات المزاجية للشخصية هما الانطواء والانبساط . وما توصل اليه العلامة جيلفورد من أن هناك أربعة عوامل أساسية تقوم عليها القدرة على الابداع . كمقدرة تأخذ موقعها في بناء أشمل هو بناء العقل – وهي :

١ – **الحساسية للمشكلات** : أي القدرة على الاحساس بأن الموقف أو المواقف التي نواجهها تنطوي على مشكلة ، أو عدد من المشكلات تحتاج الى حل .

٢ – **الجدة أو الاصالة** : وهو العامل الذي يلخص ويكمن وراء مظاهر السلوك عندما يبتكر الفرد حلا جديدا أو أصيلا . لا يستطيع أن يصل له أحد غيره .

٣ – **المرونة** : أي العامل الذي يكمن وراء مظاهر السلوك التي تبدو في قدرة الشخص على أن يعيد نظام توافقه مع الموقف ، أي يغير وجهة نظره للأشياء ، أو يغير الزاوية التي يعالج منها الشيء. **والفرق بين المرونة والاصالة ان الشخص الذي تتوفر فيه قدرة أكبر من المرونة لا يميل الى أن يكرر نفسه انما يميل دائما الى أن يشكل سلوكه، تشكيلات مختلفة مع الموقف المتغير .** ولذلك فحلوله الابداعية يبدو عليها التغير المرن والتعبير بفئات مختلفة ، واعطاء حلول ذات طابع مختلف . أما الشخص الذي تتوفر فيه قدرة أكبر من الاصالة أو الخبرة فهو الشخص الذي يعطي حلولا أو أفكارا لا يعطيها غيره : أو لا تشيع بين الآخرين .

٤ – **الطلاقة الفكرية** : أي القدرة على اعطاء عدد كبير من الأفكار والتصورات في وحدة زمنية معينة . وهذه القدرة تبدو مظاهرها في مواقف مختلفة كلها تتجه نحو كثرة عدد الافكار والتصورات التي يعطيها الشخص في وحدة زمنية معينة اذا قارناه بغيره بحيث نستطيع أن نتحدث عن انخفاض فلان في هذه القدرة، وارتفاع فلان الآخر فيها .

هذه أمثلة تبين لنا ما يقدمه المنهج الارتباطي من تنظيم في معرفتنا للسلوك . والآن ننتقل الى الطريقة الثانية .

٢ – الطريق الآخر هو اصطناع مواقف أقرب الى مواقف الواقع بتعريض الشخص أو الاشخاص لمنبه أو عدد من المنبهات ، بطريقة تسمح باستثاره السلوك أو الخبرات ، ثم يفحص هذا السلوك الناشيء ، أو تلك الخبرة تحت ظروف تعرضها لهذا التنبيه دون سواه ، فنحللها ، ونوضحها ، ونقارنها بغيرها من الامثال السلوكية المستثارة تحت ظروف مختلفة . وهذا هو الاتجاه التجريبي .. وهو لا يختلف عما يفعله العلماء الآخرون . فبنفس الطريقة مثلا يقوم البيولوجي بتعريض ساق نباتية لأشعة الشمس ملاحظا التغير الذي يطرأ على نموها . وبنفس الطريقة يقوم العلماء في معامل البحوث بكليات الطب بتعريض الجراثيم المرضية الى أنواع معينة من العقاقير .. وملاحظه التغير الذي يطرأ على نشاطها .. الخ . فكل فريق من هؤلاء يفترض فرضا عن أسباب الظاهرة.. ويحدد مدى مطابقة الفرض المعمول به لعالم الوقائع الملاحظة في موقف ضبط

- باستبعاد كل الشروط الاخرى غير الداخلة فى الفرض - وتغيير منظم فى الشرط ، أو الأسباب المفترضة • وملاحظة أوجه التغير ، والتعبير عن هذه الاوجه تعبيرا بسيطا •

وهذا فى الواقع ما يميز المنهج التجريبى عن المنهج الارتباطى : فى المنهج التجريبى نصل الى أسباب ، وشروط ، ونستنتج علاقات سببية ، أما فى المنهج الارتباطى فنحن لا نستطيع ان نستنتج علامات سببية اننا نقوم بتلخيص العلاقات ، واختزالها بهدف تنظيم معرفتنا كما أشرنا •

لكن هناك حالات كثيرة يمكن منها استنتاج علاقات سببية اعتمادا على العلاقات الارتباطية الملحوظة • فلأسباب خلقية لا يمكننا مثلا دراسة الانواع المختلفة للأمراض النفسية عن طريق تعريض مجموعات من الافراد - لبيئات أسرية تختلف فيها أنماط التفاعل الاجتماعى • ولكن من الممكن ، مع ذلك ، أن نلاحظ الفروق الطبيعية الموجودة فى عدد من الاسر من حيث أنماط التفاعل وعلاقة ذلك بالفروق فى شخصيات أفرادها من حيث مظاهر الاضطراب النفسى • ففى هذه الحالة - أستطيع أن أستنتج وجود علاقة سببية اعتمادا على المنهج الارتباطى لأن العلاقة المستنتجة لا يمكن قلبها أو عكسها •

وقد يمكننا أيضا منطق النظرية العلمية الجيدة من استنتاج علاقات سببية من البيانات الارتباطية بقليل جدا من المغامرة • والى القارىء هذا المثال ، من دراسات السلوك الاجتماعى : لنفرض أننى حصلت على معامل ارتباط مرتفع بين حجم الجماعة ، وفاعلية القائد فيها - كلما زاد حجم الجماعة زادت فاعلية القائد وقدرته على التأثير • ففى هذه الحالة لا يمكننى أن أستنتج أن حجم الجماعة قد زاد لأن فاعلية قائدها قد زادت • وقد تصبح هذه النتيجة غامضة نظريا اذا افترضت ذلك ، لأن الارتباط هنا لا يوضح كيفية مساهمة حجم الجماعة فى فاعلية القيادة •

والخلاصة أن المنهج التجريبى أكثر حسما من المنهج الارتباطى فى استنتاج العلاقات السببية • ولكن المنهجين يتفقان فى انهما يجعلان معرفتنا بالسلوك أكثر تنظيما • والجمع بين المنهجين يجعل قدرتنا على التنبؤ ، ومن ثم الضبط أكثر فاعلية وحسما •

وتتبلور أهمية المنهج الارتباطى والتجريبى فى

أن كلا منهما يساهم فى التنظيم النظرى ، وتلخيص المنطقى للحقائق ، بايجاد وصف لفظى مناسب لشكل العلاقات بين الوقائع ، ومن ثم التنبؤ بمسارها وفق المطابقة بين هذه الصياغة وبين حوادث الواقع بجزئياتها المختلفة ، والتى كانت تبدو قبل وجود هذه الصياغة - مجموعة من الحوادث المفككة المنفصله غير القابلة للتاليف أو الجمع •

يقودنا هذا الى الحديث عن التنظيم النظرى للحقائق كهدف أسمى تصبو اليه المعرفة العلمية لا فى علم النفس وحده بل فى كافة أنواع المعرفة العلميه الاخرى •

التنظيم النظرى :

يعرف العالم الفيزيائى البريطانى **جيمس** كونانت J. Conant النظرية العلمية بأنها « سلسلة من المفاهيم المترابطة والتخطيطات التصورية التى تشكلت من خلال التجارب والملاحظات • ويشير روبنشتين J. Robinstein عالم النفس السوفيتى المعروف - الى نفس هذا المعنى فيعرف النظرية بأنها محاولة لصياغة مفاهيم معينة عن تشكل الظواهر •

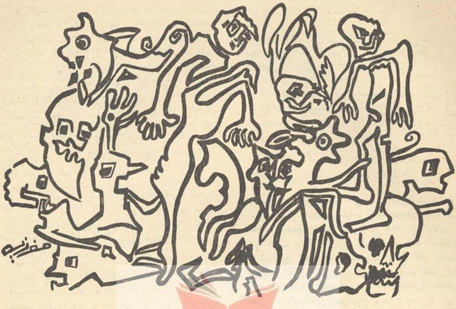
ولا شك أن التنظيم النظرى (النظرية العلمية) الدقيق ليس مجرد محاولة يصبو اليها العلم على مدى حركته التطورية ، بل هو هدف البحث العلمى الاسمى كما ينبنى لا من خلال جهد عالم واحد بل ولا مجموعة من العلماء والمتخصصين فى فترة زمنية واحدة ، انما من خلال جهد أجيال متتالية من الباحثين والعلماء •

ولكن يجب أن لا يفهم من ذلك أن النظرية بناء متصلب من الحقائق • فالنظرية كعملية خلق انسانية نتاج جهد شاق من محاولة التكيف للواقع - على حد تعبير العلامة اينشتين • ولعلنا لا ننسى أن بناء النظرية العلمية يرتكز أساسا على الملاحظات الدقيقة للعلاقات التى تتم بين أجزاء الواقع ، وعلى التأكد من هذه الملاحظات بمختلف الاساليب المضبوطة ، وأنه بمقدار ما تتقدم ملاحظاتنا ، وتنمو ، وتتعقد بمقدار ما نعدل فى شكل النظرية أو نغير فى بنائها • فالمتتبع لتاريخ النظرية السلوكية ، يرى أن هذه النظرية بدأت برد أشكال السلوك الى الشروط الخارجية بالسعى الى اقامة علاقة مباشرة بين النتيجة والشروط الخارجية أو بين المنبه والاستجابة دون اعتبار للشروط الداخلية للسلوك (أو الاستجابة)

وهى الشروط التى تكسب التأثير الخارجي معناه ووفق هذا انبناء انطلق واطسون Watson يصيح متفائلا بأنه قادر على أن يخلق عبقريا او مجرما ٠ وقد أثبتت التجربة بعد ذلك خطأ واطسون لأنه ارتكز على نظرية لم تكن قادرة على استيعاب الواقع فى ثرائه ٠ **فالواقع ، وملاحظاتنا لهذا الواقع تدلنا على أن نظام المنبه والاستجابة الحية لا يعطى وصفا مناسبا للحياة العضوية حيث يؤدى نفس المنبه الى نتائج مختلفة فى الكائنات الحية كلما اختلفت خصائصها ، والظروف التى تتعرض لها من وقت الى آخر** ٠ فتأثير المنبه الخارجي يعتمد على حالة الكائن الحى وعلاقته بما يحيط به من ظروف ، وتنظيم هذه العلاقة ٠ ومن ثم تعدل شكل النظرية ـ لتستطيع أن تلم بكثير من الحقائق الجزئية ـ باضافة عنصر جديد يجعل فهمنا للواقع أكثر مرونة ودقة فى نفس الوقت وهو : حالة الكائن العضوى Organism كعنصر يتوسط بين المنبه الخارجي والاستجابة ٠

واذا كانت النظرية العلمية تتعدل من خلال الواقع ٠٠ فان نظرتنا الى الواقع تتعدل أيضا بتعدل شكل النظرية ودقتها ٠ وهذا ما حدث بالفعل بعد تطوير النظرية السلوكية وفق الشكل السابق ٠ فقد أمكن دراسة جوانب من السلوك الاكثر تعقيدا كدراسة العمليات المعرفية العليا : كالانتباه الارادى ، والتهيؤ الذهنى ، وحل المشكلات ، والقدرة على الحكم ٠ بل وبعض الاشكال الاخرى التى يتشكك علماء النفس أنفسهم فى جدوى دراستها وفق نظام المدرسة السلوكية كالابداع ٠ وقد كان جيلفورد يبدى تشككه فى جدوى استخدام النظرية السلوكية فى تفسير الظواهر الابداعية ، وفى سنة ١٩٦٧ ظهرت محاولة ولبرت راى Wilbert Ray تحديا لهذا الرأى ومحاولا دراسة الاصالة فى التفكير الانسانى وفق نظام المنبه ـ الكائن ـ الاستجابة ٠ وهى محاولة تعتبر دون شك علامة على الطريق فى دراسة القدرات الابداعية ولم تكن لتتم دون الشكل الجديد الذى تطورت اليه النظرية ٠ مثال آخر دراسات : التذوق الفنى فقد أثار هذا الموضوع اهتمام علماء السلوك منذ فترة طويلة ترد الى العالم الالمانى فخنر G. Th. Fechner رائد علم النفس التجريبى فى أواخر القرن ١٩ ٠٠ ولما كانت دراسات التذوق الفنى مرتبطة بالنظرية السلوكية فى بداياتها المتخلفة الاولى ٠٠ فقد ارتكز اهتمام العلماء فى فهم هذا الموضوع على خصائص المنبه الخارجي الذى يستثير الشعور الجمالى وحده دون اهتمام بطبيعته الشخصية

ولعل هذا ما أدى بالعلامة سيرل بيرت C. Burt الى أن يركز فى تحليله لعملية التذوق الموسيقى على بناء اللحن الخارجي وحده من حيث التوافق والتنوع ٠٠ لنقارن هذا بالمحاولات الحديثة التى ركزت فى دراستها لعملية التذوق الجمالى على اعتبار أنه عملية تجمع بين خصائص المنبه الخارجي ـ موضوع التذوق ـ وخصائص الكائن المتذوق٠ مثال ذلك محاولة والاش M.A. Walach للكشف عن أثر الدوافع ، وبناء الشخصية فى تكوين الخبرات الجمالية (سنة ١٩٦٢) حيث استطاع هذا الباحث بالاعتماد على الدافع ـ أن يميز بين ما هو فن جمالى وفن غير جمالى بمقدار أشباع هذا الفن لبعض الدوافع ٠٠ فيبدو الفن جميلا اذا كان يستثير دافعا ينشده الفرد ـ كالدافع العاطفى ـ ويبدو فن آخر غير جميل اذا كان يحرك دافعا أو نزعة لا يريدها الشخص كالنزعة العدوانية ، فمقطوعة سترافنسكى Stravinsky «طقوس الربيع» قد تؤدى الى تأثيرات مختلفة فى مستمعين مختلفين : تستثير بعضهم استثارة جميلة ينشدها وتحرك فى بعضهم نوازع عدوانية تهدد تكاملهم فتبدو عند المجموعة الاولى فنا جميلا، وقد لايراها أفراد المجموعة الثانية فنا على الاطلاق ٠ ومن بين التجارب التى أجراها « والاش » تجربة أراد فيها أن يوضح دور سمات الشخصية فى التذوق الموسيقى ٠ ودون الدخول فى التفصيلات المنهجية أمكن للباحث أن يكشف أن هناك علاقة مباشرة بين الميل الى المجازفة والانبساط وتذوق الموسيقى الصاخبة ـ بأن يعرض مقطوعات موسيقية مختلفة الايقاع والحركة على الافراد ، ويطلب منهم أن يختاروا المقطوعات التى يفضلون سماعها عن غيرها ـ بعكس المنطوين والمستكينين ٠ لكنه اكتشف أيضا أن المرتفعين جدا فى سمتى الانطواء والاستكانة اعتمادا على نتائج مقاييس موضوعية ثابتة لقياس هاتين السمتين مثلهم فى ذلك المنبسطين والمجازفين من حيث حبهم للموسيقى الصاخبة ٠٠ مما أوحى للباحث أن يفترض بأن الميل الى الموسيقى المثيرة الصاخبة قد يكون أحيانا تعبيرا تعويضيا عن الانطواء والاستكانة فى هذا المستوى الخيالى ٠ هذا نموذج من نماذج دراسة التذوق الجمالى ٠٠ يمكن للقارىء منه أن يستنتج الخط العام لهذا النوع من الدراسات العلمية لجانب من جوانب النشاط الانسانى ،لازال الكثيرون يأبون اخضاعه للعلم فضلا عن اخضاعه للتجربة ٠٠ ومثل هذا الشكل لم يكن ليتم دون أن تكون العناصر الاساسية للنظرية العلمية قد اكتملت أو قاربت الكمال ٠



لنقارن هذا مثلا بنظريات أخرى ٠٠ لنر الى أى مدى آدى بناؤها النظرى الخاطىء الى تخلف الفهم العلمى للسلوك : نظرية التحليل النفسى الفرويدى ومجموعة النظريات التأملية الاخرى ٠ فبناء هذه النظريات ، واعتمادها على مفاهيم ذاتية أدى الى عدم احترام المعرفة العلمية ذاتها وبالتالى أصبحت النظرة الى السلوك نظرة متصلبة فقيرة ٠٠ وليس غريبا أن نجد المحللين النفسيين يهاجمون فى كتاباتهم كل ما يشتم منه الموضوعية والمنهجية ، والقياس العلمى للظواهر ٠ صحيح أن حجج هذا التهجم جديرة بالالتفات ـ من حيث أن موضوع الدراسة فى علم النفس يختلف عن موضوعات الدراسة فى العلوم الاخرى فى درجة التعقد ـ غير أن هذه الحجج تنصب على البدايات الاولى لعلم النفس العلمى ، وهى البدايات التى ينكرها الآن علماء النفس التجريبى أنفسهم دون التفات للخطوات الحثيثة الدائبة فى دراسة أشكال السلوك المختلفة ٠ هذا فضلا عن الطريق المخالف للوقائع التى اتخذته هذه النظريات التأملية ٠ بحيث لا يمكننا عند الانتقال من بناء النظرية الى جزئيات الواقع ـ لا يمكننا أن نلاحظ أو نشاهد عنصر « المطابقة » وهو العنصر الذى يجعل تنبؤاتنا بشكل الظواهر صادقة وصحيحة ، وهو الشرط الأساسى فى النظرية العلمية الجيدة ٠

السؤال الآن ما هو شكل النظرية العلمية الجيدة ، أى ما هى الشروط التى يجب توافرها فى النظرية حتى تكون صحيحة ؟ ٠٠ هناك شروط أساسية تشير الى الحد الادنى من الخصائص التى اذا توافرت أمكننا أن نتحدث عن وجود نظرية وهى :

١ ـ نظام Model أو نموذج يعبر عن أنماط معينة من العلاقات القائمة على عدد من الملاحظات ٠

٢ ـ التعبير عن شكل العلاقات تعبيرا لفظيا أو كميا ٠

٣ ـ القابلية للتعديل ، ومرونة البناء ٠

غير أن هذا الحد الادنى من الشروط لا يفسر لنا السبب الذى من أجله نجد أنفسنا نحترم نظرية دون الأخرى : فنحترم نظريات علم الفلك الحديثة عن علم قراءة الطالع بالنجوم ، أو نظريات الفسيولوجيا الحديثة عن نظرية جال Gall عن الشكل الخارجى للجمجمة · وامكانية التنبؤ منه بقدرات الشخص التخيليه والعقلية ، أو أن نحترم نظريات **نيوتن واينشتين** فى الفلك أكثر من النظريات القديمة القائلة بأن الكواكب محمولة فى كرات بللورية · وبالمثل لماذا نجد أنفسنا فى علم النفس نحترم النظرية الحديثة للشخصية عندايزنك عن نظرية التحليل النفسى عند فرويد ؟!

الاجابة على هذا أن هناك شروطا ثانوية أخرى تضاف الى الشروط الثلاثة السابقة حتى تكون النظرية قوية تستحق الاحترام ·· وبمقدار توافر هذه الشروط الثانوية تستطيع النظرية أن تستوعب أشكالا مختلفة من الواقع وأن تفسر ظواهر أخرى غير تلك التى قامت لتضعها فى اطار متماسك ·

فالفرق بين النظريه القوية والنظرية الضعيفة ليس فرقا فى النوع ·· ويتصور أيزنك العلاقة بين النظريات القوية والنظريات الضعيفة على أنهما يمتدان على متصل واحد يمثل تدريجا متصلا يبدأ بطرف منه بالنظريات التى تبلغ أكبر درجة من القوة وينتهى الطرف الآخر منه بالنظريات التى تبلغ أصغر درجة من القوة « **أى النظريات الضعيفة** » ·· وكلما تدرجنا من النظريات القوية الى النظريات الضعيفة قلت الشروط التى يجب توافرها لكى تكون النظرية أقوى · ومثل هذا التصور للعلاقة بين النظريات الضعيفة والقوية سيجنبنا دون شك التصلب فى تصور كثير من النظريات فى تاريخ العلم عموما ·· وتاريخ علم النفس على وجه الخصوص ، فنضعها فى مكانها الصحيح من حيث تعبيرها عن الواقع وتلخيصها لحقائقه ·

فلننظر مثلا الى نظرية « نيوتن » فى الجاذبية – كنموذج واضح للنظرية القوية – ولنستعرض عليها – كمثال حى – أهم الشروط الاخرى التى جعلت منها نظرية قوية · ان أهم ما تتميز به نظرية نيوتن أنها :

١ – قامت على عدد ضخم جدا من الملاحظات المضبوطة التى استمرت عددا من السنين · وتمت على يد العديد من الاشخاص ·

٢ – تجمع بين عدد كبير من الميادين الفرعية حيث تتحقق فيها القوانين الكمية السابقة عليها كقوانين « كيبلر » و « جاليليو » ·

٣ – تضمنت ظواهر واضحة الابعاد نسبيا ·· أى ظواهر يمكن ملاحظتها دون استثارة أى نوع من الغموض · ودون أن تختلط بالظواهر الأخرى ·

٤ – عبرت بشكل رياضى « كمى » عن العلاقات المتضمنة فى بنائها دون تعقيد شديد ·

٥ – ان التنبؤات التى كان يمليها اطار النظرية كما يقول ايزنك « **كانت – وبسبب كل النقاط السابقة – على درجة مرتفعة من اليقين · ولم تحدث مشكلات ذات وزن يذكر عند الانتقال الى التطبيق العملى للاستنتاجات التى كان يمليها عليها اطار النظرية ، أى أنها كانت تعبر عن علاقات واقعية وصحيحة** · « **مثال ذلك اكتشاف الطائرات النفاثة والصواريخ** » ·

هذه هى الخصائص التى تميزت بها نظرية « نيوتن » ، وهى تقريبا نفس الخصائص التى تميز بها أى نظرية قوية فى أى علم من العلوم وجاءت نظرية اينشتين بعدها لا لتبين ضعفها ولكن لتعطى نموذجا آخر لنظرية أكثر قوة ·· وبمراعاة هذه الشروط يمكن للقارىء أن يتناول مثلا أى نظرية من نظريات علم النفس فيمتحن قوتها أو ضعفها بالرجوع الى هذه الشروط الخمسة ·

ولمزيد من بلورة مفاهيمنا ، وتقوية قدرتنا على الاستنتاج السليم فى ميدان علم النفس نتناول النظرية العلمية الحديثة للشخصية عند أيزنك ومعاونيه كنموذج للنظرية القوية فى علم النفس اذا قورنت مثلا بنظرية كنظرية التحليل النفسى ·· ولنر الى أى مدى تتحقق فيها هذه الشروط · يرى أيزنك أن الشخصية « **كمجموعة من السمات تميز فردا عن الآخر** » نتاج لعمليتين أساسيتين من عمليات الجهاز العصبى المركزى وهما عمليتا الاثارة والكف · وتغلب أحد هذين النشاطين على الآخر يساهم فى ايجاد نمطين كبيرين وأساسيين من أنماط الشخصية هما : النمط الانبساطى والنمط الانطوائى · ففى حين يرجع سبب وجود

النمط الانبساطى الى زيادة عمليات الكف فى الجهاز العصبي المركزى ، يرجع وجود النمط الانطوائى الى زيادة عمليات الاستثارة عند بعض الاشخاص دون البعض الآخر · وعن طريق هذين النشاطين المستقلين وتفاعلهما مع المنبهات البيئية تتكون مجموعة الظواهر السلوكية الاخرى المرتبطة بكل نمط من هذين النمطين دون النمط الاخر كمجموعة الاستجابات الادراكية والحركية ، واستجابات التعلم والتفكير والنشاط الاجتماعى، حيث نجد أن الانطوائيين يتميزون بأسلوب خاص عن المنبسطين فى كل هذه الاستجابات والعكس بالعكس ·

اما كيف تكونت نظرية ايزنك بهذا الشكل ·· فهذا موضوع مقال آخر ·· غير ان هذه النظرية اذا راعينا الشروط الخمسة السابقة تعتبر نموذجا للنظريه القويه فى علم النفس لو قورنت مثلا بنظريه التحليل النفسى فهي :

١ – تقوم على عدد ضخم من الملاحظات الدقيقة التى استمرت عددا كبيرا من السنين ، وعلى يد العديد من الباحثين والمعاونين والتلامذة · فاول بلورة علميه لنظريته ظهرت سنه ١٩٤٧ فى كتابه ابعاد الشخصيه · Dimensions of Personality

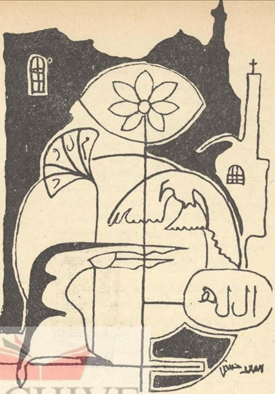
وقد كان هذا الكتاب تتويجا لجهد سنين طويلة سابقه من البحث بالاشتراك مع مجموعة من المعاونين · وقد ظهرت بعد ذلك محاولات مختلفه (نشرها ايزنك أما مستقلا أو مع معاونيه) وقد أثرت هذه المحاولات النظريه فى بنائها ،ومدت من تطبيقاتها الى الميادين المختلفه من علم النفس · ولا زال هذا الجهد مستمرا حتى الان

٢ – تجمع نظرية أيزنك بين عدد من الميادين الفرعية ، وتتحقق فيها جهود العلماء السابقين·· وهذه حقيقة يعترف بها أيزنك في وضوح شديد فى كل كتبه · والواقع أن أعمال أيزنك وبحوثه ·· وتفسيراته لنتائج هذه البحوث تعتبر امتدادا لجهود جيش ضخم من العلماء السابقين مثل « بافلوف » وبحوثه فى التشريط ، «وثرستون» L.L. Thurstone وسيرل بيرت C. Burt ومساهمتهما فى التحليل العاملى · ومن قبيل رد الفضل الى أصحابه – متشكلا بأشكال أخرى – أهدى أيزنك أهم كتابين له وهما « بناء الشخصية الانسانية » سنة ١٩٥٥ وكتاب « الأساس البيولوجى للشخصية » سنة ١٩٦٨ أهداهما لكل من « ثرستون » و « بافلوف » على التوالى · واستفادة أيزنك من جهد هذين العالمين وغيرهما جعل نظريته فى الشخصيه تجمع بين عناصر من المفاهيم فى الميادين الأخرى كالبيولوجيا والفسيولوجيا · ومن الجدير بالملاحظة ان أيزنك يؤكد ان كثيرا من المفاهيم فى تفسيره للسلوك مستقاه من ميدانى البيولوجيا والفسيولوجيا لتركيزه على مفاهيم الوراثه ، والجهاز العصبى ، وعمليات الكف والاستثارة ·· الخ · ولا شك ان القارىء الذى لا يألف مصطلحات هذين العلمين سيشعر عند قراءته لايزنك – خاصه فى كتاباته المتخصصه – بغير قليل من الارتباك · ولو ان الوضوح الشديد الذى يكتب به أيزنك قضاياه، وبحوثه قد يخفف قليلا من هذا الارتباك ·

٣ – ان الظواهر التى تضمنتها نظريه أيزنك واضحه القسمات والابعاد نسبيا ، وليس فيها ما يستثير أى غموض · وهى على الأقل لا تختلط بالظواهر الاخرى · وهذه سمه ترتبط من غير شك بسبب المنهجية العلمية التى تكونت على أساسها نظريته · فمثلا عندما كان أيزنك يتحدث عن سمة من سمات الشخصية توجد بقدر متفاوت عند كل الاشخاص أو عندما كان يتحدث عن مجموعة من السمات ترتبط ببعضها البعض ولا ترتبط بالمجموعات الاخرى من السمات · كان منهجه العلمى يلزمه باصطناع المقياس المناسب واصطناع مثل هذا المقياس كان يتطلب التحديد الواضح لمعنى هذه السمات · ويمكن للقارىء أن يقارن ذلك مثلا بكثير من المفاهيم الشائعة : كاللا شعور ، وما قبل الشعور ، والأنا ، والهو ، والأنا الأعلى ·· الخ ·

وكذلك فان المنهج الاحصائى ·· والمنهج التجريبي المستخدمين للتحقق من الفروض التى يمليها الاطار النظرى لايزنك ·· جعل نتائجه فى مستوى مرتفع من اليقين والوضوح ·

ولا شك أن مثل هذه الخاصية فى النظرية العلمية تساهم فى تحديد جزء كبير مما يسمى « بموضوعية » العلماء فى تناولهم للظواهر فاذا كان العالم يبحث عن العلاقات التى توجد مستقلة عن الباحث بهدف الوصول الى القوانين التى تنظمها ، فان الطريق العلمى من التفكير له سمة أخرى : التزام الموضوعية فى وصف الظواهر أى أن لا تعبر المفاهيم التى نستخدمها لبناء نظمنا



العمليه عن وجدانات · بالنسبة للعالم لا يوجد الا « واقع » ، وليس رغبة أو قيمة ، ولا خير أو شر ، ومن مظاهر «الموضوعية» أيضا أن يكون حديثنا عن أحد الظواهر التي ندرسها موحدا — وهذا الشرط تحققه خاصية تحديد أبعاد الظاهرة تحديدا واضحا — فاذا تحدثنا عن سمة «الطلاقة» فى الشخصية يكون واضحا فى ذهن المتحدث والمستمع ما تقصده بهذه السمة ، وبالتالى فاذا توصل باحث معين لأحد الشروط التى تساعد على وجود الطلاقة فى بلد معين فانه يسهل بالتالى على أى باحث آخر أن يتحقق من هذا الشرط فى أى بلد آخر وأن يكشف شروطا أخرى ان أمكن ·· ويكون لمكتشفاته معنى محدد فى ذهن زملائه الآخرين فى الأماكن والازمان المختلفة ·

٤ — ان العلاقات الرياضية المتضمنة فى نظرية أيزنك لم تكن شديدة التعقيد ، فمثلا استخدم أيزنك فى تحليله لنتائج بحوثه عددا من الوسائل الاحصائية يمكن لأى شخص — بتدريب محدد — أن يجيد استخدامها · وذلك كمعاملات الارتباط وتحليل هذه المعاملات الى عوامل تنظمها وتحتويها وبمثل هذه الطريقة أمكن لنتائج أيزنك أن تحقق أكبر قدر من الموضوعية · فكما أنه يمكن أن نعيد تجارب نيوتن فى أى مكان لنتحقق من صدق نتائجها · كذلك يمكننا أن نعيد تطبيق مقاييس أيزنك باستخدام الوسائل المناسبة من صدق نتائجه ·

٥ — ولقد كانت التنبؤات المستقاة من الاطار النظرى ، بسبب كل النقاط السابقة ، على درجة مرتفعة من الضبط والدقة ، اذا قورنت مثلا بالتنبؤات التى كانت تمليها الاطر النظرية السابقة · ويكفى أن نذكر للقارىء مثالا حتى يمكنه أن يستنتج ما نعنيه بهذه النقطة ·

فبناء على فكرته فى أن الاشخاص المنطوين يرجع انطواؤهم الى زيادة عمليات الاستثارة فى فى الجهاز العصبى ، وأن الاشخاص المنبسطين يرجع انبساطهم الى زيادة عمليات الكف على عمليات الاثارة ·· كون تنبؤا فى شكل فرض علمى عن تأثير أنواع العقاقير على كل نمط من هذين النمطين من أنماط الشخصية ، فافترض أن العقاقير المخمدة من شأنها ان تؤثر فى الجهاز العصبى بالعمل على زيادة عمليات الكف فى المستويات العليا من الدماغ ، وتقلل من عمليات



الاستثارة ، وبذلك تؤدى الى ظهور نمط منبسط من السلوك • فى حين أن العقاقير المنبهة من شأنها أن تقلل من عمليات الكف فى اللحاء ، وتزيد من عمليات الاستثارة وبذلك تؤدى الى ظهور نمط منطو من السلوك • وبناء على ذلك صمم أيزنك عددا من التجارب تقوم خطتها الأساسية على أساس تكوين مجموعتين من الأشخاص، مجموعات منطوية ومنبسطة (وقد كان هذا التقسيم يتم باستخدام مقاييس ثابتة وصادقة للانطواء أو الانبساط) ، ثم يلاحظ تأثير استخدام كل نوع من نوعى العقاقير السابقين على سلوك كل مجموعة بعد التعاطى باعادة استخدام مقاييسه ليرى ، ويحدد مقدار التغير فى سلوك كل مجموعة بكل دقة • وقد نجحت بعض تجارب أيزنك فى اثبات تنبؤه • بعبارة أخرى اتضح أن الشخصية المنطوية يزيد انطواؤها اذا تعاطت عقارا منبها ، ويقل انطواؤها اذا تعاطت عقارا مخمدا •

بالمثل فقد كون ايزنك تنبؤات أخرى عن السلوك الاجتماعى ، واتجاهات الشخصية السياسية والاجتماعية ، وأشكال اضطراب السلوك ، والاستفادة من العلاج النفسى اعتمادا على نظريته العامة فى الشخصية نجح أغلبها فى السير مع الخط العام للتنبؤات التى يمليها اطاره،

نكتفى بهذا القدر من الحديث عن البناء المنهجى للنظرية العلمية فى علم النفس ، ولكن يبقى لنا أن نتساءل بعد هذا هل نعتبر أنفسنا على أعتاب نظرية نهائية تفسر لنا كل معميات السلوك الانسانى • وفى يقينى اننا اذا كنا نعنى بالنظرية النهائية نظرية ثابتة فان الاجابة على ذلك ستكون بالسلب • فطبيعة العلاقة بين النظرية والواقع يجعل من بناء النظرية متغيرا باستمرار . أما اذا كنا نعنى نظرية أقدر على اهداء خطانا ، واضاءة طريقنا فى عالم متضارب وبطريقة اقتصادية وثرية فالاجابة هى الأيجاب • ولا نجد ما نختم به هذا المقال أوقع من مغزى عبارة قال بها عالم من ميدان علمى خطا فى عمليته خطوات أبعد من علمنا بكثير، وهو الفيزيائى البريطانى تومسون J.J. Thomson يقول تومسون • ان النظرية سياسة أكثر منها عقيدة ، فموضوعها هو الربط بين ظواهر متعددة، أو التنسيق بينهما بغية الايحاء بالتجربة . واستثارتها ، وتوجيهها فوق أى اعتبار آخر ، •

عبد الستار ابراهيم محمد

النظرية العامة للأنساق .. في علم النفس

لودفيج فون برتالانفي
عرض : صلاح قنصوه

تعريف :

لا تشير « نظرية النسق » System الى ما يعنيه اصطلاح النظرية العلمية بمعناه الضيق المحدد ، لأنها لا تعرض محتوى جديدا من المعلومات من شأنه أن يقيم شبكة جديدة من القوانين . ولا نبالغ كثيرا اذا ما عددناها «خطة» علمية جديدة ينبغي أن تلتزم في مجموعة من العلوم وليس في علم واحد بعينه . وهي بهذا استراتيجية للبحث العلمي تقلب التصنيفات التقليدية التي درجت على التفرقة الصارمة بين النظرة والمنهج ، وبين العلم والتكنولوجيا ، وبين علوم الطبيعة وعلوم الانسان ، وبين الآلي والعضوي ، وبين الكم والكيف .

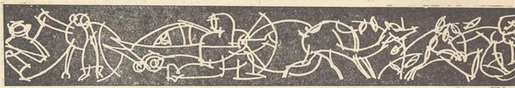
فهدف نظرية الانساق العامة هو ابراز الخواص ، والمبادىء ، والقوانين التي تميز الانسان بوجه عام بقطع النظر عن نوعها الخاص ، وطبيعة عناصرها المكونة ، والعلاقات او القوى التي تقوم بينها .

ويعرف النسق بانه مركب من العناصر في حالة تفاعل ، على أن يكون للتفاعلات طبيعة منظمة بحيث لا تجري عشوائيا . ولما كانت النظرية العامة للأنساق تتعلق بالمميزات الصورية للكيانات المسماة انساقا ، فانها اذن لا تنتمي الى علم خاص ، بل تصلح في دراسة ظواهر تندرج في اختصاص فروع تقليدية مختلفة للبحث العلمي . وهي لا تقصر نفوذها على الأنساق المادية ، بل تبسطه أيضا على أي « كل » مؤلف من مكونات متفاعلة . لذلك كان من اليسير ان تعبر النظرية العامة للأنساق عن نفسها بلغة الحديث المعتادة ، كما يمكن أن تنمى في نطاق لغات رياضية متعددة ، وتطوع لتقديرات الحاسب الالكتروني على السواء .

بواعث الاهتمام الراهن بالنظرية :

يرد الالحاح على ابراز أهمية نظرية الانساق الى أخفاق التصور الميكانيكي ، وعجز النموذج الآلي عن الوفاء بما كان متوقعا منه في وصف الظواهر وتفسيرها .

كما يعزى أيضا الى النزعة المشروعة نحو مقاومة تجزئة العلم الى تخصصات منعزلة التي



اصبحت تهديدا يقطع كل المواصلات بين العلماء في مختلف المجالات ، وهكذا برزت الحاجة الى لغة فنية مشتركة .

لهذا كانت النظرية العامة للانساق محاولة لمزج كل من النزعتين الميكانيكية والعضوية باستخدام أفضل ما فيهما ، أو قل ، هي ديالكتيك يتجاوز تعارضهما ، كما يضم الكم والكيف في وحدة شاملة . فالنسق ليس فقط مجموع الوحدات التي تحكم كل منها قوانين العلية ، بل هو بالأحرى كلية العلاقات بين هذه الوحدات . فالتوكيد هو على « التعقيد المنظم » ـ حسب تعبير أصحاب النظرية الأثير لديهم ـ بمعنى أن اضافة كائن جديد لا يضيف فحسب علاقة ذلك الكائن الجديد بسائر الكائنات ، بل يعدل ويحور العلاقات بين سائر الكائنات داخل النسق .

كان علم النفس في النصف الأول من القرن العشرين محكوما بتصور عام يمكن أن تطلق عليه « انموذج الانسان الآلي » Robot model للسلوك الانساني . وعلى الرغم من الاختلافات البارزة بين النظريات السيكلوجية مثل التحليل النفسي، والسلوكية سواء الكلاسيكية والجديدة ، ونظريات التعلم ، فانها تقاسمت جميعا افتراضات أولية معينة . من بين هذه الافتراضات النظرة الى الانسان على أنه كائن يقوم على ردود أفعال، وسلوكه استجابة فطرية أو مكتسبة لمؤثر من المؤثرات . ومن هنا كانت النظرة الى الظواهر النفسية أو السلوكية على أنها اعادة استقرار لاتزان مضطرب ، أو انها خفض للتوترات الناشئة عن دوافع لم يدركها الاشباع (عند فرويد) أو ارضاء للحاجات (عند هل) ، أو انها تكييف نشط (عند سكينر) الى آخر هذه الافتراضات.

وقد كانت هذه الحاجات والدوافع والتوترات ذات طبيعة بيولوجية . وهي على ما يبدو عمليات ثانوية عليا في الانسان يمكن في النهاية ردها الى عوامل بيولوجية أولية مثل الجوع والجنس والبقاء .

وترتيبا على هذا كان من الممكن أن تزودنا الآلات ، والحيوانات ، والأطفال ، ومضطربو العقل بنماذج ملائمة لدراسة السلوك الانساني

وتفسيره ، فالآلات : لأن الظواهر السلوكية يمكن فى نهاية الأمر أن تفسر على أساس من الأبنية والتراكيب الشبيهة بالآلة للجهاز العصبى . والحيوانات : بسبب وحدة المبادىء وتطابقها فى السلوك الحيوانى والانسانى ، فضلا عن سهولة اخضاع السلوك الحيوانى للبحث التجريبى . والأطفال ، وشأنهم فى ذلك شأن الحالات المرضية، يمكن التعرف فيهم على العوامل الأولية على نحو أكثر وضوحا مما نجده لدى البالغين الأسوياء . كان البحث العلمى اذن موجها لكشف العناصر الأولية كالانطباعات الحسية ، والانعكاسات ، وعمليات التكييف ، والدوافع ، والعوامل ، بحيث أن ضم الواحد منها بجانب الآخر قد يزودنا بتفسير للسلوك المعقد .

ولقد أثبت نموذج الانسان الآلى ، لمجموعة متنوعة من الأسباب ، قصوره وعجزه . لذلك اتخذ الميل نحو توجيه جديد فى علم النفس تعبيرات مختلفة مثل علم النفس الارتقائى كضرب من نظرية معرفة نشوئية (من بياجيه) أو تخصص تقنمى (عند فرنر) ، فضلا عن تطورات فرويدية جديدة متعددة (مثل نظرية روجرز للعلاج المتمركز حول المريض) وتوكيد شاختل الفاعلية فى العمليات الادراكية) . كما ظهرت النزعات التى تسمى احيانا بعلم نفس « الأنا » ego ، أو « النظرة الجديدة » في الادراك ، أو التحقق الذاتى عند جولدشتيه وماسلوف ، أو نظريات الشخصية ، والاتجاهات الفينومينولوجية والوجودية ، أو المفهومات السوسيولوجية للانسان مثلما عند سوروكين وآخرين .

ورغم افتراق هذه التطورات فيما بينها من حيث القصد والمحتوى ، الا أنه يبدو أن قاسما مشتركا يجمعها ويؤلف بينها ، وهو أنها لا تتخذ من الانسان مجرد جهاز ذى ردود افعال ، أو جهازا ذاتى الحركة ، بل تعده نسقا لشخصية فعالة . وهنا يمكن ان تقدم نظرية الانساق العامة اطارا تصوريا عاما .

بعض مفهومات نظرية الانساق فى علم النفس :

يتبين مما سلف ان نظرية الأنساق العامة ليست كشفا علميا جديدا ينتسب الى علم او فئة معينة من العلوم بقدر ما هى نظرة شاملة تنتمى الى فلسفة علوم محدثة . فهى اذن لا تسعى الى عرض أفكارها على النحو الذى يبرز بمقتضاه كشف جديد مثير . بل هى بالأحرى قد أفلحت فى كشف قصور التصورات والمقولات التى تنتهجها النظرية أو البحث على السواء فى علم النفس ، تلك التصورات والمقولات التى اتخذت فى العلم على محمل التسليم من وجهة نظر وضعية ـ ميكانيكية ـ سلوكية . ولهذا كانت نظرية الأنساق جزءا من « اعادة توجيه » أو استراتيجية أكثر اتساعا وشمولا امتدت على رقعة فسيحة من علوم كثيرة مختلفة . فقد برزت مشكلات مماثلة فى تلك العلوم افضت الى اصطناع أدوات نظرية جديدة . ففى البيولوجيا نجد مثلا الاتجاه العضوى ، وفى العلوم الاجتماعية مسألة التنظيمات فوق الفردية ، وفي الميادين التطبيقية تكنولوجيا أجهزة الانسان ـ الآلة عندما تقارن بالتكنولوجيا الفيزيائية ، بل وحتى الفيزياء نجد التفاعلات المتعددة المتغيرات فى « التعقيد المنظم » فى مقابل العلية النيوتونية والتعقيد غير المنظم فى الظواهر الاحصائية . ففى أى من هذه التطورات بدت المشكلات التى تتعين على أساس من تصورات ومفهومات مثل « الكلية » ، والتنظيم ، والتوجه نحو هدف ، والترتيب التصاعدى ، والانتظام ، بدت هذه المشكلات على أنها مسائل محورية . ومثل هذه النظرة الجديدة لم تتجاهلها النظرة الميكانيكية التقليدية فحسب ، بل كانت منفية خارج اسوار ذلك الكون الميكانيكى .

وعلى هذا النحو يمكن أن تلقى تلك التساؤلات المطروحة من هذه العلوم المتباينة جوابا من « علم الانساق » .

وسنحاول هنا أن نجتزىء من النظرية ما يصلح أن يكون عرضا خاطفا لبعض مفهوماتها مطبقة على علم النفس .

١ ـ الكائن العضوى والشخصية :

على النقيض من القوى الفيزيائية مثل الجاذبية والكهرباء ، لا توجد ظواهر الحياة الا في كائنات متفردة individualized تسمى « كائنات عضوية » . والكائن العضوى نسق ، بمعنى أن ثمة نظاما ديناميا يقوم بين أجزائه وعملياته فى تفاعل متبادل . وبالمثل ، فان الظواهر السيكلوجية لا توجد الا فى كائنات متفردة تسمى فى الانسان شخصيات . ومهما يكن للشخصية من معان أخرى ، فلها خواص النسق .

والمفهوم « الكتلى » molar للكائن العضوى النفسفيزيائى بوصفه نسقا يتعارض مع تصور الكائن بوصفه تجمعا من الوحدات الجزيئية molecular مثل الانعكاسات والاحساسات والدوافع والعوامل .. الى آخر قائمة وحدات

التحليل التى يلجأ اليها الباحثون فى علم النفس، باتجاهاته التقليدية . غير ن علم النفس المرضى يكشف بجلاء عن الاختلال الوظيفى العقلى على أنه « اضطراب فى النسق » اكثر مما هو فقدان لوظائف منفردة .

٢ ـ الأنساق المغلقة والمفتوحة :

الكائن العضوى الحى نسق مفتوح ، اى انه نسق معتمـــد على مكونات مادية تتألف من ((وارد)) و ((صادر)) وتسعى الى البناء والهدم معا ، وذلك على نقيض الأنساق المغلقة فى الفيزياء التقليدية التى لا تتبادل فيها المادة مع البيئة .

ويمكن أن توجز سمات الأنساق المفتوحـة على الوجه التالى :

١ ـ الانساق المغلقة **((لابد))** (وفقا للقانون الثانى للديناميكا الحرارية) أن تبلغ فى نهاية الأمر حالة من التعـــادل او الاتزان حيث يبقى النسق ثابتا فى الزمان وتصل العمليات الفيزيائية الى « وقفة سكونية » . بينما الأنساق المفتوحة **((قد))** تصل ، مع افتراض شروط معينة ، الى « حالة الاستقرار » ، وفى هـــذه الحالة يبقى النسق ثابتا أيضا فى الزمان ، بيد أن العمليات تظل مستمرة ولا يبلغ النسق حالة « الراحة والسكون » قط .

٢ ـ تتعين حـــالة التعادل أو الاتزان التى تبلغها الأنساق المغلقـــة فى نهاية الأمر بشروط أولية ، بينما الأمر على النقيض من ذلك فى الانساق المفتوحة لأن حالة الاستقرار التى تصل اليهـا مستقلة عن الشروط الأولية ولا تعتمـد الا على أوضاع النسق وشروطه الخاصة (مثل معدلات النقل وردود الأفعال) .

وتسمى هذه الخاصة للأنساق المفتوحـة « بالغائية المتعـادلة » equifinality التى تفسر الكثير من انتظامات الانســـاق الحية ! حيث يحدث الكثير من العمليات المنظمة على نحو يبلغ بمقتضاه النسق الحالة القصوى او النهـــاية نفسها ، أو « الغاية أو الهدف » ذاته انطلاقا من شروط اولية مختلفة ، وبطرق متعددة عقب اضطرابات غير متعينة أو محددة .

ولأن مثل هذا السلوك مستحيل فى الأنساق المغلقـــة والآلات التقليـــدية ، فان « الغـــائية المتعادلة)) تبدو سمة ذات طابع او نزعة حيوية تنتهك القوانين الفيزيائية .. بيد انها نتيجـة لازمة لحالة الاستقرار فى الانساق المفتوحة .

٣ ـ تتجه الأنساق المغلقة نحو حالات النهاية القصوى لدرجة التعادل فى الطاقة (التى يفترضها القانون الثـــانى للديناميكا الحرارية) ، وهى الحالات المصطبغة بطابع الاحتمال وعـــــدم الانتظام . بينما الأمر على النقيض من ذلك فى الأنساق المفتوحـــة ـ أو العالم الحى ـ كما يتبدى فى النمو الضرورى وتطـــور الأنواع . فهناك دوما انتقال فى اتجاه حالات من رتبـــة أعلى يؤدى فيه التغير فى أفراد نوع الى تطورهم الى نوع آخر ، وهو اتجاه يبدو متعارضا مع القانون الفيزيائى على نحو ما يعبر عنه القانون الثانى للديناميكا الحرارية .

٤ ـ الكائن الحى العضوى الفعال :

الكائن الحى ليس نســـقا سلبيا ، بل هو نسق ايجابى فى داخله ، حتى دون مؤثر خارجى.

وقد أوضحت البحوث الحديثة أن النشاط الذاتى الحركة للنسق العصبى نشاط أولى . وكذلك في النمو الضرورى والتطور تبدو الآليات القائمة على ردود الأفعال (مثل الانعكاســات ودوائر التغذية المرتدة) على أنها مفروضة من أعلى على الأنشطة البدائية والأنشطة ذات الحركة الايقـــاعية . فالمثير (وهو تغـــير فى الشروط الخارجية) لا « يحدث » أو « يسبب » عملية فى نسق خامل ، بل هو فحسب يعدل ويحـــور من العمليات فى نسق ايجابى نشط وبطريقـــة ذاتية الحركة .

فالكائن الحى يحافظ على حالة من عـــدم الاتزان تسمى بحالة الاستقرار لنسق مفتوح ، مما يمكن من توزيع الطاقات الكامنة أو «التوترات» من خلال نشاط تلقائى وعن طريق اســـتجابة لمؤثرات محررة . والنشاط او الفاعلية التلقائية هو اكثر أشكال السلوك بدائية . فهى توجـــد فى وظائف المخ كما توجد فى العملية السيكلوجية. وقد أكد اكتشاف الانساق التنشيطية فى النخاع المستطيل هـــذه الحقيقة فى السنوات الأخيرة . فالسلوك الطبيعى اذن يضم انشطة وفاعليـــات لا حصر لها تند عن التصنيف فى النهج التقليدى « المثير ـ الاستجابة » R-S Schem ، ابتـــداء من الأنشطة البدائية عند الحيوان حتى الأنشطة الاقتصادية والعقلية والجمالية والدينية، والسعى نحو تحقيق الذات . والابداع لدى الانسان .



٥ ــ الاتزان الداخلى :

يستتبع مما سبق أن مفهـوم « الاتزان الداخلى » ــ وهو يتردد كثيرا فى علم النفس ــ يغطى السلوك الحيوانى بصورة جزئية فقط ، بينما لا يصح ذلك فى جزء جوهرى من السلوك الانسانى عن الاطلاق . وقد تيسر « لبولر » أن يعين حـدوده بمهارة فى قوله « بأن فى نمـوذج التحليل النفسى الأساسى ليس ثمة الا اتجـاه رئيسى واحد وهو الذى يمضى نحو اشبـاع الحاجات أو خفض التوترات .. وتؤكد نظريات البيولوجيا الراهنة أهمية تلقائية نشاط الكائن العضوى التى تعزى الى الطاقة الداخلة فى بنائه. وقد عنى برتالانفى بتوكيد أداء الكائن العضوى الذاتى الحركة ، ودافعه الى أداء حركات معينة.. فهنا تقدم المفهومات « مراجعة كاملة للمبـدأ الأصلى للاتزان الداخلى » الذى ألح فحسب على الميل فى اتجاه التفادل » .

ومهما يكن من أمر ، فان مبـدأ الاتزان الداخلى لا يقبل التطبيق على :

(أ) الانتظـامات أو الاطـرادات التى لا تؤسس على آليات ثابته بل تقوم فى نطاق أداء نسق يعمل ككل (مثل العمليات التنظيمية التى تحدث عقب الاصابات المخية) .

(ب) الأنشطة التلقائية .

(ج) العمليات التى لا تهـدف الى خفض التوتر بل الى رفعة .

(د) عمليات النمو والتطـور والخلق وما يماثلها .

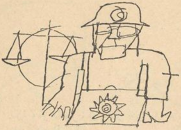
ويحق لنا القول بأن الاتزان الداخلى ليس مبدأ تفسيريا ملائما للأنشطة الانسـانية التى لا توصف بأنها نفعية ، أو تلك التى لا تخـدم الحاجات الأولية لحفظ الذات والبقـاء ومشتقاتها كما هى الحال فى الكثير من المظاهر « الثقافية » وذلك لأنها قيم رمزية أكثر ممـا هى قيـم بيولوجية .

٦ ــ التمايز :

التمايز هو التحول من حالة أكثر عمومية وتجانسا الى حالة أشد تخصصا وتغـايرا . فحيثما يحدث النمو فانه يتقدم من حالة عمومية نسبية ونقص فى التمايز الى حالة تمايز متزايد وتخصص وترتيب تصاعدى .

وينتشر مبدأ التمايز فى البيولوجيا ، وفى تطور الجهاز العصبى ، والسلوك ، وعلم النفس والثقافة . وتتقدم الوظائف العقلية بوجه عام من « حالة تلفيقية » syncretic حيث الدوافع والمشاعر والمخيلة والمفهومات فى حالة لم يتحدد شكلها الى حالة تتسم بالتميز والتفاضـل بين هذه الوظائف .

وفى الحيوان ، وفى جانب كبير من السلوك الانسانى هناك وحدة ادراكية ــ انفعاليـة ــ دافعية . والموضوعات التى يدركها الانسان دون



أن يميز فيها اللون الانفعالى ــ الدافعى انما هى تعبر عن مرحلة متأخرة للانسان الناضج المتمدين .

فلقد كانت الأسطورة هى العمـــاء الخصب الذى خرجت منه اللغـــة والسحر والفن والعلم والطب والأخلاق والدين بعد أن لحقتها تطورات حملتها على التمايز والتنوع والتخصص ، وقد نجد فى علم النفس المرضى وفى الفصام أن الحالات البدائية تعاود الظهـــور كضرب من النكوص والارتداد والمظاهر الشاذة (وهى تبدو شاذة بسبب الارتبــاطات العشـــــوائية بين العناصر البدائية ، وبين العمليات الفكرية الراقية) .

٧ ــ التمركز والمفهومات المتعلقة به :

ليست الكائنات الحيـــة آلات ولكنها يمكن ــ الى حد معين ــ ان تصير آلات ، أو تتجمـــد وتتقولب فى آلات . ولكن تحولها هذا الى آلات لا يمكن أن يكون تاما . ذلك لأن الكائن العضوى لو تحول تحولا تاما الى آلة mechanized لمـــا استطاع أن يستجيب للتغيرات التى تحـــدث خارجة بلا انقطاع .

فرد الكائن الحى الى الآلية يعنى فقدانا للامكانيات التى تتمتع بها مكوناته وضياعا لامكان الانتظام فى الكل .

وقد يؤدى الرد الى الآلية غالبا الى اقامة أجزاء رئيسية قائدة ، أى مكونات مسيطرة على سلوك النسق . ومثل هــذه المراكز قد تزاول « علية الزناد » التى تقابل مبدأ العلية القائل بأن « العلة تكافىء المعلول » حيث قد يســـبب تغير ضئيل فى الجزء الرئيسى ، عن طريق آليـــات التضخيم ، تغيرات واسعة فى النسق الكلى وعلى هذا النحو قد يشيد نظام تصاعدى للأجـــزاء والعمليات .

وفى المخ ، كما في الوظائف العقلية يحـــدث التمركز والنظام التصاعدى عن طريق التدرج . **حتى اتخذت الأجزاء العليا دور الأجزاء الرئيسية**

وثمة تدرج متواز لتدرج وظائف المخ وتطورها يمكن أن نشير اليه ــ دون تدقيق كبير ــ اذا ما خيرنا بين : مناطق الغـــريزة ، والدوافع ، والانفعالات ، والشخصية فى أعماقها البدائية .

ــ الادراك الواعى والفعل الارادى .

ــ الأنشطة الرمزية المميزة للانسان .

وما تزال التصنيفات والتقســـيمات التى لجأ اليها علمـــاء النفس للتمييز بين الوظائف السيكلوجية ورسم خريطة لمناطق النفس، ماتزال بعيدة عن الوضوح .

٨ ــ الحـــدود :

لابد لكل كائن مدروس أن يكون له حدود سواء كانت مكانية أو ديناميـــة . وبتعبير أدق لا توجد الحدود المكانية الا فى نطاق الملاحظـــة الساذجة ، بينما كل الحدود دينامية فى نهـــاية الأمر . فلا يمكن للمرء أن يرسم بدقة حدودا

لذرة ، أو لحجر ، أو لكائن حى (فى تبادل متصل للمادة مع البيئة) .

واشد الحدود اهمية فى علم النفس هو حد « الأنا » ، التمييز بين الذات والعالم الخارجى، أو بين الذات والموضوع . ويتكون هذا التمييز — مع المقولات المساعدة للمكان والزمان والعدد والعلية .. الخ — ببطء في عمليات التطور والنمو . فحد الأنا بتمايز ويتحدد من حالة ليست منقسمة فى الطفل الانسانى عن طريق عوالم خيالية موهومة وسابقة عن المنطق ومن المحتمل الا تكون مكونة تماما قبل أن تتدخل العمليات الرمزية .

وتفسر العمليات الرمزية انفتاح الانسان على العالم بمعنى أن عالم الانسان يتجاوز بصورة واسعة الروابط والأغلال البيولوجية ، بل وحتى حدود الحراس وقيودها .

(أ) الفاعليات الرمزية :

يقول « برتا لانفي » انه بعيدا عن الاشباع المباشر للحاجات البيولوجية ، فان الانسان يعيش فى عالم ليس مؤلفا من الأشياء بل من الرموز » . ويمكن القول بأن العوالم الرمزية المتعددة التى تميز الثقافات الانسانية عن المجتمعات الحيوانية هى جزء ، بل هى اكثر الأجزاء اهمية من نسق سلوك الانسان . والقول بأن الانسان حيوان عاقل أمر محل سؤال ، الا انه يقينا خالق للرموز ، وخاضع لها .

فسعى الانسان ليس مجرد تحقق للذات ، بل هو موجه نحو أهداف موضوعية وتحقيق للقيم .

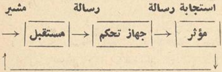
ومن الدقة أن نقول ، بالنسبة للوظائف الرمزية : « ان الدوافع فى الحيوان لا يمكن ان تكون نموذجا ملائما لدى الانسان » وان الشخصية الانسانية لا يتم تكوينها عند العام الثالث من عمر الطفل مثلما تزعم نظرية فرويد للغرائز .

فهذا اذن هو السبب فى استحالة رد السلوك الانسانى وعلم النفس واختزاله الى التصورات البيولوجية مثل استعادة الاتزان الداخلى وصراع الدوافع البيولوجية والعلاقات غير المشبعة بين الأم والطفل وما يماثلها من تصورات .

١٠ — النظرية العامة للانساق والسيرنطيقا :

تتعلق السيرنطيقا — اذا ما قصرنا انفسنا على الاطار المحدد سلفا — بفئة فرعية هامة ، ولكنها لا تقدر على استيعاب كافة الانساق . فالعنصر الأساسى فى السيرنطيقا هو نهج «التغذية المرتدة» . ففى النسق المستجيب لاضطراب من الخارج ، يعدد جزء من « المخرج » out put الى المدخل in put من أجل التحكم فى وظيفة النسق وادائه ، سواء للحفاظ على حالة مرغوبة أو لهداية النسق الى هدف . وفى التكنولوجيا كما فى الطبيعة الحية ، يمكن أن يكون لانساق التغذية المرتدة درجة من التعقيد ، غير أنه يمكن ان يحلل الى فقرات التغذية المرتدة loops وفقا لبرنامج التغذية نفسه .

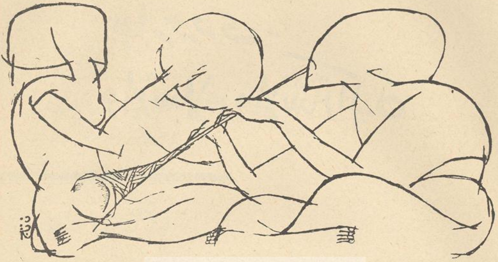
ويمكن أن تلاحظ الفروق بين السيرنطيقا والأنساق العامة من الشكل :



التغذية المرتدة

فالانتظام الخاص بالتغذية المرتدة ذو علية خطية وواحدية الاتجاه (على الرغم من أنها دائرية) .

بينما الانتظام فى الأنساق (وخاصة المفتوحة) قائم على تفاعل بين متغيرات متعددة .



والانتظام فى السبيرنطيقا مؤسس على ترتيبات مقررة سلفا (أبنية وتركيبات بمعناها الواسع) بينما يقوم فى الأنساق على التفاعل الدينامى .

والانتظامات التى تحققها آليات التغذية المرتدة يمكن بصفة عامة أن تندرج تحت مفهوم « الاتزان الداخلى » . والانتظامات القائمة على الاتزان الداخلى، والانتظامات الدينامية نموذجان متحالفان ، ولكنهما مختلفان ويطبقان على ظواهر مختلفة وقد يطبقان أحيانا على نفس الظاهرة .

والاتزان الداخلى ، مبدأ متزامن synchronic بمعنى أنه يشير الى الحفاظ على الثبات في قطاع معين من الزمن . الا أن هناك رغم ذلك مبادىء ارتقائية أو diachronic . ولقد أصبحت قاعدة تجريبية مقررة تلك التى تقول بأن الأنساق الحية ، والتطورية ، والسيكلوجية ، والاجتماعية وغيرها انما تتجه الى المزيد من التمايز والتنظيم . ومثل تلك العمليات التى تتعارض مع مبدأ درجة التعادل فى الطاقة anti-entropic وفقا للديناميكا الحرارية التى لا تقبل العكس أو القلب ، مثل تلك العمليات مسموح بها فى الانساق المفتوحة ، ولكنها فى الوقت الراهن لا تتضمن قانونا يشير الى اتجاهها .

وقد يغدو من الممكن فى المستقبل اقامة تكامل بين الديناميكا الحرارية التى لا تقبل العكس ، وبين نظرية المعلومات (السبيرنطيقا) بحيث تسمح بفهم أعمق للمشكلة الرئيسية لل anamorphosis » .

جارودى .. والإسلام والاشتراكية

محمود إسماعيل عبد الرازق

لاشك فى أن محاضرة الاستاذ **روجيه جارودى** هذه تنطوى على كثير من الآراء التى تثير عديدا من القضايا .. وجدير بالملاحظة أن الروح التى ألقيت بها المحاضرة ، والتعقيبات التى تلتها تمثل ظاهرة صحية فى كيفية تناول قضايانا المعاصرة . **فعلى الرغم من حساسية الموضوع ، وما قد يؤدى اليه الخوض فيه من مزالق ، كانت المحاضرة والتعقيبات على السواء محاولة جريئة لتخطى مرحلة الحذر والرهبة التى أحاطت بأساليب معالجتنا لقضايانا الحيوية .**

والواقع أن التوفيق لازم المحاضر فى كثير من آرائه وتخريجاته ، لكنه جانبه فى أحيان أخرى . ولا أحسب أنى قائل القول الفصل فى قضية ؛ فهذا مالا أدعيه قط . لكنه اجتهاد ليس الا .. **لقد تضمنت المحاضرة تفسيرا مقنعا لجوهر الجوانب الانسانية فى الفكر الاسلامى ، وبالتالى انسحب هذا الاقناع على تفسير النجاح الواسع الذى أحرزته الفتوحات الاسلامية ، والانتشار العريض للدعوة الاسلامية كعقيدة ونظام فى آن واحد . كما قدم الاستاذ جارودى حججا دامغة على براءة الاشتراكية العلمية من المقولة المتواترة « الدين أفيون الشعوب »** ، ونفى **كل تناقض بين الايمان بالله والاشتراكية ، وانتهى الى التقاء الاسلام بالاشتراكية العلمية فى منطلقهما الانسانى .**

ولا ينصب النقد الذى سنوجهه فى هذا المقال على مبدأ الالتقاء بين الاسلام والاشتراكية ، بل ينصب على نوع الادلة والبراهين المتعسفة التى قدمها جارودى لعقد مصالحة بين الماركسية والاسلام .

وأكاد أتصور تشابها بين ماذهب اليه الاستاذ جارودى فى هذا الصدد وبين ما حاوله البعض — فى سذاجة — من **اثبات ان المجتمع الشيوعى المثالى الذى تصوره ماركس هو بعينه «جنة الفردوس» التى وعد الله بها عباده الابرار** . فقد انفتح على الفكر الاسلامى والتاريخ الاسلامى — بتراثه الطويل — وأخذ يتصيد من البراهين والشواهد ما يقيم به الدليل على ما أزمع اثباته . فراح يلتمس مقولة فيلسوف ، أو موقف حاكم ، وينقب عن مأثور لمشرع أو قومة لجماعة ؛ شذرة من هنا، ونتفة من هناك ، ثم حشد محصلة أمثلته المنتقاه ليقرر فى النهاية صلحا بين الماركسية والاسلام ، بعد أن كان قد انتهى من نفس المهمة بالنسبة للماركسية والمسيحية . ومن يدرى فلربما توجهت « **مساعيه الحميدة** » فى المرة القادمة لعقد نفس المصالحة بين الماركسية وعبادة العجل أبيس .

أعود لمناقشة القرائن الثلاث الاساسية التى جعلها الاستاذ جارودى محور مشروعه ومبرر مصالحته ، لكن لا بد أولا من اثبات تحفظات أربع:

● إن اصطناع الأستاذ جارودى وفاقاً بين الفكر الإسلامى والماركسية اعتماداً على فلسفة ابن رشد وتجربة الشيوعية القرمطية ، وفكر ابن خلدون الاجتماعى ينطوى على تعسف يرفضه العلم وترفضه الماركسية ، ولا يقبله الإسلام .

(أولا) أن رفض مبدأ المصالحة من أساسه لا يعنى تعصبا من جانبى للاسلام ، أو انحيازا للماركسية ؛ بل مبعثه عدم استناده على أساس موضوعى وهو منطق مرفوض بداهة فى نظر الماركسية ، كما يتعارض مع طبيعة الفكر الاسلامى وواقع التاريخ الاسلامى ·

(ثانيا) ليس فى التناقض بين الاسلام والماركسية ما يوحى بتعارض فى تعاليم الاسلام مع الفكر والتجارب الاشتراكية · ففضلا عن الروح الاشتراكية التى تتضمنها العقيدة الاسلامية نعلم أن المجتمع الاسلامى شهد أنماطا من السلوك الاشتراكى المتسق مع جوهر الشريعة الاسلامية على الرغم من كونها خلوا من نظرية متكاملة فى الاشتراكية ·

(ثالثا) ومن ناحية أخرى لا يعد هذا التناقض دليلا على جمود فى الفكر الماركسى وقصور فى قدرته على استيعاب ماعداه من الصياغات الفكرية الانسانية ، ذلك لأن المنطق الجدلى «الديالكتيك» بمرونته وحيويته قادر على الاتساق مع هذه الصياغات ، دون ما ضرورة لاحتوائها أو الانصهار فيها ··

(رابعا) نحن لا نختلف مع الاستاذ جارودى حول صحة القرائن الثلاثة التى ساقها تدليلا على مصالحته بين الاسلام والماركسية من حيث انطوائها على فكر اشتراكى أو عقلانى أو تضمنها لتجربة فى الاشتراكية الطوبوية · وانما نقول بأن هذه الامثلة لا تعبر أبدا عن حقيقة الفكر الاشتراكى ولا عن جوهر التجارب الاشتراكيه فى المجتمع الاسلامى · وما نود تأكيده ــ **كمحور للخلاف مع الاستاذ جارودى** ــ أنها لم تزد عن كونها نغمات ناشزة رفضتها الشريعة ولفظتها جمهرة المسلمين· أعنى أنها أفكار دخيلة على الفكر والواقع الاسلامى نتيجة الاتصال بالتراث الهللينى والشرقى وليست من مؤصلاته بأى حال من الأحوال . لقد نجم من الاتصال بالحضارات القديمة أن تعرض الاسلام لموجة مضادة من التيارات الفكرية الدخيلة فى محاولات لهدمه كعقيدة وفكر ونظام . **ففى الجانب السياسى تمثلت هذه الموجة فيما هو معروف بحركة الشعوبية . ومن الناحية الدينية تبلورت فى حركات الزندقه عن طريق تطعيم العقيدة الاسلامية بالنحل والعقائد الهدامة** . كما لم يسلم الفكر الاسلامى ــ وبالذات فى جوانبه الفلسفية ــ من المؤثرات الهيللينية وخاصة الفلسفة الأرسطية والأفلوطينية المحدثة . والذى نعتقده أن الأستاذ جارودى انتقى قرائنه الثلاث من نتاج تأثير هذه التيارات المعادية ..

يقول الاستاذ جارودى : « **ان التقاليد**

الكبيرة والسامية التى تمتلكها تلك البلاد فى مضمار التاريخ الاسلامى والثقافة الاسلامية سواء عن الاشتراكية الطوباوية التى اعتنقها القرامطة أو الفلسفة العقلانية التى يدين بها ابن رشد أو علم الاجتماع الذى درسه ابن خلدون. ان تلك التقاليد تستطيع أن تلعب فى نمو الاشتراكية العلمية هذا الدور الذى لعبه فى بلادنا كل من هيجل وريكارد وسان سيمون .

وعن اشتراكية القرامطة يقول : « **ان أشكال الاشتراكية ذات الخاصية الاسلامية نشأت امتدادا للنظام الضرائبى المعروف بالزكاة ، كما نشأت من مفهوم القرآن عن الملكية المبنية على العمل . فعلى سبيل المثال أنشأ حمدان قرمط سنة ٨٦٥ م في العراق مذهبا جديدا منطلقا من مبدأ الزكاة ، فطالب أنصاره بأن يدفعوا ضريبة أخذت ترتفع باطراد مبتدئا بالصدقات الكبيرة ثم بخمس الثروة ، وأخيرا بكافة الممتلكات التى كانت توزع حسب الاحتياجات** » .

ويسوق الاستاذ جارودى **ابن رشد** كمثال على التوفيق بين الدين والفلسفة ، وينسب اليه « **التوصل الى النظريات الأساسية فى المادية الجدلية نفسها** » . ويضيف أن ابن رشد قال بالطبيعة الأزلية للمادة والحركة « **فالحركة أبدية ومستمرة ، والسبب فى كل حركة حركة سابقة عليها ، ولا محل للزمان دون الحركة ، ولا نستطيع ان ندرك الحركة ببداية لها ونهاية ..** » .

أما **ابن خلدون** وفكره الاجتماعى فلم يذكر جارودى عنه شيئا . ونحن نرى أن حركة القرامطة فى بلاد البحرين بدأت كحركة تدعو لامامة **اسماعيل بن جعفر الصادق** ، ومن هنا فهى حركة سياسية دينية شيعية . ولكونها تضم جموع الفلاحين المظلومين ـ فكلمة قرامطة



د. جارودى

تعني فلاح كما يذهب المستشرق **ايفانوفا** - اتخذت طابعا اجتماعيا أيضا . أعنى اتسمت بلون ثورى وصبغة شيوعية ومعارضة شديدة للدين الاسلامى . فهى اذن حركة دينية اجتماعية فى آن واحد ، وارتباطها بالدعوة الشيعية الاسماعيلية يؤكد وجود مؤثرات أجنبية فيها . فيذكر **أوليرى دى لاس** فى كتابه **« الفكر العربى ومكانه فى التاريخ »** أن هذه الفرقة - الشيعة - تشكلت خطوطها العامة من مذهب **أرسطو** والأفلاطونية المحدثة مضافا اليها بعض العناصر الشرقية المأخوذة من الزرادشتية والمزدكية .. وفى ذلك ما يدل على أنها ليست تجربة اسلامية أصيلة ، وحسبنا أن القرامطة استهانوا بالمقدسات الاسلامية وحرمة المسجد الحرام فأغاروا على مكة سنة ٣١٧ هـ ونهبوا الحجاج وقتلوهم فى المسجد الحرام « وقلعوا باب البيت وقبة زمزم والحجر الأسود واخذوا كسوة الكعبة ومزقوها فيما بينهم » كما يقول **ابن الأثير** وقد أثار هذا الحادث غضب العالم الاسلامى برمته ، حتى الشيعة أنفسهم لدرجة أن عبيد الله المهدى امام الفاطميين كتب الى ابى طاهر القرمطى **« والعجب من كتبك الينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم اراقة الدماء فيها واهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر .. فلعنك الله ثم لعنك .. »** (انظر الانصارى : درر الفوائد المنظمة حـ ١ ص ١٩٦) .

وعلى ذلك فليس من المقبول أن يتصيد الأستاذ جارودى تلك الحركة المعادية للاسلام ويتخذ منها دليلا على تجربة اسلامية خالصة فى تطبيق نمط اشتراكى طوبوى .

وينسحب هذا القول على اختياره لفلسفة ابن رشد العقلانية مبررا التوفيق بين الاسلام والماركسية. فبديهى ان الفكر الفلسفى الاسلامى



كان متأثرا بدرجة كبيرة بالفلسفة اليونانية ممتزجة بالأفلوطينية الجديدة ، فهى اذن فلسفة تجريدية تأملية . وحين تطورت اتخذت جناحين متناقضين أحدهما علمى تجريبى كما هو الحال بالنسبة لابن سينا والرازى وجابر بن حيان والبيرونى ، والآخر صوفى حدسى يمثله **الغزالى** أصدق تمثيل ، وهو التيار الذى ساد ما عداه من الروافد الفلسفية الاخرى . وجدير بالذكر أن التيار الصوفي الحدسى يتعارض تماما مع المنطق الجدلى القائم على أساس أن التناقض هو نسيج الاشياء وان الشىء يمكن أن يكون هو ونقيضه فى نفس الوقت ، وان الاشياء تتفاعل وتتلاحم ليحدث التغيير الذى هو أساس الوجود . وهذا عكس المنطق الارسطى الشكلى القائل بأن التغيير أمر لا يدرك وان الشىء لا يتحول الى غيره ، فهو منطق استاتيكى يتسم بالثبات والجمود والتجريد . وبالنسبة لابن رشد فقد حاول التوفيق بين الفلسفة والدين وخاصة فى مؤلفه : « **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال** » ، لكنه اشتط ولم يوفق واضطره الاخذ بارسطو الى الزندقة والالحاد فأنكر الخلود والبعث .. واذا كان ابن رشد يعد بحق من وجهة النظر الحديثة – أعظم فلاسفة الاسلام ، فانه فى الواقع لم يزد عن كونه شارحا لتعاليم أرسطو ومفسرا لها ، بل انه تأثر فى ذلك بجهود أسلافه ومعاصريه وخاصة **الكندى والفارابى** وغيرهم ممن سبقوه الى الفلسفة الأرسطية . وفى نظر معاصريه كان ابن رشد كافرا زنديقا ينتسب الى أوروبا والفكر الأوربى أكثر من أنتمائه الى الاسلام والفكر الاسلامى ، على حد تعبير **ارنست رينان** المتشرق الفرنسى . لقد كان ابن رشد تلميذا مخلصا لأرسطو عارض تعاليم المتكلمين وعلماء التوحيد من أهل السنة، وعادى أفكار عصره ونقم عليها لمنافاتها للأرسطية. وحسبنا أنه كتب « **تهافت التهافت** » ردا على مؤلف الغزالى « **تهافت الفلاسفة** » الذى ألفه لتعضيد السنة ومؤازرة الالهيات الاسلامية فى مواجهة الفكر الأرسطى الغازى ، باحلال الحدس والوجد محل العقل ، وابدال المنطق الصورى بالتصوف الذى به تسمو النفس الى عالم الحقائق .

كان ابن رشد – حقيقة – غريبا عن عصره معاكسا له غير معبر عنه ، بل كان منبوذا ملفوظا مارقا على الدين . فكيف اذن يتسنى لجارودى أن يضرب به المثل ويتخذه أحد الدعامات الثلاثة التى بنى عليها مصالحته » . ولا يغفر له ذلك كون ابن رشد – حسب زعمه – قد توصل الى أساسيات المادية الجدلية . فما ذكره ابن رشد فى هذا الصدد متعلقا بفكرة الحركة والزمان والمكان ذكره أرسطو فى الكتاب الرابع والخامس والسابع من الطبيعيات التى ترجمها **حنين بن اسحق** (انظر دى لاسى : الفكر العربى ومكانه فى التاريخ ص ١٥٢) ولم يكن من نتاج فكره الخالص بأى حال من الأحوال .

أما الدليل الثالث الذى أقامه الأستاذ جارودى فهو فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . ولا نعلم لماذا أغفل جارودى التعريف بهذه الفلسفة كما فعل بالنسبة لتجربة القرامطة ، وعقلانية ابن رشد . والذى نود ايضاحه ان ابن خلدون – حقيقة – كان صاحب فضل كبير في تطور الدراسات الاجتماعية ، لكن يخيل الينا أن هذا الفضل مبالغ فيه بدرجة جعلت البعض يعتبرونه مؤسس العلم وواضع مناهجه ، وربما تأثر هؤلاء بما قاله ابن خلدون نفسه « **فلم يقف على الكلام فى موضوعاته لأحد من الخليقة** » .



لكن هذا القول ينطوى على تجن بالغ على دراسات ارسطو التى لابد ان يكون ابن خلدون قد عرفها وتاثر ببعضها (انظر . د – مصطفى الخشاب : تاريخ التفكير الاجتمـــاعى وتطوره ص ٧٣) . وفضلا عن ذلك فان ابن خلدون لم يستطع ان يطبق ما وصل اليه من قوانين الظواهر الاجتماعيه على دراساته التاريخيه . وحتى هذا القــانون الذى وصل اليه لا يمت بصلة الى المادية الجدليه بل هو اقرب الى « البيولوجيه التطورية » التى قال بها هربرت سبنسر فقانون الأطوار الثلاثه للمجتمع الانسانى – طور النشأة والتكوين ، ثم طور النضج والاكتمال واخـــيرا طور الهـــرم والشيخوخة – محكوم فى نظر ابن خلدون بالدين ، فالدول العامة الاستيلاء العظيمة أصلها الدين وأن الدعوة الدينية تزيد الدوله فى أصلها قــوة على العصبية ، والدولة لها أعمار طبيعيــة كما للأشخاص » هذه النظرة تعمق الهوة بين فكر ابن خلدون وبين المادية الجدلية بصورة لا تحتمل الجدل . وحسبنا عدم استفادة ابن خلدون من منهجه هذا فى دراساته للتاريخ الاسلامى التى تحفل بالأخطاء والتفسيرات الحافلة بالخوارق والســحر والثيولوجيا والميتافيزيقا الأمر الذى يجعل مجرد المقارنة بين فكره والفكر الاشتراكى العلمى ضربا من الاســـتحالة .. فلم يكن ابن خلدون ايضا نبضا للفكر العربى فى عصره شأنه شأن ابن رشد ، بل حسبنا حقده على العرب ووضعه اياهم فى منزلة الشعوب المتخلفة البدوية التى لا تعرف الحضارة .

ان اصطناع الاســـتاذ جارودى وفاقا بين **الفكر الاسلامى والماركسية اعتمادا على فلسفة ابن رشد وتجربة الشيوعية القرمطية وفكـــر ابن خلدون الاجتماعى ينطوى على تعســف يرفضه العلم ، وترفضه الماركسية ولا يقبله الاسلام .**

وينسحب نفس منهجه على المثــل الذى ضربه تدليلا على وجود فكر دينى اشتراكى علمى فى مصر فى القرن التاسع عشر ممثل فى **رفاعة رافع** الطهطاوى . واذا كان المجال لا يتسع لتوضيح فكر رفاعة فحسبنا القول بأنه لم يكن اشتراكيا فى قليل أو كثير ، ولا يعنى تعرضه لمشكلة فائض القيمة فى كتبه ما يقيم الدليل على اشتراكيته . ان الذى يطالع كتابيه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » و « مناهج الالباب المصريه فى مباهج الاداب العصريه » يستطيع ان يقرر حقيقه لا لبس فيها وهى ان الطهطاوى لم يكن الا عارضا لما وقف عليه فى اوربا – وخاصة فى فرنسا – من تيارات فكرية تقدمية اعجب بها جميعا على اختلافها وتناقضاتها . فهو ليبرالى أحيانا حين يعرض للفكر الليبرالى . راديكالى احيانا اخرى حين يسرد الفكر الراديكالى ، يبدى اعجـــابه بالاشتراكية ويشيد بها حـــين يطـــالع الفكر الاشتراكى .. الخ وحسبنا انه فى الوقت الذى تحدث فيه عن مزايا الاشـــتراكية كان يناصر سلطة الدولة فى مصر ويدعمها استنادا الى فكر **مونتسكيو** . لم يكن الطهطـــاوى اشتراكيا لا فى فكره أو سلوكه فهو من أصحاب الاقطاعيات .. كان مثقفا مسلما انفتـــح على التيارات الفكرية الأوروبية المعاصرة فأعجب بها دون أن يأخـــذ أو يعتنق ايا منها . واذا كان لابد من تقييمـــه بشكل عام فهو أميل الى أن يكون ليبراليا وليس اشتراكيا كما يذهب الأستاذ جارودى ..

قصارى القول أن الاتساق والاتفاق والمصالحة الذى اصطنعه الأستاذ جارودى بين الاســـلام والماركسية هو اتساق متعسف واتفاق على غير اساس ومصالحة مرفوضة من الجانبين الاسلامى والماركسى .

محمود اسماعيل عبد الرازق

بين التعبير الأدبى والتفكير الفلسفى

ولسنا نقصد هنا الفلسفة بمعناها الدقيق ، وانما بمعناها الشائع المتسامح الذى يشمل الأفكار ذات الأهمية النسبية أيضا .

والآراء تختلف اختلافا بينا حول العلاقة بين الأدب والفلسفة بصفة عامة . فمعظم النقاد مثلا يتجهون عادة الى البحث عن مغزى ، أو فلسفة معينة فى هذا العمل الأدبى أو ذاك ، ومن ثم فكثيرا ما تقود مناقشتهم للأعمال الأدبية الى بعض التقارير او الأحكام العامة فمثلا «السمان والخريف» تقدم لنا فكرة « عدم الانتماء » أو فكرة « الغربة المحلية » ، أما « تاجر البندقية » فانها توضح لنا أن « أعظم ألوان العدل هو أقساها عقوبة » .. وهكذا .

كذلك يقرر البعض ـ العقاد مثلا ـ أن « المفهوم المعهود أن شعراء الأمم الفحول كانوا من طلائع النهضة الفكرية ورسل الحقائق والمذاهب فى كل عصر نبغوا فيه » ، بل ان « الأدب ليؤخذ فى معظم الأحيان على أنه ضرب من الفلسفة » ، كما يذكر رينيه فليك ف « فى كتابه « نظرية الادب » .

ومن جهة أخرى فان بعض الدارسين يغض من شأن الصلة بين الفلسفة والأدب أو يسخر منها ، فالناقد الانجليزى الكبير سى . ا س . لويس فى كتابه « تجربة فى النقد » يقرر أن « كثيرا من ألوان تفسير الحياة التى يستخلصها الناس من أعمال شكسبير كان من الممكن أن نتوصل اليها مواهب متوسطة جدا دون الحاجة الى شكسبير » .

أما الناقد ، ومؤرخ الفلسفة الامريكى **جورج بوص** فيقرر ان الأفكار فى الشعر تكون عادة بالية وزائفة ، وانه لا يوجد انسان تخطى السادسة عشرة من العمر يؤمن بأن قراءة الشعر لمجرد ما فيه من فكر هى أمر يستحق اهتمامه .

ومع ذلك فلا شك ان دراسة تاريخ الفلسفة وفهم النظريات الفلسفية المختلفة والتعرف على الأفكار الكبيرة من شأنه أن يعمق نظرة كل من الاديب والناقد، وان يوسع آفاقهما ويثرى كتاباتهما هذا الى أن دراسة كهذه ستساعد ولا شك على على القاء كثير من الضوء على الأعمال الادبية فى العصور المختلفة . ويكفى أن نشير مثلا الى ان المئات من أمثال هذه الابيات الجميلة للحلاج لا يمكن أن تفهم حق الفهم الا بعد المام كاف بمفاهيم « **الفناء** » و « **الحلول** » **والاتحاد**» عند الصوفية ، وهى مفاهيم تضرب بجذورها الى فلسفات وديانات مختلفة من أهمها الهندية القديمة والافلاطونية الحديثة والمسيحية ، وذلك

● ان دراسة تاريخ الفلسفة ، وفهم النظريات الفلسفية المختلفة ، والتعرف على الافكار الكبيرة من شانه ان يعمق نظرة كل من الاديب والناقد

● الحقيقة الفكرية أو الفلسفية ليست لها قيمة فنية في حد ذاتها ، والعمل الفنى لا يسمو بسمو مادته وانما بالطريقة التى شكلت بها هذه المادة .

د . حمدى السكوت

على الرغم من ان النظرة المتسرعة قد لا تلاحظ أن وراء الأبيات فكرا عميقا ، والأبيات هى : —

أيها القانص ما أحسنت صيد الظبيات
قال قم وافعل خيرا من أداء الصلوات
قلت دعنى يا عذولى ليس ذا وقت الصلاة
أنا مشغول بطاسى وبكاسى وسقاتى
آه منهن لقد أفسدن حجى وزكاتى
اقتلونى يا ثقاتى ان فى قتلى حياتى
ومماتى فى حياتى وحياتى فى مماتى

كذلك لا يمكننا أن نفهم شعر **محيى الدين ابن عربى** فى الحب الا اذا عرفنا فلسفته حول الخيال وعلاقته بالحب ، وعدم تعلق الحب الا بالمعدوم الذى لم يتحقق ، وآراءه حول الحب الانسانى والحب الالهى ، وهى آراء متأثرة بفلسفات مختلفة ونفس الحكم ينطبق — الى جانب شعر التصوف — على الكثير من قصائد **بشار وأبى نواس وأبى العتاهية وأبى العلاء وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة وغيرهم** ، اذ هؤلاء الشعراء لا يمكن أن يوفوا حقهم من الدراسة دون الرجوع الى الفلسفات الفارسية والهندية واليونانية والأفلاطونية الحديثة كل فيما يخصه ·

ولكن هذا لا يمنعنا من أن نقرر ان اندفاع الناقد وراء الأفكار الفلسفية وتحمسه لها كثيرا ما يؤدى به الى عزل بعض عبارات العمل الادبى من سياقها أو الانحراف بنقده فى طريق خاص تغفل معه جوانب فنية هامة وكثيرة ، لكى يتلاءم العمل فى النهاية مع فكرة فلسفية ما أو مذهب جمالى معين · وعناوين مثل « **الواقعية الوجودية فى السمان والخريف** » أو « **الرومانتيكية فى العصر الأموى** » ليست بعيدة عن الأذهان ·

كذلك قد يلجأ بعض الدارسين الى التقاط أفكار معينة واعتبار كل منها « روح العصر » بالنسبة لفترة ما (على غرار ما كان يفعل كثير من الدارسين الالمان) ، ثم يأخذ فى تفسير كل الأعمال الأدبية التى ظهرت فى تلك الفترة على ضوء روح العصر هذه · والنتيجة أن يحتفى هذا الدارس بكل النماذج الأدبية التى تمثل — أو يعتقد أنها تمثل — « **روح العصر** » هذه ، ويغفل النماذج الاخرى التى قد تكون أكثر كمية وأهمية وفنا من تلك النماذج المحتفى بها · وهكذا فنحن لا نصل من وراء هذه الدراسة لا الى فهم النص الادبى وتقويمه ؛ لأن النصوص فى هذه الحالة تستخدم عادة كشواهد فقط ، ولا الى صورة متكاملة للعصر ككل أو للأدباء كأفراد ·

كذلك فان تحمس الشاعر او الكاتب للفكرة

الكبيرة ، واندفاعه لتقديمها بصورتها « الخام » كثيرا ما يؤدى بدوره الى التضحية بالعمل الفنى ذاته والانحدار به الى شكل لا هو فلسفى صحيح ولا هو أدبى صحيح . فبعض أشعار ابن سينا أو أبى العلاء مثلا لا تعدو أن تكون نظما لبعض الافكار الفلسفية التى كانت شائعة بين الأوساط

الاخرى غير الشعر ، فكثيرا ما تكون الافكار الفلسفية - أو بالاحرى الطريقة التى تعرض بها هذه الأفكار - هى نقطة الضعف فى العمل الادبى فلا شك أن اهتمام كاتبنا الكبير **توفيق الحكيم** بفكرته عن « **الانسان والزمن** » فى مسرحية « أهل الكهف » أو بفكرته عن « الانسان والمكان»



المثقفة فى عصرهما ، وهى من هذه الزاوية لا تتفوق كثيرا على نظم الشاعر العباسى ابان بن عبد الحميد لكتاب « كليلة ودمنة » ، أو حتى نظم ابن مالك لقواعد النحو والصرف .

ولا يختلف الوضع كثيرا بالنسبة لفنون الأدب

فى مسرحية « شهر زاد » ، لا شك ان هذا الاهتمام قد قاد المؤلف الى التضحية ببعض العناصر الفنية الحيوية بالنسبة للتأليف المسرحى (كرسم الشخصيات مثلا) فى سبيل ابراز فكرته ، والنتيجة ان العمل جاء ضعيفا من الناحية الفنية

وهى الناحية التى يجب أن يحرص الفنان على سلامتها أولا ، اذ من الواضح أننا لا نستطيع أن ننظر مثلا فى فلسفة النحات فى الحياة الا اذا توفر لما نحته شكل التمثال فعلا . أما اذا لم يبرز ما نحته أمام أعيننا تمثالا حقيقيا ، فاننا لن نعنى فى هذه الحالة بفلسفته فى الحياة بالغة ما بلغت هذه الفلسفة من العمق .

وقل نفس الشىء بالنسبة للرواية . وهنا أيضا يحضرنى مثال من أعمال **توفيق الحكيم** هو رواية « **عصفور من الشرق** » ، فلا شك ان الجزء الثانى من هذه الرواية ، وهو الجزء الذى يدور حول « **روحانية الشرق ومادية الغرب** » (سواء كانت هذه الفكرة فى حد ذاتها مصيبة أم مخطئة) لا شك ان هذا الجزء من الناحية الفنية أضعف بكثير من الجزء الاول الذى يمتعنا بطرافته وبساطته والاستغلال البارع لعنصر المفارقة فيه ، حين يصور لنا حب « محسن » الشاب المصرى الذى لم يتعرف بعد على طريقة الحياة الغربية لفتاة باريسية حسناء على الطريقة الشرقية .

ان نقطة الخطر تكمن فى أن كثيرا من الادباء والنقاد ـ اراديا أو لا اراديا ـ يميلون الى الاعتقاد بأن العمل الادبى يسمو **بقدر** ما فيه من أفكار **كبيرة ، فكلما كبرت الافكار** فى **العمل الادبى كان عملا عظيما وكلما قلت أو** كانت غير عميقة كان **عملا ثانويا قليل الاهمية . وهذا الاعتقاد بين الخطأ** ولو صح لفضلنا الجزء الثانى من مسرحية «**فاوست**» ـ وهو الجزء الذى يطور فيه جوته كثيرا من أفكاره حول « الميثولوجيا » والتطور الثقافى والفنى .. الى غير ذلك من موضوعات « **العالم الكبير** » ـ على أهم أعمال «**شكسبير**» ، لأن هذه الاخيرة لا تقدم لنا بصفة عامة فلسفات عميقة ، أو أفكارا تعجز الموهبة « **المتوسطة جدا** » ، على حد تعبير لويس، عن الاتيان بها . ولو صح كذلك لفضلنا فى أدبنا العربى رواية « **عصفور من الشرق** » أو النصف الثانى منها على الجزء الاول من ثلاثية **نجيب محفوظ** « **بين القصرين** » ، وهو الجزء الذى لا يناقش أفكارا فلسفية ، وهذا ما لم يقل به أحد . ان العامل الحاسم هنا هو الطريقة التى تعرض بها هذه الافكار وليس الافكار نفسها . وكلنا يعرف الضجة الكبيرة التى أقامتها مدرسة الديوان أو مدرسة **العقاد وشكرى والمازنى** حول شعر « **المناسبات** » السياسية والاجتماعية عند **شوقى وحافظ** وغيرهما . ومع ذلك فقصيدة الشاعر المعاصر **صلاح عبد الصبور** « **حول مأساة دنشواى** » لا تفضل ـ فى رأيى ـ بعض القصائد التى نظمها **شوقى وحافظ** حول نفس « **المناسبة** » فقط ، ـ كما يشير النقاد عادة ـ وانما تفضل « **وهى من شعر المناسبات** » الكثير من شعر أعضاء « **مدرسة الديوان** » الغنى بالافكار الكبيرة أيضا .

وتجرنا هذه المناقشة الى سؤال لا يبدو أن الاجابة عليه واضحة فى أذهان الكثيرين منا ، وهو **كيف يعبر عن الأفكار بطريقة صحيحة فى العمل الأدبى ؟ وهل مجرد نثر بعض الأفكار الفلسفية أو غير الفلسفية فى العمل بصورتها « الخـام » يعنى أن هذه الافكار قد عبر عنها بصورة فنية ؟** والجواب طبعا ليس بالايجاب . ولعل هذا هو السر فى ضعف بعض الامثلة السابقة من الناحية الفنية . اذ ان هذه الامثلة قد اعتمدت بصفة أساسية على الأفكار ، الأفكار التى لم يحسن التعبير عنها ، لأنها ظلت محتفظة بطابعها العادى المباشر والمألوف ، ولهذا فقد انحدرت بالعمل الى أسلوب أشبه بأسلوب المقالة منه بأسلوب العمل الروائى أو المسرحى أو الشعرى . أما اذا أردنا أن نعبر عن الفكرة تعبيرا فنيا ناجحا فاننا يجب أن نعرضها بحيث تبدو وقد تخلت عن هذا الطابع المباشر والمألوف ، وذلك بأن تتجسد فى شكل مادى من الاشخاص والتصرفات والأحداث والمواقف التى هى فى وقت واحد ضرورية لبناء العمل ، متحدة بنسيجه ، وطبيعية ومقنعة فى مواضعها . **وبالاختصار يجب أن تستشف الفكرة من العمل ، وأن يوحى بها ايحاء سواء عن طريق الرمز أو الاسطورة ، كما هو الحال غالبا فى الشعر أم عن طريق الشخصيات والمواقف والاحداث كما هو الحال غالبا فى العمل القصصى أو المسرحى .**

وهنا يبرز أمامنا هذا السؤال الهام : لنفرض أن الكاتب قد نجح فعلا فى عرض فكرة أو أفكار فلسفية عرضا فنيا ناجحا ، كما فعل جوته فى فاوست ودستويفسكى فى الاخوة كارامازوف ، وبشىء من التوسع نجيب محفوظ فى عدد من رواياته الأخيرة ، اذ فى هذه الاعمال تصور الفكرة من خلال مشكلة أو أزمة يمر بها البطل فى سلسلة من المواقف التى تتلاحم فيها الفكرة مع الكارثة أو الأحداث الهامة التى تقع للشخصيات **هل يكون مثل هذه الأعمال أفضل من أعمال أخرى ناجحة فنيا أيضا ولكنها خلو من مثل هذه الأفكار ؟**

ان كبار النقاد الغربيين - على عكس ما يتوقع كثير من القراء - يجيبون عن هذا السؤال بالنفى، وقد رأينا مثلا ما قاله **لويس** فى صدر هذا المقال عن الجانب الفكرى فى مسرحيات **شكسبير** ومع ذلك فلا يشك لويس ، بل ولا يشك أحد ، فى أن شكسبير واحد من أعظم شعراء الجنس البشرى على الأطلاق . أما **بندتوكروتشيه** فيندد بالنقاد الذين يمجدون القسم الثانى من مسرحية فاوست لجوته « **كشعر سام ارتفع الى القمم ، ونفذ الى لب الأشياء ، وانقلبت فيه الفكرة صورة والصورة فكرة** » ، ويقرر انه « **عندما يصبح الشعر متفوقا بهذه الصورة ، أى عندما يصبح الشعر أسمى من نفسه ، فانه يفقد منزلته كشعر ، وينبغى ان يوصف بانه قد انحط ، اى قد أصبح شعرا فقيرا فى شاعريته ، وان كان غنيا فى روحه وخياله** . « وأما » فلك » فيقرر ان الشعر الفلسفى مهما نجح فى التعبير عن الأفكار فهو ليس الا نوعا واحدا من الشعر ، ومكانته ليست بالضرورة مكانة الصدارة ، وينبغى ان يقوم كغيره من أنواع الشعر الاخرى ، **لا بقيمة موضوعه** ، بل بدرجة التلاحم والتركيز الفنى التى أتيحت له .



وبالاختصار **فالحقيقة الفكرية او الفلسفية ليست لها قيمة فنية فى حد ذاتها ، والعمل الفنى** لا يسمو بسمو مادته ، وانما بالطريقة التى شكلت بها هذه المادة ، وبالاسلوب الفنى **الذى عرضت به محتوياته** . ولكى نزيد هذا الكلام ايضاحا فسنستعين بهذا المثال من فن الرسم . اذا قارنا بين صورتين زيتيتين احداهما لنابليون مثلا والاخرى لشحاذ، فان أحدا منا لن يفكر بادىء ذى بدء فى تفضيل لوحة نابليون لأنها تصور أحد كبار العباقرة على حين تصور اللوحة الاخرى شخصا لا أهمية له وانما سيكون العامل الحاسم فى تفضيل احدى اللوحتين هو بالطبع - مدى ما توفر لهما من توفيق فنى . فاذا ما تساوت اللوحتان من الناحية الفنية فسيكون طبيعيا أيضا ألا يخطر فى بال أحد منا أن يرجح كفة لوحة نابليون لأن موضوعها هذه الشخصية الكبيرة .

ولا يختلف هذا الوضع بالنسبة للأعمال الادبية . ولدينا فى الادب الحديث مثال جيد على ذلك هو أعمال **نجيب محفوظ** الاخيرة التى وفق كاتبها الى حد كبير فى عرض ما بها من أفكار « كبيرة وغير محلية » عرضا فنيا ناجحا ، ومع



ذلك فهى لا تفضل أعماله الواقعية السابقة ، بل لعل الكثيرين يفضلون الثلاثية – أو لنقل « **بين القصرين** » وهو الجزء الذى يخلو من أية أفكار فلسفية كما سبق – على « **الطريق** » مثلا أو « **الشحاذ** » .

وقد أطلت قليلا فى مناقشة هذه الفكرة ،فكرة سمو العمل الفني بقدر ما فيه من أفكار كبيرة ، لأنها لا تزال منتشرة على نطاق واسع فى الاوساط النقدية والادبية عندنا ، على الرغم مما لاحظناه من ان نتائج تطبيقها لم تكن دائما ناجحة تماما . وحتى بالنسبة لبعض الأعمال التى هى ليست أدبا فلسفيا أو فكريا بالمعنى الدقيق ، والتى توفر لها قدر كبير من النجاح مثل « **الرباط المقدس** » ، وكلتا الشخصيتين تعكس – الى حد (مع الفارق بين درجة النجاح لكل منهما) فان القارىء يحس هنا بان نقاط الضعف كان مردها أحيانا الى تغليب الجانب الفكرى ، فشخصية محسن فى « **عودة الروح** » وفى النصف الاول من « **عصفور من الشرق** » أكثر امتاعا وأرقى فنا فى رسمها من شخصية « **راهب الفكر** » فى «**الرباط** المقدس » ، وكلتا الشخصيتين تعكس – الى حد كبير – فترة من حياة المؤلف . ونفس الحكم ينطبق على شخصية **كمال عبد الجواد** الذى يبدو أكثر حيوية وامتاعا فى « **من القصرين** » وفى الجزء الأول من « **قصر الشوق** » ، اى قبل أن تنشأ ازمة «**كمال** » الفكرية ، أما بعد ذلك فكثيرا ما يبدو وكمال أكثر جفافا لنفس السبب الذى يبدو به « **راهب الفكر** » أكثر جفافا ، وهو الافراط الفكرى .

بقيت نقطة أخيرة لا بد من الاشارة اليها ، وهى أن الادب مهما حوى من أفكار فلسفية لاينبغى أن يؤخذ على أنه فلسفة – كما يحلو للبعض أن يقول – فللفلسفة ميدانها ووظيفتها ومنهجها ، وللأدب ميدانه ووظيفته ومنهجه . وكما يقرر « **كروتشيه** » فان الأفكار الفلسفية فى الادب لا يمكن أن تقرأ على انها فلسفة ، فالجزء الثانى من « **فاوست** » يظل شعرا (رغم غناه بالافكار الفلسفية كما سبق) ، لأن الأفكار الواردة به لا تعدو أن تكون مجرد اشارات ، اشارات تختلف فى درجة وضوحها ، فهى ليست أفكارا مدروسة بعناية ومدعمة بالأسباب ، ولا هى متولدة بعضها من البعض بطريقة منطقية ، ولا متتابعة تتابعا منطقيا . وهى على هذا النحو أفكار غامضة . هذا هو السر فى كثرة التفاسير لأشعار أمثال « **جوته** » و « **دانتى** » وكل الذين كتبوا أدب الأمثولة

وحتى لو حلت مشكلة الغموض هذه وكتب الشاعر نفسه تعليقا حول شعره وضح به على وجه القطع هذه الافكار ، فان العمق فى هذه الحالة سينسب الى التعليق لا الى الشعر الذى كتب حوله التعليق ، أى الى الأفكار ، والأفكار الحقيقية ، وليس الى الرموز .

حمدى السكوت

أسطورة باريس في الشعر الفرنسي المعاصر

د . جان مازاليرا
ترجمة : نادية كامل

لم يكن الشعر الفرنسي من الناحية التاريخية باريسي الأصل ، كما لم يكن وليد مقاطعة أو مدينة بعينها في فرنسا ، بل كان ذلك الشعر وليد الثقافة بمعناها الرحيب ، فهو يستقي الهاماته ورآه من الفكر الكلاسيكي ويختار لموضوعاته شخصيات مثل أفيجينيا وأوجست والاسكندر الأكبر بدلا من جان دارك ونابليون ولويس الرابع عشر . كما أنه لا يصف نهر السين بقدر ما يصف نهر التيبر .

ولئن كانت هذه الظاهرة مثارا لاطراء الشعر الفرنسي تارة ومهاجمته تارة أخرى ألا أنها خصيصة جوهرية من خصائصه على أي حال . وربما كانت السبب في عالميته أيضا .

الشعر الفرنسي والشعر الباريسي

ويبين من ذلك أننا اذا تحدثنا عما يمكن أن نسميه « بالشعر الباريسي » فان هذا الشعر لن يكون في حقيقة الأمر هو « **الشعر الفرنسي** »



على ممر التاريخ ، ذلك لأن باريس لم يكن لها وجود حقيقى بالنسبة للشعراء الفرنسيين لا منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وعلى وجه التحديد منذ بودلير . فلئن كان عمر باريس فى تاريخ فرنسا يرجع الى ألف عام مضت فان عمرها فى تاريخ الشعر الفرنسى لا يزيد على مائة عام . الا أن هذه الأعوام المائة كانت ذات بريق أخاذ استطاع أن يطمس فى ذاكرتنا التسعمائة عام الأخرى . وقد أمكن لباريس أن تفرض نفسها فجأة فى تاريخ الشعر الفرنسى حتى انها أصبحت تحتل منه مقام الصدارة .

ولنعد الآن لحقائق تاريخ الادب فى فرنسا لنرى باريس تظهر أول ما تظهر كفكرة سلبية عرضية ، فقد تربع « **شعر البلاط** » على عرش الشعر الباريسى أمدا طويلا ، فكان شعر فرساى وشامبوريطرى الحكام ويستسيغ الدعابة والحياة السهلة ويبدو أكثر رفضا للأفكار العميقة الجادة . وأمكن لفرساى وشامبور أن تخنقا باريس وقد لاحظ موليير بوعيه الحاد رد فعل الجمهور ازاء هذا التناقض ، فعندما كان أحد الشعراء يريد أن يتغنى بالعاصمة فانه كان يأخذنا الى فرساى ويفيض فى تصوير أروقة القصور ونافوراتها وحدائقها ولا يتطرق من بعيد أو قريب الى أزقة باريس وواجهات عمائرها .

على أنه مالبثت أن ظهرت بعض الاشعار كرد فعل من جانب الشعب أزاء الادب الرسمى المتباعد المحتمى بموائد القصور ، وقد كانت هذه الاشعار المنتقمة لباريس من فيرساى وشامبور أولى التعبيرات الشعرية من وحى باريس ذاتها . ويجدر أن نذكر فى هذا المقام اسما معروفا فى تاريخ النقد أكثر منه فى تاريخ الشعر ونعنى به **سانت بيف** الذى كان أول من واتته الجراة كى يحيط الوقار الشعرى باطار من ضواحى باريس ، كما ظهرت فى أشعار ديلورم **(وهو اسم خيالى استعارة الشاعر لنفسه)** ولكنه كان لا زال لا يجرؤ أن يصف المدنية نفسها فوقف عند حد وصف ذلك العالم الذى مسببته الحضارة الصناعية .

على أن محاولة باريس التحول من أن تكون

مجرد أطار فى الشعر الى أن تكون فكرة ايجابية ما لبثت ان اصطدمت بنزعة أخرى هى النزعة الرومانسية فحل « **شعر الطبيعة** » محل « **شعر البلاط** » أو ربما تضافرا معا للتعويق من ظهور باريس فى الحلبة . فقد جعل الشعراء الرومانتيكيون من الطبيعة الملاذ الوحيد للشاعر ومحراب تأملاته الأول والأخير .

على أن الأجيال المقبلة ما لبثت أن كانت أكثر تجاوبا والعالم الذى كان سانت بيف أول من أحس بجاذبيته الغريبة وشجنيته المؤسية . وأخذ شعر المدنية يبدو كرد فعل لافراط شعر الطبيعة الى حد الغثيان . وتطورت باريس من مكانها القديم المنزوى فى الظل لتصبح الهاما روحيا ايجابيا . على ان وجود باريس لم يتضح بحق الا فى أعمال بودلير ، فمع قصائده أصبح لباريس وجود حقيقى حر .

كيف حدث ذلك التحول الشعرى من باريس كاطار الى باريس كفكرة ؟؟

حتى القرن التاسع عشر لم تكن باريس فى الشعر الفرنسى تحيا حياة خاصة بها . كانت بالطبع موضوعا للوحات كثيرة فقد كان الشعراء الباريسيون عديدون لكنهم لم يكونوا بعد « شعراء باريس » كان هناك مثلا **فيون** و **بوالو** و **رنييه** ، وليس بمستطاع أن يلم القارىء على الأخص بحياة فيون وشعره ، ما لم يرجع الى باريس والسوربون والشاتليه و «**مقابر الأبرياء**» فشوارع تلك المدينة وأهلها وملاهيها تبدو على الدوام فى خلفية لقصائد مثل « **الوصية** » لكن هذه الخلفية تظل ديكورا يصلح لنفهم الشاعر نفسه اما أن تصلح لنفهم باريس ذاتها فهذا لم يكن قد آن أوانه بعد . ان **الشاعر لا يستطيع أن يحيا بدونها ولكنه لم يكن ليستطيع أن يجعلها تحيا بدونه أيضا . فهى قطعة منه ، وليس كائنا حيا له روحه المستقلة . وقد ظل الحال على هذا المنوال حتى عام ١٨٥٠ .**

على ان ظهور باريس ظهورا حقيقيا كان أسبق فى الأعمال النثرية منه فى الأعمال الشعرية ، فنحس فى روايات هوجو مثل « **الأحدب** » و « **البؤساء** » أكثر مما نحس فى شعره بباريس وقد غدت كائنا متعدد الأشكال ، ضخما مهولا ، مخيفا وفى الوقت ذاته عاديا مألوفا . وفى ديوان له بعنوان « **أغنيات من الطرقات** » تصبح هذه الأغنيات أغنيات الغابات ، فالشوارع عند هوجو **لا تؤدى الى داخل المدينة بل تقود كلها الى الطبيعة** وتصب فيها .

وهذا الذى لاحظناه على هوجو نلاحظه أيضا على **جيراردى نيرفال** فقد كان نثره لا شعره هو وسيلته للتعبير عن احساس يزداد عمقا بحياة باريس ونبضها ، ويبدو ذلك جليا على الأخص فى روايتيه « **ليالى أكتوبر** » و « **نزهات وذكريات** » .

ولم تدخل باريس الى عالم الشعر الفرنسى كشخصية مستقلة حقا الا مع بودلير . وقد كان دخولها دخولا مظفرا ، فلم تعد مجرد « ايماءات » من قريب أو من بعيد بل أصبحت «الهاما» حقيقيا مباشرا .

فالتذكر بباريس نجده عند بودلير فى « **زهور الشر** » على الأخص فى مجموعة قصائده « **صور باريسية** » كما نجده أيضا بطبيعة الحال فى « **حلم باريس** » حيث تتتابع صور المدينة كجوقة موسيقية تصاحب حلم الشاعر ، ولكن تلك الصور لم تعد كما كانت عند شعراء سابقين مجرد صور مختارة لاضفاء جو من الغرابة على القصائد ، بل صار بين الأسى والتعاسة والجنون والرذيلة والسأم ، كل تلك المشاعر التى تغلف المدنية ، وبين روح الشاعر صلة مشاركة وتوافق لم نعهدها فى الشعر الفرنسى من قبل .

اننا نجد بودلير يحس بآلام المدنية وأحزانها:

ها هو المشهد الأسود الذى رأته
عيناى الواعيتان فى حلمى الليل ..
وتارة يعمد الى مواجهة الواقع بالذكرى

باريس تتغير ! لكن لاشىء من حزنى قد تزعزع !

القصور الجديدة ، الصقالات المنصوبة ، الكتل المرصوصة

الشوارع القديمة ، كل شىء أصبح بالنسبة لى رموزا

وقد تتسع رقعة التأمل حتى تصبح رؤية شاملة :

اليدان تحت الذقن . من أعلى حجرتى الضيقة ،
سأرى الروشة تغنى وتثرثر .
سأرى المواسير والأجراس مثل صوارى للمدينة

كما سأرى السموات الفسيحة التى تبعث
على الحلم منذ الأزل

ثم هاهو الشاعر يرفض الخارج وينتحى الشعر المغلق :

سأوصد الأبواب والنوافذ ،
كى أبنى لنا فى الظلام قصورا سحرية

على أن هناك شيئا آخر فى شعر بودلير ، شيئا هو فى اعتقادنا أكثر الأشياء ندرة وتفردا · انه احساس لم يقدر للشعر أن يعبر عنه من قبل· احساس بوجود شخصية حية وحقيقية لباريس· ويتضح ذلك على الأخص فى قصيدة « **غسق الصباح** » التى تكمل سلسلة «**الصور الباريسية**» حيث نرى فيها الحياة تدب فى أوصال المدينة شيئا فشيئا · ويتم ذلك عن طريق تداعى الخواطر عن باريس حتى تصبح فى نهاية القصيدة كائنا حيا تنبض الجزئيات والتفاصيل العديدة من خلال رؤيا واسعة بروح انسانية دافئة · فها هو بودلير يقول :

كان الفجر يرتعد فى ثوبه الوردى الأخضر ،
مقتربا بخطى وئيدة من السين المقفر ،
وباريس المعتمة كالعجوز النشيطة
تدعك عينيها ممسكة بأدوات زينتها ··

ومنذ تلك اللحظة أصبح الطريق ممهدا ،الطريق المزدوج الذى سيسلكه الشعراء المعاصرون ، والذى سنعرض له فى السطور التالية ·

أما الطريق الأول ـ وهو الذى سار فيه **فيرلين** و **لافورج** و **ليون بول فارج** وفى كثير من الأحيان **أبو لينير** ـ فنجد فيه الشاعر لا يرفض حياة باريس ذاتها بل يقبل عليها ويتخذها وسطا لأحلامه وتأملاته ·· فنرى فيرلين فى قصيدته « أشكال باريسية » يقول :

كان القمر يغطى ألوانه بصبغة الزنك
فى شكل زوايا منفرجة
وحلقات من الدخان على شكل رقم ٥
كانت تخرج صلبة سوداء من أعلى الأسطح المدببة

ونسمع أبو لينير فى نهاية قصيدته «فانديمير» من ديوانه « كحول » يقول :



ليلة سبتمبر تنقضى ببطء
أضواء الكبارى الحمراء تنطفىء فى السين
تموت النجوم ويولد النهار
وتعيدنى ذكريات الحب
الى صور الكبارى على ضفاف السين

ففى هذا النوع من القصائد يشيد الشاعر بما رآه على تربة باريس ، فتجرى أحلامه مع جريان الحياة فى أنحائها ، فتبدو قصائده ذكريات تتداعى عن وجود لا ينبذه ويمجه بل يصب فى دقائقه أحاسيسه الفنية .

على أن بعض الشعراء المعاصرين احتذاء ببودلير أيضا قد عمدوا فى قصائدهم الى الاختفاء تماما حتى يسمعوا القارىء نبض هذه المدينة الحق . فيبقى الشاعر فى الظل مكتفيا بدور المترنم بباريس . ونجد ذلك مثلا فى هذه القصيدة التى اخترناها **لأندريه بريتون** التى تبدو وكأنها ليست من مجموعة أشعاره المفرطة فى السريالية بل هى أقرب الى أن تكون من « **حلم باريس** » لبودلير يقول الشاعر بريتون فى قصيدته هذه ، وهى بعنوان « **الأوانى المستطرقة** » :

يجب أن تذهب فى الصباح الباكر
لترى من أعلى ربوة الساكريه كور فى باريس
تتجرد المدينة ببطء من غلالاتها الرائعة
قبل أن تبسط ذراعيها
جمع باكمله تفرق أخيرا
يرتعد من البرد ، محقرا ، بلا حماس
يشق كالسفينة ليلا طويلا
ليس سوى شىء واحد من القمامة والروعة.

وفى هذا النهج أيضا يعمد الانتاج الشعرى الباريسى الى تمجيد « **العمل والحياة العصرية ، بل والحضارة الصناعية** » التى رأينا الشعراء قبل بودلير يتباكون على عاصمتهم من زحفها عليها . وبذلك يخلق الانتاج الشعرى المذكور قيما جديدة تزينها مشاهد من باريس فى كل تآلفاتها ومتناقضاتها . ولنضرب مثلا على مانقول « **ببرج ايفل** » ذلك الصرح الذى رفض الشعراء من قبل التغنى به ، وقد كانت عصريته وايماؤه الى عهد جديد تلعب فيه الهندسة والتكنولوجيا دورا هو ماجعل الشعراء المحدثون يتغنون به كما تغنى به المصورون من أمثال **روبير ديلوناى** و **مارك شاجال** (- ١٩٦٩) وربما كان **جيوم أبو لينير** أكثر الشعراء العصريين تعبيرا عما ذكرناه فها هو يقول فى احدى قصائده التى وصفت بالشعر المستقبلى :

تشعرين يا نفسى فى النهاية من هذا العالم القديم
ضجرت من الحياة فى خرائب الحضارة اليونانية والرومانية
آه يابرج ايفل ، يا راعى قطعان الكبارى
التى تثغو فى الصباح عند قدميك

ثم يغرق الشاعر بمتعة جلية فى شعر يزخر بحياة المدينة وصخبها حتى لا يستطيع أى باريسى أن ينكر ان هذا الشعر قطعة نابضة من حياته :

تقرأ الاعلانات ، والكتالوجات ، والملصقات التى تشدو بصوت عال
ها هو الشعر هذا الصباح ، أما النثر فهناك الجرائد
بخمسة وعشرين مليما تقرأ صفحات مليئة بالمغامرات البوليسية
وألف عنوان وعنوان ، وترى صورا لكبار الشخصيات
هذا الصباح ، رأيت شارعا نسيت اسمه
طليا كان ونظيفا حتى بدا بوقا للشمس والضياء
الرؤساء والعمال وكاتبات الآلة الكاتبة الحسناوات
يمرون منه جميعا أربع مرات
كل يوم من صباح الاثنين حتى الرابعة من بعد ظهر السبت
تئن الأجراس ثلاث مرات فى الصباح
ومن الأبواق الغاضبة عند الظهيرة يعلو النباح
كم أهوى رقة هذا الشارع الصناعى
الذى يشق طريقه بين أومدن - تيفيل وميدان الترن

ثم يمضي أبو لنير فيقول :

ليالي باريس ثملة بالجن
تتوهج بالكهرباء
وفي الدرب ، على القضبان المجنونة
يصخب الترام
تزينه الأضواء الخضراء

ها هي « **أغنيـــة باريس** » المزدانة بمئات الأضواء والأصوات والعطور ، لكن على الرغم من كل ذلك نلمس تحت الأصباغ والمساحيق احساسا بالعزلة القاتلة ، عزلة الانسان التائه وسط كل هذا الضجيج · والانسان هنا أكثر خوفا من انسان فينيي الذي يواجه الطبيعة الباردة ، كما انه أكثر خوفا من انسان باسكال الذي يواجه اللا نهائي :

ها أنت تسير الآن في باريس وحـــدك
وسط الجموع
السيارات العامة من حولك قطيع يخور
ها أنت تسير ومرارة الهوى تخنقك
كما لو كنت لن تصبح محبوبا بعد اليوم

فعلى الرغم مما يحوط باريس من « **صخب ملحمي** » اذن ، تتصاعد نغمة شجنية ، نغمـة الضـياع · فتبدو باريس كبابليون الحديثة ، مدينة الشيطان ، مدينة ممزقة مؤرقة تسحق في اندفاعها الصاخب « **الأرواح الوديعة** » وها هو **بول** فيرلين يحدثنا عن « **جحيم باريس** » فيقول :

وتنساب ، يانهر السين زاحفا كالثعبـان
العجوز

وهذا الثعبان يرمز بطبيعة الحال الى الجحيم « جحيم الملـــذات » التي تردد في قصـائد مارك أورلان ·

ولكن من الهـــلاك ينبثق الخلاص · ولنقرأ قصيدة **جاك بريفير** « **أطفال أوبرفييه** » التي غنتها المغنية الباريسية ذائعة الصيت جوليت جريكو :

يا اطفال اوبرفييه الوادعين
يا من تغمسون رؤوسكم
في مياه البؤس اللزجة
حيث تطفو قطع الفل القديمة
بجانب قطط عجوز ميتة مسكينة
لكن طفولتكم تحميكم
من عالم حاقد لا يرحم
عالم أوبرفييه الحزين
حيث عمل أباؤكم وأمهاتكم
طويلا ، طويلا ،
كي يهربوا من الفقر
فقر العالم كله
أيها الوادعون يا اطفال أوبرفييه
أيهـا الوادعون ، ياأبنـاء الكادحين أيها الوادعون
ياأطفال الفقر الوادعين
ياأطفال العالم كله الوادعين
أيها الوادعون

وعندما يتحدث **لوى أرجون** عن غزو المدينة التي لازالت نائمة فهو يتنبأ بحركات شـعبية كبرى · حركات ثورية تحريرية ·

تصحو باريس من سباتها ، وشعب الفجر
يهبط من أغوار الضواحي بخطى وئيدة
كما لو كانوا يجهلون · ما يحركهم
وقـد غسلت النسمات جباههم العريضة
التي لا لون لها ·

كانت باريس اذن فكرة مستحدثة في الشعر الفرنسي ، الا انها أصبحت تشكل ركنا أساسيا فيه · وبعد أن قدمت باريس في الشعر بتحفظ وتردد وكمجرد اطار ، أول الأمر ، أدخلها بودلير الى عالم الشـعر الفرنسي لتصبح من بعـد كيانا مستقلا نابضا بالحياة · حتى انه ما من شاعر لا يهتف مع أراجون اليـــوم : « انزعوا قلبي ، تجدون باريس ! »

فرانس مارك
فنان
الرمزية السحرية

كان لتفتيت الذرة فى نفسى
أثر يضارع دمار العالم كله .
ف . مارك

ماجدة جوهر



كان فرانس مارك فى الفترة المبكرة من انتاجه بين عامى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ يرى فى الفن النافذة التى يطل منها على أحلامه وسبيله الى الخلاص ..

يقول فى رسالة لأحد أصدقائه كتبها سنة ١٩٠٦ :

« اننى أنتظر من فن الرسم أن يحررنى من الخوف الذى يتملكنى .. »

ويبدو أن الفن قد حقق له بغيته . فهو يقول فى رسالة أخرى كتبها بعد تلك بعام :

« اننى الآن لا أرسم الا أكثر الأشياء بساطة .. ففيها وحدها يتمثل ما فى الطبيعة من عظمة ورمزيه وأسرار .. »

بهذا يسير مارك فى نفس اتجاه الرومانتيكية الألمانية التى تبحث عن الكل فى أبسط الأشياء.. انه يتجه الى الغابة فيرى فيها مملكة السحر ومبعث الالهام .. وموطن الغموض والسحر الذى يحيا فيه عالم الحيوان .. وهو يعبر عن نظرته هذه بقوله :

« كنت منذ شبابى البكر أرى القبح ماثلا فى الانسان .. بينما كان الحيوان يبدو لى اجمل وأنقى »

ولكن هذه النظرة الجمالية لم تكن وحدها سبب هذا الاتجاه للغابة وسكانها.. بل يمكن أن يقال أنه وجد أن الحيوان لا يزال محتفظا بتلك الخواص الأولية والعضوية التى حال العقل بين الانسان وبين الاحتفاظ بها .. **فقد كان هدف مارك أن يصور ما تمتع به الحيوان من صفات النقاء والقداسة** . التى احتفظت بها كائنات الغابة لأنها لم تعرف الذنب ولم تدنسها الخطيئة .. رأى مارك الطريق لنقل هذه الصفات الى الفن فى العودة الى الأشكال الكبيرة الواضحة مثل الفرس والرنة والثور.. لما تتميز به من ديناميكية أصيلة .. كما أسبغ صفات القداسة والطهارة على النبات أيضا .. بل وأدرك فيها نوعا من التجانس الروحى والكيان المشترك **حتى كان يرى الكل متجسدا فى كل وحدة من وحدات الطبيعة** .. وهى نفس نظرة الرومانتيكية الالمانية كما سبق أن أشرنا .. **بهذا يصبح فن الرسوم هو أداة** التعبير عن هذه الوحدة التى حاول مارك اظهارها فى لوحاته بمزج أشكال من الحيوان والنبات. كما فى لوحتيه « **الحيوان والقدر** » سنة ١٩١٣ و « **الغزال فى الغابة** » سنة ١٩١٤ .. وكذلك فى سلسلة اللوحات الموجهة « للأمير يوسف » (وهى الشاعره الزة لاسكرشولر) التى تعتبر خير مثال لشاعرية مارك واستعماله للون كأداة لاشباع الشكل .

الرمزية السحرية

كان اللون بالنسبة لمارك الينبوع الشعرى الخصب الذى يستقى منه الخيال معينا لا ينضب وقد خصه مارك بدراسات متعددة وتناقش حوله كثيرا مع الفنان أوجست ماجه الذى كان يقوم بأبحاث مشابهة فى نفس الموضوع .. والتقى الاثنان على رفض العودة الى الرمزيه اللونية كما كانت تتصورها العصور الوسطى .. وضرورة اكتشاف الطريق « **للرمزيه السحريه** » .. **التى** لا تخص كل لون بصفه معينه وانما **تحاول أن** توضح اين يقف هذا اللون او ذاك من الارتباطات العقليه والروحية فى الحياة والكون .. **والمقصود** بهذا هو علم الألوان الرمزى الذى يسمح مثلا برسم فرس أزرق .. **وقد أصبح الفرس الأزرق** بالفعل شعار مجموعة الفنانين التى كان **يتزعمها** الفنان **كاندنسكى** تحت اسم «**الفارس الأزرق**».. كما أن لمارك نفسه لوحه باسم « **برج الخيول الزرقاء**» رسمها سنة ١٩١٢ تعتبر من اقوى وأبرع أعماله بفضل الجلال الذى أسبغه على أشكالها وقوة خياله فى توزيع الألوان .. **ويعبر مارك فى** رسالة له فى ديسمبر سنة ١٩١٠ عن رأيه **فى** التأثيرات النفسية للألوان بأنه يعمد أولا الى تدوين ملاحظاته فيما يتعلق بمزج الالوان ثم يدرس التأثير النفسى لكل منها .. **ولكن علينا أن نحتاط فى تطبيق طريقة تناوله** للرموز تطبيقا حرفيا على أعماله .. **ويكفى أن نعتبر هذه الرسالة مؤشرا نحو الاتجاه الذى سارت فيه أبحاثه فى سنة ١٩١٣ ـ أى قبل أقل من عام من نشوب الحرب التى لقى فيها حتفه فى** موقعة فردان سنة ١٩١٦ ..

النزعة الى التجريد

وعلم الألوان الرمزى هذا ليس الا وجها آخر **من نزعة فرانس مارك الى التجريد** .. **وهذه** النزعة التى أخذت تدفع به الى استعمال تركيبات لونية شديدة الجرأة .. وقد كانت محاولات كاندنسكى فى هذا المجال قبل ذلك بسنوات خير

مدرسة لفنانى « **الفارس الأزرق** » ٠ حتى ان كثيرين منهم اتخذوا منه مثلا أعلى لهم ٠٠ أما مارك فقد كان بجانب ذلك متأثرا كل التأثر بدلوناي ٠ وكان له مكانه البارز في جماعة التجريديين التى كانت ذات نشاط وفعالية فى ذلك الحين ٠

اللون والزمن

وبمقارنة الاحساس باللون عند مارك وعند كاندنسكي نجد أن فن الرسم يصبح عندهما نوعا من الشفافية ٠٠ بل مجرد اهتزاز وتداخل بين بعض الألوان وبعضها الآخر ٠٠ وهذا ما كان يعنيه مارك بقوله **ان كل ما يحدث ليس الا تحولا أو تفاعلا بين اللون والزمن** ٠

واذا كان مارك قد تأثر بتقدم الفكر الفنى أقل بكثير من كاندنسكي ـ الذى هزه مبدأ تحلل المادة وأولى محاولات تفتيت الذرة هزا عنيفا ـ فذلك لأنه كان يجد فى هذا التطور الطبيعى المحتوم الذى يماثل خطوات تطوره هو فى مجال الفن ٠٠ وأعماله الأخيرة التى أتمها فى سنى الحرب العالمية الأولى تمثل مرحلة تطور لها ما يقابلها فى التطور العلمى ٠

فالشكل الواضح يتوارى لتأخذ مكانه خطوط مجردة ليست بحال خطوطه الواقعية وان كانت فى الوقت ذاته تخضع لتيار حركة متواترة ومنتظمة ٠٠ وأسماء لوحات هذه الفترة تدل على أن الحيوان وان لم يكن قد اختفى تماما من أعماله قد تحول الى نوع سام من المخلوقات ٠٠ فهو لا يظهر فى هذه اللوحات ككائن ذى أبعاد ثلاثة ، بل كقوة مجردة ، كما نرى فى لوحة « **ترسانة لعالم جديد** » أو « **اللحظة الساحرة** » أو « **حياة نباتية** » ٠٠ أما سحر الغابة وروعتها فيظهران فى صورة أكثر شفافية وبعدا عن المادة ٠٠ وكل هذا يدعونا الى التحسر على قمم الروحانية والابداع التى كان يمكن أن يصل اليها هذا الفنان الموهوب لو لم يرحل من عالمنا وهو دون السادسة والثلاثين من عمره ٠٠

وقد حاول مارك فى كتاب له يسمى «**تخطيطات الجبهة**» أن يبسط رسم الحيوان الى خطوط يمكن التعرف فيها عليه ، كما يأخذ فيها الحيوان ذلك الطابع المطلق غير المحدد الذى ينقل الينا رائحة الغابة ويذكرنا بها ٠٠ وقد استمر مارك فى السير فى هذا الاتجاه حتى وصل الى درجة أصبح فيها الشكل مجرد نسمة عابرة ليس لها اى ارتباط بأصلها المادى ٠٠ وقد فعل مارك ذلك عن عمد ٠٠ وعبر عن هدفه من ذلك بقوله :

« **يجب على الأشياء أن تصبح خالية من كل مقاومة تماما مثل الأثير** ٠٠ »

وعندئذ تتحول الى مجرد قوة أو مادة روحية يكون منها العقل أشكالا مختلفة ذات ايحاءات مستمدة من أسمائها ٠٠ ويعترف مارك فى تلك الفترة بأنه قد تحول بفعل قوة غريزية من الحيوان الى التجريد ٠٠ ومع ذلك فقد بقى التجريد عنده كما كان عند كاندنسكى متحررا من سيطرة العقل ، **بل واعتبر أن تحرير الكائنات من الشكل المغلق المألوف يخلصها من ذلك السجن المادى ويجعل منها قوة مفتوحة على كل التيارات** ٠٠ وكان ذلك فى نظره هو الطريق الى التغلب على غموض المادة ٠٠ وقد عبر كاندنسكى عن هذه التغيرات بقوله :

« **كان لتفتيت الذرة فى نفسى**
أثر يضارع دمار العالم باكمله ٠٠
رأيت أعظم الأسوار تنهار فجأة ٠٠
وأصبح كل شىء فى نظرى مهتزا ٠٠
ضعيفا ٠٠ مضطربا ٠٠ لم يكن ٠٠

ليدهشنى فى ذلك الوقت أن ارى حجرا يذوب أمامى فى الهواء ويختفى عن عينى ٠٠ »

لغز الطبيعة

لو تتبعنا تطور مارك الفنى لوجدناه يتجه شيئا فشيئا الى اعتبار الطبيعة لغزا يحاول فهمه والتقرب اليه والنفاذ الى سره ٠٠ **ولعلنا لا ننسى أنه كان يريد فى البداية ان يصبح من رجال الدين** ٠٠ ولقد وجد فى الرسم وسيلة أخرى للاتصال بالقوى الالهية ٠٠ وحاول أن يجسّد فى لوحاته هذه القوى غير الملموسة وغير المنظورة ٠٠

هذه المحاولات التى بذلها فرانس مارك « **لتحويل غير المنظور الى منظور** » ـ والتى تعتبر الباعث الخلاق للفن الخيالى عامة ـ تأخذ فى فنه معنى أعمق وأكثر أصالة ٠٠ ولكن هذا التطور الذى صرفه عن الشكل ووجهه الى خدمة التعبير عن القوى غير المنظورة وتجسيدها والبحث عن الشفافية الكامنة فيها أدى الى خطر كبير أصبح يهدد الشكل ٠٠ فقد أعقبت المرحلة الطبيعية عنده مرحلة بنائية تحليلية (أى اعادة اكتشاف الخطوط الأساسيه) ثم تلتها مرحلة الشعر فى اللون كان يمكن أن يصل اليها هذا الفنان الموهوب لو فمرحلة اشباع الشكل بواسطة اللون : هكذا تشتت كل ما كان يحوط بالشكل ويشمله وأصبح اللون صاحب السيطرة بما يضفيه على الأشياء من رقة وشفافية ٠٠ هذا المظهر الذى تبدو فيه الغابة وقد تجرد من كل ماديتها ٠٠ وأصبح سكانها كائنات نورانية مشعة أو قوى مادية أولية التركيب ٠٠ فى مثل هذا المكان وجد فرانس مارك الاستقرار الذى بحث عنه طويلا ٠٠ وكان قد وصل فى هذه المرحلة الى معرفة « **المادة المتخيلة** » كما وصل الى الاقتناع بضرورة اضفاء جسم نورانى عليها ٠٠ وبذلك احتفظ مارك بالشكل وأمن على الطبيعة وعلينا من التحلل والضياع ٠

والغابة فى لوحات مارك توحى دائما بانطباع المكان المقدس البعيد عن قوى الشر ٠٠ انها خالية من الطابع الريفى على الرغم من وجود الحيوان فيها ٠٠ وأرواح الحيوانات على درجة كبيرة من النقاء والسمو ٠٠ ومع ذلك فهو لا يراها فى تلك الصورة فوق الواقعية وانما يحاول أن ينفذ ببصره الى نقطة الانطلاق بالنسبة للحيوان ذاته ٠٠ أى تلك النقطة التى يرى منها الحيوان نفسه ويتعرف منها على العالم المحيط به ٠

ولكن حتى ينجح هذا الانتقال وهذا التوغل المادى والمعنوى داخل نفس الحيوان ينبغى على الانسان أن يعرف الطبيعة الحيوانية تماما ويدرسها بدقة وعناية ٠٠ وقد جاءت دراسة مارك التحليلية لجسم الحيوان وحركته بين عامى ١٩٠٤ و ١٩١٠ بدافع من هذا الاقتناع حتى وصل فى النهاية الى درجة عالية من الكفاءة والدقة ٠٠ وبعد أن وصل الى هذه الدرجة من المعرفة العلمية أصبح فى استطاعته أن يتجه الى تطوير معرفته الداخلية وأصبح من الممكن تحقيق حلمه فى أن يتحد مع الطبيعة ويصبحا كيانا واحدا ٠٠ ولكنه لم يقف عند هذا الحد ٠٠ فكانت الخطورة التالية هى محاولة الوصول بالمادة الى الشفافية ٠ حتى لا تكون ماديتها عائقا فى وجه هذا التوغل العاطفى ٠٠ واستمر فرانس مارك فى سعيه الى الفناء فى روعة الخليقة والاتحاد بالروح الالهية التى تشمل الغابة وساكنيها ٠٠ متتبعا التحليل الهندسى للكائنات ـ ربما تحت تأثير ا لتكعيبة ـ سائرا بالشكل الى تركيباته الأصلية ٠٠

ولكن ماذا كان يعنى مارك بقوله ان هدفه هو رسم الفرس أو الغابة كما هما فى حقيقتهما ٠

مما لا شك فيه أن هناك ثلاثة أنواع من الحقيقة **هناك الحقيقة التى تنبعث من الارادة ، والحقيقة التى تربط بحواسنا وهناك أخيرا الحقيقة كذات مستقلة** ٠٠ هذه الحقيقة السحرية ٠٠ الأزلية المرتبطة بسر الكون ٠٠ هى التى عاش لها فرانس مارك وقضى كل دقيقة من عمره القصير فى خدمتها ٠

ماجدة جوهر

النتائج الاجتماعية للثورة التكنولوجية

ف . فاراكوف ، ى . فلشتشنكو
ترجمــــة : زكــــريا فهمى

● إن الثورة العلمية والتكنولوجية تمثل انتقالاً حاسماً إلى مستوى جديد للحرية ، بمعنى الضرورة التى يتحكم فيها الإنسان ويسيطر عليها ، على أن الإنسان لايزال حتى الآن غير حر فى مواجهة كثير من النتائج الاجتماعية المترتبة على الثورة العلمية والتكنولوجية

يمكننا أن نلاحظ بعضا من أبرز السمات المميزة للثورة العلمية والتكنولوجية ، كما وكيفا ، عندما نقارن هذه الثورة بتطور العلم والتكنولوجيا فى الماضى .

وأعم السمات الكيفية المميزة لهذه الثورة هى أن هذه أول مرة فى التاريخ تحدث فيها على وجه التحديد ثورة علمية وتكنولوجية . وليس المقصود بهذا مجرد الاتفاق فى الزمن بين الثورتين العلمية والتكنولوجية ، اذ أن مثل هذا الاتفاق قد حدث فى الماضى . اما الذى لم يحدث فهو تلك العلاقة المتبادلة الوثيقة والاعتماد المتبادل العميق بين التطور الحالى لكل من العلم والتكنولوجيا .

هذه العلاقات ذات شقين . فهى ، من ناحية ، تتجلى فى أن كل الانجازات الكبرى التى حققتها التكنولوجيا الحاضرة تقوم على كشوف أساسية وثورية تمت فى العلوم الطبيعية ، حيث يتسع باطراد مجال الموضوعات العلمية التى تجد تطبيقا تكنيكيا ، ويقل الوقت اللازم للتطبيق التكنيكى للكشوف العلمية . **والواقع ان العلم يقوم اليوم بتمهيد الأرض لمزيد من التطور الثورى للتكنولوجيا ، ويشق طرقا جديدة للتقدم التكنولوجى .** ويمكن التعبير عن ارتفاع معدل تطور العلم بالنسبة الى تطور التكنولوجيا والانتاج ، من حيث هو سمة مميزة للثورة العلمية والتكنولوجية ، يمكن التعبير عن هذا



ف . لينين

بالصيغة التالية التى اقترحها العالم السوفيتى « ج . دوبروف » G. Dobrov $\frac{\text{ت ع}}{\text{ت ز}} > \frac{\text{ت ك}}{\text{ت ز}} > \frac{\text{ت ا}}{\text{ت ز}}$

حيث الرموز تبين صفات كيفية هى : ت = تطور ، ع = علم ، ك = تكنولوجيا ، ا = انتاج ، وز = الزمن . على ان هذه الصيغة لا تحتوى الا على جانب واحد من جوانب السمات المميزة للثورة العلميه والتكنولوجية .

اما من الناحية الاخرى ، فان **الروابط بين العلم والتكنولوجيا تجلى في أن التقدم العلمى يقوم على أساس القاعدة التكنيكية لصناعة الالات المعاصرة** • وقد أشار « لينين » الى أن « صناعة الآلات على نطاق واسع هى وحدها التى تؤدى الى تغير جذرى • وتضرب بالمهارة اليدوية عرض الحائط ، وتحول الانتاج على أسس علمية جديدة ، وتطبق على نحو منظم المعطيات العلمية على الانتاج » .

وأذا لم نضع فى اعتبارنا الدور الذى تلعبة صناعة الآلات وكذلك التسيير الذاتى (الأوتوميشن) للانتاج وكهربته فى التقدم الاجتماعى ، فلن نفهم جوهر الثورة العلمية والتكنولوجية ، التى تؤلف التحولات الجذرية فى العلم نفسه جزءا لا يتجزأ منها . والواقع أن من المهم بصفة خاصة أن نضع هذه النقطة فى اعتبارنا ، لأن التقدم الحديث يتميز بتصنيع العلم ، حيث يتحول عمل العلماء ، على نحو يزداد شيوعا باطراد ، الى « **صور مختلفة من العمل الصناعى** » . فبدون عدد كبير من **المنشآت** الحديثة، كمعجلات البروتونات والسيكلوترونات، والمفاعلات النووية ، وغيرها ، لا **يمكن تطوير** فيزياء الجسيمات الأوليه ، والفيزياء النووية ، الخ . والتجربة العلمية لا تقوم فقط على استخدام منشآت ضخمة ومعقدة ، وهى منشآت تصبح اقامتها ممكنة الا فى المرحلة الحالية للتطور الصناعى ، بل تقوم ايضا على الصناعة .

والواقع ان الحدود التى لا تستطيع المعامل أن تتعداها تقيد التجربة العلمية فى حالات متزايدة العدد ، ومن ثم فهى تحتاج فى هذه الحالات الى ان تجرى على نطاق الصناعة ، بل على نطاق الكون بأسره . وهكذا فعلى الرغم من أن العلم فى تقدمه القوى السريع يسبق التكنولوجيا والانتاج ، فانه ايضا يظل خاضعا فى تطوره للسيطرة المباشرة لمقتضيات الانتاج والتكنولوجيا ويمكن التعبير رمزيا عن الدور الحاسم للانتاج والتكنولوجيا بالنسبة الى العلم على النحو التالى:

$$\left(\frac{\text{ت ع}^{1}}{\text{ت ز}} > \frac{\text{ت ك}^{1}}{\text{ت ز}} > \frac{\text{ت ا}^{1}}{\text{ت ز}} \right)$$

حيث ا تمثل الصفة الكمية للانتاج ، ك۱ = للتكنولوجيا ، . = للعلم ، وز = الزمن ، وت = التطور .

وقد يبدو أن هذه الصيغة تنفى الصيغة التى سبق ذكرها والتى قدمها « ج • دوبروف » • ولكنهما فى الواقع لا ينفيان بعضهما البعض . فعلى حين أن الصيغة الأولى تكشف أن العامل الروحى متقدم على العوامل المادية ،وأن الجانب

الروحى مرتبط بالوظيفة المنتجة البناءة التى يقوم بها العقل الذى لا يفكر فقط فى العالم ، **بل « يبدعه أيضا على نحو مثالى »** ـ فان الصيغة الثانية تكشف الدور الحاسم الذى تلعبه العوامل المادية (الانتاج والتكنولوجيا) بالنسبة الى العامل الروحى (**العلم**) . فكلا الصيغتين صحيح في آن واحد وفى نفس الوقت، وانما هما يكشفان فقط عن جوانب مختلفة لتفاعل العوامل المادية والروحية . أما استبعاد كل من الصيغتين للأخرى فهو أمر ظاهرى فحسب

والواقع أن الاعتراف بأن هذه المفارقة صحيحة هو أمر له أهمية فى تشكيل التقدم العلمى والتكنولوجى وفى فهم جوهر الثورة العلمية والتكنولوجية .

ومن البديهى أن عملية التفاعل بين العلم والتكنولوجيا لا تحدث على نحو منعزل ، بحيث تكون بمنأى عن تأثير العوامل الاجتماعية الأخرى. بل هى تخضع لتأثير النظام الاجتماعى ، والدوافع الاقتصاديه ، والحروب ، الخ . على أن من المسلم به أن العمليات الثورية التى تحدث اليوم فى العلم والتكنولوجيا متداخلة وتؤلف عملية واحدة تعرف باسم الثورة العلمية والتكنولوجية .

هذه الثورة عملية عامة يسهم فيها ، على نحو أو آخر ، نظام العلم والتكنولوجيا بأسره . ومن الأوفق أن نمعن النظر فى هذه الخاصية عن طريق بحث عنصريها المكونين ، أعنى بحث العلم والتكنولوجيا كل على حده ، لأنه على الرغم من وحدة تطورهما الثورى الراهن ، فان تغيراتهما الكيفية ذات طابع مميز .

فبالنسبة الى العلم ، يتجلى هذا الطابع فى الأمور التالية : (أ) **تجدد مستمر للوقائع والمعلومات التى تتألف منها مادة العلم ، (ب) واقتحام مجالات جديدة كل الجدة ، والكشف عن قوانين الطبيعة ، والوعى والمجتمع على مستويات جديدة للمعرفة ، (ح) وتغيرات جذريةفى منهجية البحث العلمى تتعلق باستخدام الأساليب الرياضية والسيبر نطيقية على نطاق واسع ، (د) وتضاعف معدل عمليات تفاضل وتكامل العلم ، واقامة نظام موحد للمعرفة العلمية ، (هـ) وتصنيع العلم ، وتغيير قاعدته التكنيكية . وهكذا ، فان الثورة العلمية والتكنولوجية الحالية تشمل كل جوانب العلم ، وهذا ما يحدث فعلا فى كل فروع المعرفة العلمية.**

اما فى المجال التكنولوجى ، فان التغيرات الجذريه تشمل كل فروعه وجوانبه ، وتتميز بالآتى . (أ) تحول جذرى فى الاساس المادى للأجهزة والأنظمة الفنية المرتبطة باستغلال مواد جديدة كل الجدة أو احداث تغيير عميق فى خواص المواد التقليدية ، (ب) واستغلال مصادر جديدة للطاقة ، وكذلك عمليات واشكال جديدة لحركة المادة ،(ج) وتغير كيفى فى عناصر وبناء الأنظمة التكنولوجية المرتبطة بايجاد تكنولوجيا خالية من الآلات ، وابتكار واستغلال أجهزة تحكمية وقياسية ، (د) وتغيرات جذرية فى الوظائف التى تؤديها الآلات : تشمل ادخال نظام التسيير الذاتى(الأوتوميشن)، وتحويل الوظائف ذات الطابع العقلى ، بدرجة تزداد دوما ، الى عمليات آلية .

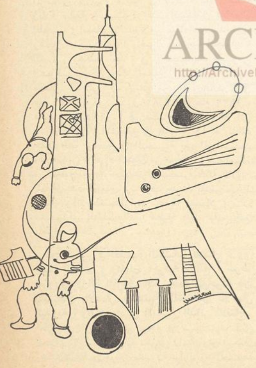
ان الثورة العلمية والتكنولوجيا قد شملت فعلا جميع المجالات الرئيسيه للحياة الاجتماعية ـ كالانتاج ، والنقل ووسائل الاعلام والمواصلات، وصحة الناس وظروف معيشتهم ، وهى تقوم، ناشطه ، باقتحام مجال الثقافة ، الفن ، الخ . على أنها احدثت ، فى المقام الأول ، تغيرات جذرية فى طبيعة ، ومعدلات ، واتجاهات تطور العنصرين المكونين لها ، وهما العلم والتكنولوجيا .

ولقد حدثت ، فى العشرين أو الثلاثين سنة الماضية ، طفرة كيفية فى تغيير الطاقات العلمية الكامنة للمجتمع . هذه الطفرة لا تتجلى فقط فى الارتفاع المطرد فى عدد الباحثين العلميين ، والمهندسين ، الزراعيين ، الخ ، بل تتجلى أيضا فى العلاقة المتغيرة بوضوح بين الفئات السابقة الذكر وبقية المشتغلين فى الانتاج . فعلى حين أن عدد الباحثين العلميين فى الاتحاد السوفيتى قد زاد فى الفترة من عام ١٩٤٠ الى عام ١٩٥٠ من ٩٨٫٣٠٠ الى ١٦٢٫٥٠٠ شخص ، أى أقل من الضعف ، فان عددهم خلال العقد التالى تضاعف اكثر من مرتين ، حيث وصل الى ٣٥٤٫٢٠٠ شخص . أما التضاعف التالى في عدد الباحثين العلميين فقد تم فعلا فى ظرف ست سنوات ، فوصل بحلول عام ١٩٦٦ الى ٧١٢٫٤٠٠ شخص . ومن الصعب أن نتنبأ الى أى زمن سوف يستمر هذا المعدل الذى يزيد به عدد الباحثين العلميين . على أن من الواضح أن هذه الزيادة لا يمكن ان تستمر ، والا لتعين ان يتضاعف عدد العلماء فى خلال فترات تزداد قصرا باطراد ، مما يؤدى ، سريعا، الى استيعاب جميع سكان الدولة فى مجال الأنشطة العلمية .

والتقدم العلمي والتكنولوجي يؤدي الى اختفاء بعض المهن وظهور مهن جديدة . فقد تميزت العقود الزمنية التى تلت الحرب بزيادة كبيرة فى عدد المتخصصين فى السيبر نطيقا، والصناعات الذرية ، وتصميم وانتاج أجهزة الفضاء ، وصناعة الصواريخ ، ومولدات الاشعاع المغنطيسى الكهربى ، الخ . وقد أدى التسيير الذاتى للانتاج ، وحده ، الى ظهور أكثر من عشرين تخصص جديد . كل ذلك سبب زيادة لم يسبق لها مثيل فى الحاجة الى الافراد العلميين والفنيين .

وقد أدت الثورة العلمية والتكنولوجية الى وعى عميق بالدور المتزايد الذى يلعبه العلم فى المجتمع ، فارتفع بذلك توجيه العلم وتعليم الأفراد العلميين الى مستوى سياسة الدولة . وفى هذا الصدد قال رئيس اكاديمية العلوم السوفيتية : **ان العلم يتحول فى أرجاء العالم الى جانب من جوانب نشاط الدولة . وهذه هى السمة الجديدة التى اكتمل ظهورها بعد الحرب العالمية الثانية .. وعلى حين أن الاتحاد السوفيتى كان الدولة الأولى التى ظهر فيها تنظيم الدولة للعلم ، فان جميع الدول حذت حذوه تدريجيا ، ليس فقط الدول الاشتراكية ، بل أيضا الدول الرأسمالية المتطورة »** .

ومما له دلالته أن احتياجات الثورة العلمية والتكنولوجية من المشتغلين بالأعمال الذهنية تواجه فى ظل النظام الراسمالى على نحو متناقض . فالدول الرأسمالية تعمل ، من ناحية، على الاسراع بتكوين رصيد من الخبراء من بين أبنائها ، وتقوم ، من ناحية أخرى ، باستغلال موارد الثروة العقلية للدول الاخرى . وقد اصبحت الولايات المتحدة مقرا لشكل غريب من اشكال الاستعمار فى مجال التقدم العلمي والتكنولوجي – ففى الفترة من عام ١٩٦٢ الى عام ١٩٦٤ وحدها ، هاجر الى الولايات المتحدة من أوروبا الغربية ٦٥٢٩ مهندسا وباحثا علميا ، منهم ٢٦٦٩ من بريطانيا ، و ١١٣٠ من المانيا الاتحادية ، و ٣٩٨ من سويسرا ، الخ .



وتوضح البيانات غير الكاملة أن ٥٪ من العلماء والمهندسين المستخدمين حاليا فى الولايات المتحدة ، و ١٧٪ من اعضاء اكاديمية العلوم القومية الأمريكية ، تلقوا تعليمهم خارج الولايات المتحدة . ولم تلاحظ **« هجرة للعقول »** على هذا النطاق من أوروبا الى الولايات المتحدة الا خلال الحكم النازى فى المانيا .

وهكذا ، فان استغلال موارد احدى الدول بواسطة دولة أخرى تخضع للنظام الرأسمالى يؤدى أيضا الى صور جديدة من التناقضات الاجتماعية . وقد لاحظ لينين ذلك عندما كتب عن تطور المجتمع البورجوازى فى ظل التقدم التكنولوجى ، فقال : **« ان هذا التقدم ، شأنه شأن التقدم الذى تحرزه الرأسمالية فى كل ميدان آخر ، يكون مصحوبا ، بتقدم ، التناقضات. أعنى رسوخها واتساعها . »**

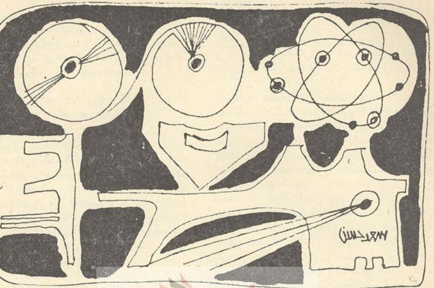
اما فى ظل النظام الاشتراكى فان الاقتصاد المخطط يراعى التحكم فى التغيرت التى تحدث فى نمط الأفراد المشتغلين بالعلم والتكنولوجيا، بحيث يكون من مهام هذا الاقتصاد المخطط الاستفادة على احسن وجه من المزايا التى تتفوق بها الاشتراكية على الرأسمالية .

ان بناء العناصر الذاتية المكونة للقوى المنتجة يتغير بفعل الثورة العلمية والتكنولوجية ، أعنى أن هناك تغييرا فى التركيب الاجتماعى للأفراد المرتبطين بالانتاج ، كما أن هناك ، كما رأينا ، زيادة مطلقة ونسبية فى عدد المشتغلين بالأعمال الذهنية فى مجال الانتاج (من علماء ، ومهندسين ، وفنيين ، وزراعيين ، وخبراء في تربية الحيوان ، الخ) . وهكذا، نجد ، فى الاقتصاد القومى السوفيتى ، أن عدد العاملين المشتغلين أساسا بالعمل الذهنى قد ارتفع من ٢٫٨٨٨٫٠٠٠ فى عام ١٩٢٦ ، الى ١٣٫٨٢١٫٠٠٠ فى عام ١٩٣٩ ، فالى ٢٠٫٤٩٥٫٠٠٠ فى عام ١٩٥٩ ، ثم الى ٢٧٫٣٦٠٫٠٠٠ شخص فى عام ١٩٦٧ . كذلك حدث تغير واضح فى النسبة بين المهندسين وغيرهم من الأفراد الفنيين من ناحية ، وبين العمال من ناحية أخرى، حيث تزايدت نسبة الفئة الاولى. كما أن عدد العاملين فى حرف جديدة تقتضى مهارة عالية يزداد باستمرار . هذا فضلا عن أن مستوى التعليم العام للطبقة العاملة يرتفع باطراد .

ان التغيير فى القاعدة التكنيكية للانتاج ، وفى طبيعة العمال ، والمهارة الحرفية ، الخ ، شرط ضرورى لازالة الفروق الضخمة الموجودة بين المشتغلين بالأعمال الذهنية والمشتغلين بالأعمال اليدوية ، والناجمة عن التسيير الذاتى للانتاج. فعلى حين أنه لم يكن يوجد في سنوات ما قبل الحرب الابضعةخطوط تحويل ذاتية(أوتوماتيكية) وشبه ذاتية فى فروع معدودة من فروع الصناعة الهندسية فى الاتحاد السوفيتى ، فقد أصبح يوجد فى هذا البلد بحلول عام ١٩٦٧ ، حوالى ٥٠٫٠٠٠ خط تحويل مجهز بالمعدات الميكانيكية وذاتى التسيير ، كما أن ما يربو على ٦٫٠٠٠ خط من هذه الخطوط يجرى انشاؤها سنويا . ويجرى ، فى نفس الوقت ، ادخال تحسينات على حوالى ١٠٪ من الخطوط العاملة لتتمشى مع مقتضيات العمليات التكنولوجية الحديثة فى الانتاج .

والواقع أن توافق الناس مع الظروف الجديدة التى تفرضها الثورة العلمية والتكنولوجية – وأعنى بها ميكنة الانتاج وتسييره ذاتيا – عمل هام . هذا العمل يؤدى في الاتحاد السوفيتى على أساس خطط التنمية الاقتصادية التى تضعها الدولة ، والتى تقضى بتعليم أخصائيين جدد عن طريق نظام المؤسسات التعليمية العليا والثانوية ، وتوسيع نطاق التعليم الفنى المنوع فى المدارس ، والتدريب المهنى ، الخ . ومن العوامل الرئيسية فى انجاح هذا العمل ، وضع خطة تطوير اجتماعى للأفراد العاملين فى كل مشروع على حدة . هذا التخطيط يحدد الشروط اللازمة لازالة الفروق الضخمة بين المشتغلين بالأعمال الذهنية والمشتغلين بالأعمال اليدوية (ميكنة العمليات المستنفدة للجهد ، واستبعاد العمل اليدوى الشاق ، وتحسين التدريب الفنى والتعليم العام ، ألخ) . وهذا يجعل فى الامكان مراعاة خصائص التقدم الفنى فى كل مشروع على حدة . وقد وضعت بالفعل خطط للتطوير الاجتماعى ، ويجرى تطبيقها في عدد كبير من المشروعات المقامة فى أرجاء الاتحاد السوفيتى .

لقد أصبحت نظرية **« الثورة الصناعية الثانية »** واسعة الانتشار بين الأيديولوجيين الغربيين فى الخمسينات من هذا القرن . وتزعم هذه النظرية ان الثورة العلمية والتكنولوجية تقوم ، تلقائيا ، بتحويل الراسمالية الى مجتمع جديد خال من تناقضاته السابقة ، وتؤدى الى خلق حضارة جديدة فمثلا ، يعتقد **« هربرت ماركيوز »** أن الثورة التكنولوجية ، باستغنائها عن العمل المسير بالآلات والقوى البشرية والاستعاضة عنه بالعمل المسير ذاتيا ، تؤدى حتما الى **« قلب المجتمع بأسره »** ثم يتم بعد ذلك التحول الى حضارة جديدة . كذلك فاءن نظرية **« المجتمع الصناعى الواحد »** (**ر . أرون** R. Aron ، **و . روستو**



W. Rostow ، وآخرون) تقترب من هـذا الرأى . هذه النظرية يلجأ اليهـا للتدليل على وجود تقارب بل « **وحـدة فى الاتجاه** » **بين** الرأسمالية والاشتراكية . ويمكن العثـور على وجهات نظر مشابهة فى مؤلفات « **جان فوراستيه** » Jean Fourastié ، وهو عالم اقتصاد فرنسى يزعم أن « **الدول الشرقية والدول الغربية** تبنى نفس البيت » .

هذه المفاهيم التى انتقدها بتفصيل عدد من الباحثين الماركسيين تنظر الى الدور الذى يلعبه التقدم التكنولوجى نظرة من جانب واحد بطريقة مبالغ فيها ، فتجعله مرادفا للتقدم الاجتماعى . فهى تتجاهل السمات المميزة للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة ، وتنفى الحاجة الى تحول ثورى للمجتمع ، وأخيرا ، تؤيد الفكرة القائلة أن النظام الرأسمالى منيع ولا يمكن هدمه .

أما المؤلفون السوفيت فانهم يبحثون العلاقة بين الثورة العلمية والتكنولوجية والثورة الصناعية بطريقة ايجابية . فهم يرون أن الأمر يتعلق أولا بمفهوم الثورة الصناعية ذاتها . من هذا ، مثلا ، أن أ . **دفوركين** I. Dvorkin يرى أن الثـورة الصناعية تدل على انقلاب فى علاقات الانتاج ، على حين أن التكنولوجيـا الجـديدة ليست الا شرطا ضروريا واساسا لهذا الانقلاب .

كذلك تعرض الثورة الصناعية فى المؤلفـات الشائعة على أنها آخر مراحل الثورة العلمية والتكنولوجية ، والمقصود بذلك الحالة التى يبدأ فيها الانتاج المسير ذاتيا فى الحلول ، كيفيا ، محل الانتاج المصنعى المسير بالآلات . وتؤكد هـذه المؤلفات فى نفس الوقت أن الانقـلاب العلمى والتكنولوجى سوف يتبعه انقلاب انتاجى مقترن بانفصام على أكبر درجة من العمق للعلاقات الاجتماعية فى الانتاج ، كذلك سـوف يتبعه اندماج نهائى لمختلف الأفراد الذين يسهمون فى الانتاج ، واسـتبعاد لكل العمال غير المهرة ، واقامة مسـاواة اجتماعية كاملة لجميع أفـراد المجتمع .

وثمة رأى آخر يقدم على أساس أن الثورة العلمية والتكنولوجية هى ، فى نفس الوقت ، ثورة صناعية . وعلى الرغم من ان هذه المفاهيم

ليست متطابقة ، فانها يمكن مع ذلك أن تعد من نفس المرتبة ، اذ انها تعكس الانقلاب في الأساس التكنولوجى لعملية الانتاج . ونذكر على سبيل المثال أن العالم السوفيتى « ج . يبيسكو بوسوف » . G. Yepiskoposov

لا يدرج ضمن الثورة الصناعية الانقلاب فى نظام العلاقات الاجتماعية فى الانتاج .

والمعروف بصفة عامة أن نقطة بداية الثورة الصناعيه التى حدثت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت خروج انتاج الآلات الى حيز الوجود . فقد أدى استخدام الآلات الى تغيير الأسلوب التكنولوجى الخاص بربط الانسان بوسيلة العمل ، وادى فى نفس الوقت الى ارتباطات اجتماعية جديدة خاصة بعمليات الانتاج ، والى تغيير البناء الطبقى للمجتمع ، وتقسيم العمل وفصم جذرى للعلاقات الاجتماعية فى الانتاج . وقد أشار لينين فى كتابته عن السمات المميزة للثورة الصناعية الأولى الى أنه فى عهد جان سيسموندى « بدأ ذلك التغيير الشديد والفجائى لكل العلاقات الاجتماعية بفعل الآلات (لاحظ أنه يقول : بفعل صناعة الآلات ، لا بفعل الرأسمالية بصفة عامة ، وهو التغيير الذى يعرف فى علم الاقتصاد باسم الثورة الصناعية » .

والثورة العلمية والتكنولوجية الراهنة تغير الأساس التكنولوجى للانتاج وكذلك نمط القوى المنتجة للمجتمع . هذا التحول يرتبط قبل كل شيء بالتسيير الذاتى ، مؤديا ، على نحو ما ، الى تحرير الانسان والآله معا من القيود التى تفرضها قدرات الانسان السيكولوجية والفسيولوجية . ولا تنفصم الروابط بين الانسان والآله ، الناتجة عن التسيير الذاتى للانتاج ، بل تكتسب أشكالا أكثر مرونة ، اعنى ان تغيرات تحدث فى الأسلوب التكنولوجى لربط الانسان بوسيلة العمل . هذه التغيرات تقترن ، بدورها ، بتغيرات فى الترابط الاجتماعى الخاص بعمليات الانتاج ، وتؤدى الى تحول قاطع فى تقسيم العمل ، كما تؤدى الى عناصر جديدة من الناحية الكيفية فى العلاقات الاجتماعية فى الانتاج. هذه التغيرات تتجاوز نطاق الثورة العلمية

والتكنولوجية ، ولا يمكن أن تعد مظاهر ثانوية لها ، ولعل من المناسب هنا أن نشير الى أن التغيرات التى تحدث فى الأساليب التكنولوجية للانتاج ، والتى تتجاوز نطاق الثورة العلمية والتكنولوجية ، انما هى احد العناصر الحاسمة فى الثورة الصناعية التى تحتم حدوث انقلاب جذرى فى نظام العلاقات الاجتماعية فى الانتاج.

وعندما نتحدث عن حدوث انقلاب جذرى فى العلاقات الاجتماعيه فى الانتاج ينبغى ان نضع فى أذهاننا ان حجم هذا الانقلاب يتحدد ، الى مدى كبير ، وفقا لنظام العلاقات الاجتماعيه القائمة برمته . ومن هنا فان الثورة الصناعية الأولى بدات بعد الثورة الاجتماعية . ففى بريطانيا ، مثلا ، نجد أن الثورة البورجوازية التى حدثت فى القرن الثامن عشر قد وقعت قبل ظهور الثورة الصناعية . ولهذا ينبغى ألا نسلم بظهور علاقات الانتاج الراسمالى بصفة عامه نتيجة الانفصام الجذرى للعلاقات الاجتماعية فى الانتاج خلال فترة الثورة الصناعية التى حدثت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ذلك لأن ظهور هذه العلاقات يرتبط بتغيير اسلوب الانتاج ، ويعنى ، قبل كل شيء ، تعجيل التحول الاشتراكى للانتاج ، ويخضع لتأثير انتشار تكنولوجيا الآلات ، وفصم العلاقات الاقتصادية التى كانت لا تزال قائمة الى حد معين بعد الثورة البورجوازية ، والتى كانت ، حسب تعبير ماركس ، متفقة مع قاعدة الانتاج التكنيكية المحافظة ، ومع انتاج الصناعات التحويلية ، وكذلك مع الانتاج فى مراكز منعزلة نسبيا ومرتكزة على اقتصاد طبيعى . وقد ادى فصم العلاقات الاجتماعية في الانتاج الى تمكين الثورة الصناعية الأولى من المساعدة على حدوث المزيد من التط[illegible] فى الرأسمالية .

وفى راينا أن الثورة الصناعية المعاصرة ، على خلاف الثورة الصناعية الأولى التى بدأت عملية التحويل الاشتراكى للانتاج . تقوم بخلق الظروف اللازمة لاتمام هذه العملية . وهذا يؤدى الى زيادة حدة التناقض الأساسى المميز للرأسمالية ، أعنى التناقض بين الطبيعة الاشتراكية للانتاج وأسلوب التملك الخاص . ومع ذلك ، فان البناء الاجتماعى الاقتصادى والبناء الطبقى للمجتمع يتعرضان ، حتى فى ظل النظام الرأسمالى ذاته ، لتغيرات تتبع التغيرات فى العلاقات التكنولوجية للانتاج وتعميق الطبيعة الاشتراكية للقوى المنتجة . وتتجلى الطبيعة الاشتراكية للقوى المنتجة فى أمور من بينها تركيز

رأس المال المالى ، واقامة احتكرات ، واتحادات كبرى ، الخ . وهذا هو السبب الذى نعتقد من اجله ان من الصواب ان نتحدث عن أن الثورة الصناعية تحدث أيضا فى الدول الرأسمالية المتطورة .

على أن الثورة الصناعية لاتسير فى ظل الرأسمالية حتى منتهاها ، ولا تؤدى الا الى تمهيد الظروف المادية والتكنيكية لانتصار الاشتراكية . أما فى ظل النظام الاشتراكى ، فاءن تغيير الأسلوب التكنولوجى للانتاج القائم على الثورة العلمية والتكنولوجية لا يصادف مقاومة من جانب علاقات الانتاج الجديدة ، ويؤدى الى تكوين نمط جديد للقوى المنتجة ، وتحول كيفى لنظام العلاقات الاجتماعية فى الانتاج بأسره ، ويؤدى فى النهاية الى الأسلوب الاشتراكى للانتاج .

ومن النتائج الأساسية للثورة العلمية والتكنولوجيه ذلك التناقض ، الذى يلاحظ فى الوقت الحاضر ، بين البيئة المصطنعة التى اوجدها المجتمع لمنفعة الانسان ، والبيئة الطبيعية التى لم يوجدها الانسان ولكنه يستغل مواردها المادية . فهناك ، من ناحية ، القدرة المتزايدة للقوى المنتجة الناجمة عن الثورة العلمية والتكنولوجية التى تهيىء الظروف اللازمة لايجاد مستوى عال للراحة واليسر في حياة الانسان اليومية (من اسكان مريح ، وملابس أنيقة وأثاث فاخر ، ومرافق نقل سريعة ، ووسائل عامة للمواصلات ، الخ) . ومن ناحية أخرى ، فان نفس القدرة المتزايدة للقوى المنتجة تزيد دورة المادة والطاقة بين الطبيعة والمجتمع ، وتسهل استغلال وتغيير سطح القشرة الأرضية على نحو أكثر فعالية ، وكذلك استغلال الأوساط المائية والهوائية ، مما يؤدى فى كثير من الأحيان الى اختلال التوآزن المستقر بين العمليات الطبيعية التى تهييىء الظروف المثلى لحياة المجتمع البشرى ، والأنشطة الحيوية للكائن البشرى . وثمة ناتج ثانوى جديد للثورة العلمية والتكنولوجية هو التلوث الاشعاعى للجو ، وبعض أجزاء الأرض ، والبحار والمحيطات ، وهو التلوث الذى يتكرر بين الحين والحين . ولهذا كانت الحاجة ماسة ، فى المرحلة الحالية للثورة العلمية والتكنولوجية ، الى اتخاذ تدابير معوضة ، تبطل تأثير النواتج الثانوية للتقدم التكنولوجى فى الظروف الطبيعية . لذلك فان وقاية الموارد الطبيعية ينبغى الا تصبح فقط مبدأ لتدبير الاقتصاد على نطاق قومى ، بل ينبغى أيضا ان تصبح موضوعا لتعاون دولى واسع النطاق .

والى جانب التفاؤل بالنسبة الى ما يرجى فى مجال التحولات الاشتراكية ، وما تهيئه هذه التحولات من فيض من القيم المادية والروحية ، تظهر أيضا مخاوف تتعلق بطرق استخدام منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية . ذلك لان الاستغلال الطائش لقوى الطبيعة ، بعد السيطرة عليها ، يمكن أن يؤدى الى دمار لا نظير له . وهذا يعنى ان الأمم والحكومات تقع على عاتقها اليوم ، أكثر من اى وقت مضى ، مسئولية أكبر بالنسبة الى مصير الأرض ، واستخدام الكشوف العلمية والتكنولوجية التى تحققت نتيجة عبقرية الانسان .

ان الثورة العلمية والتكنولوجيه تمثل انتقالا حاسما الى مستوى جديد للحرية بمعنى الضرورة التى يتحكم فيها الانسان ويسيطر عليها على ان الانسان لا يزال حتى الآن غير حر فى مواجهة كثير من النتائج الاجتماعيه المترتبة على الثورة العلميه والتكنولوجيه . وهذا يدل على أن سمات التقدم العلمى والتكنولوجى (بما فيها نتائجه السلبيه) لم تدخل بعد كلها فى نطاق تحكم الانسان . وهذه النتائج السلبية تصبح أسبابا تؤثر ، بدورها ، فى التقدم العلمى والتكنولوجى وكذلك فى الظروف الاجتماعية والمعيشية للناس . على ان تحكم المجتمع فى هذه الاسباب لم يتعد بعد أولى مراحل معرفه هذه الاسباب .

ان الحرية الكاملة لا تنشأ الا عندما تصبح جميع نتائج التاريخ الاجتماعى واسبابه خاضعه لسيطرة الانسان . هذه الحالة الاجتماعية لا يمكن أن تتحقق فى ظل الرأسمالية . ذلك لأن الاشتراكية هى وحدها التى تفتح الأبواب على مصراعيها لامكان السيطرة الكاملة ، ليس فقط على تطور الثورة العلمية والتكنولوجية ، بل أيضا على النتائج الاجتماعية المترتبة على هذه الثورة . هذه السيطرة تعنى قفزة للبشرية من عالم الضرورة الى عالم الحرية .

رسالة من امريكا

الحركة الفكرية المعاصرة فى كاليفورنيا

د. جمال الدين الرمادى

قرأت فى مجلة الفكر المعاصر ترجمة **الدكتور امين العيوطى** لهذا البحث القيم الذى كتبته السيدة **عفاف لطفى السيد** عن الحركة الفكرية فى القرن الماضى ، والبحث يدل على جهد كبير واطلاع واسع فى الكتب والمراجع العلمية عن هذه الحقبة من التاريخ كما أن الترجمة تدل على **قدرة وبراعة** (*)

والسيدة **عفاف لطفى السيد** هى كريمة أستاذ الجيل **احمد لطفى السيد** وتقوم بالتدريس فى جامعة كوليفورنيا بلوس انجلوس حيث يحظى والدها رحمه الله برعاية خاصة فى الدراسة والبحث والمحاضرة ٠

والسيدة عفاف هى احدى الباحثات فى ميادين الثقافة العربية فى كاليفورنيا ، وهى تنتمى الى مركز دراسات الشرق الأدنى فى الجامعة المذكورة ويشرف على المركز العلامة الكبير **الدكتور جوستاف فون جرينيوم** وهو مستشرق نمساوى الأصل كان يعمل أستاذا بجامعة شيكاغو ثم استدعى لتأسيس المركز فى جامعة كاليفورنيا عام ١٩٥٧ ، حيث بذل جهودا عظيمة فى تدعيم



توفيق الحكيم

بنيانه وتوطيد أركانه ومساهمته فى ميادين الفكر العالمى ، ونشرعدة مؤلفات عن الاسلام والأعياد المحمدية كما ناقش فكرة العروبة فى كتبه ودعوة القومية العربية ، وتعرض للحركة الفكرية فى العالم العربى ومؤلفات **طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم** ، وقد تعرض لتراث العرب الفكرى وناقش قيمة هذا التراث فى حصيلة الفكر العالمى ، ووضح أثر **الجاحظ والمتنبى وابن المقفع** وغيرهم فى اجراء جداول جديدة تخصب الثروة الفكرية العربية ، كما وضح أثر الفكر الفارسى على الأدب العربى فى العصور العباسية ، وكيف ظهر تيار الحكمة الفارسية ، وتيار الحكمة الهندية ، وتيار الفكر اليونانى والرومانى وكيف التقت هذه التيارات المختلفة مع تيار الفكر العربى الأصيل فنشأ عن ذلك كله نهر عذب سلسبيل يروى العقول والقلوب جميعا • ولم يلق **جوستاف فون جرينيوم** العالم الكبير صفحا عن أثر الاسلام فى تكوين الفكر العربى فقد استطاع الانسان أن يحيا به حياة صحيحة واستطاع أن يفكر به الانسان تفكير سليما واستطاع أن يحيا به الانسان حياة نظيفة قويمة ، فهو دين يخاطب العقول والقلوب جميعا ولا يلجأ الى الاستهواء والحجج الخطابية الكاذبة والأساليب السفسطائية المنمقة ، كما ذكر الدكتور جوستاف جرينيوم **ان الحياة فى نظر الاسلام غدت وسيلة الى الدار الاخرى ، ولم تعد غاية فى ذاتها ولن تزر وازرة وزر أخرى ، ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ، والاسلام بعد هذا كله بل قبل هذا كله يعمل على تطوير المجتمع واصلاحه وهذه فضيلة كبرى من فضائله ، وحسنة عظمى من حسناته ، فهو لا يتعارض مع التطور ولا يتناقض مع الاصلاح •

وليست مؤلفات العلامة جوستاف فون جرينيوم هى كل حصيلة الفكر العربى فى كاليفورنيا انما هيمن جرينيوم على حركة فكرية واسعة النطاق فى مركز دراسات الشرق الأدنى بجامعة كاليفورنيا وأشرف على اصدار مجموعة من الأبحاث النافعة فى هذا الميدان ، ومن ذلك البحث الذى نشره **الدكتور اسكندر بدوى** عن خطط الهندسة المعمارية الفرعونية والدكتور بدوى قد استوطن كاليفورنيا منذ فترة طويلة حيث يساهم فى نشر بعض المؤلفات عن تاريخ مصر القديم وحضارة الفراعنة باللغة الانجليزية كما أصدر



ع . العقاد

المركز كتاب **والتر فيسشل** Walter Fischel عن **ابن خلدون فى مصر** ، وقد وضح فى هذا الكتاب اتصالاته الفكرية وارتباطاته السياسية وأعماله التاريخية ، (١٣٨٢ ـ ١٤٠٦ م) وكتاب **كليمنت هنرى مور** عن تونس منذ الاستقلال وقد نشره المركز عام ١٩٦٥ كما نشر المركز كتاب : الدورة المادية فى الدولة الزهيرية **لمحمد بن محمود ابن سمرى** (١٣٨٩ ـ ١٣٩٧ م) باللغة العربية فى مجلد والترجمة الانجليزية فى مجلد آخر ، كما نشر المركز كتابا عن الحركة الشيوعية فى ايران بقلم **شفرزابيه** Sepher Zabih كما نشر كتابا عن الدين والسياسة فى ايران ، وكتاب آخر عن العرب بقلم **أرنولد هوتنجر** Arnold Hottinger وكتاب عن الاصلاح الاسلامى كما تزعمه **الامام محمد عبده ورشيد رضا** وغيرهما من أعلام الفكر الاسلامى أما مؤلف الكتاب فهو **مالكولم كير** Malcolm Ker ونشر المركز أيضا كتابا عن الثورة الارمينية كما نشر كتابا عن القومية العربية جمعته Sylvia Haim وغير ذلك من الكتب والبحوث والدراسات التى تتناول الشرق الأدنى ودول افريقيا ، غير أن دول افريقيا الآن أصبحت ذات وضع خاص ، وانشىء مركز للدراسات الافريقية فى جامعة كاليفورنيا ، يقوم بعمل محاضرات متنوعة عن القارة الافريقية وقد استدعى للمحاضرة فيه عدد كبير من أدباء وعلماء الجزائر وتونس والمغرب كما يصدر المركز مجلة أنيقة قيمة تسمى فنون افريقيا . حيث تخصص قسما منها للدراسات باللغة الانجليزية وقسما آخر للدراسات باللغة الفرنسية ، وهى مع اهتمامها بالفنون من نقش ورسم وتصوير ، ونحت ، وفنون مكتبية تهتم بالدراسات الأدبية وقد نشرت عدة بحوث عن السينما فى مصر كما نشرت عدة ترجمات من روائع الشعر الافريقى .

والرسائل الجامعية التى اضطلع بها مركز دراسات الشرق الأدنى بجامعة كاليفورنيا تحت اشراف الدكتور جرينيوم عديدة ومتنوعة ، ومن ذلك البحث الذى قدمته السيدة **كلودنرانس اودبرت** عن أسلوب الدكتور طه حسين ، وقد قدمت رسالتها للحصول على درجة الدكتوراه عام ١٩٦٢ وأشرف على الرسالة الجامعية الدكتور جرينيوم ، وتناولت فيها الباحثة أسلوب أديبنا الكبير بالبحث والتحليل وقارنته بأساليب الأدباء العالميين ، وبينت وجوه الجمال فى أسلوبه ووجوه الروعة فى بيانه ، وقد قدمت رسالتها باللغة الفرنسية وصاحبة الرسالة تعمل الآن فى وظيفة أستاذ مساعد بجامعة «اكس» فى جنوب فرنسا ، وقدم الأستاذ **دوجلاس رودى** رسالة عن نظام الملكية الريفية فى الجزائر بين عامى (١٨٣٠ـ١٨٥١) وحصل الأستاذ رودى على درجة الدكتوراه بهذا البحث كما حصلت السيدة **سميرة يوسف** وهى سيدة فلسطينية المولد برسالتها الجامعية عن الحكيم « ابن بطلان » على درجة الدكتوراه ، ويقول



ن . محفوظ

الدكتور جوستاف أن صاحبة هذه الرسالة وصفت فيها الطب لمن لا يحضره حكيم كالرهبان الذين يعيشون فى أماكن نائية بعيدة عن العمران ، أما الدكتور **صلاح الدين سليم حسن** فانه قدم رسالته الجامعية عام ١٩٦٤ عن بعثة « كرين » الى فلسطين ، وكرين هذا كان سياسيا أمريكيا رأس البعثة الدولية الى فلسطين فى أعقاب الحرب العالمية الأولى كما قدم ، « مردين جافيتس » رسالته عن السلطان عبد الحميد ١٨٨٠ – ١٨٩٦ وهناك عدد كبير من الرسائل الجامعية التى نوقشت ولا يزال بعضها الآخر تحت الفحص والدراسة .

والدكتور جوستاف فون جرينيوم أديب ذواقة قرأ الأدب العربى الحديث ، كما يطلع على شتى المجلات الثقافية ومنها مجلة « **الفكر المعاصر** » وهو عليم بالحركة الفكرية فى العالم العربى جميعا ، لا فى الجمهورية العربية المتحدة فحسب ، واذا جلست اليه ناقشك فى الحركة الأدبية فى لبنان ومقالات مجلة الآداب والأديب والرسالة ونحوها ، ومؤلفات سهيل ادريس ويوسف نجم وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران ، كما يناقشك فى الحركة الفكرية فى العراق وأشعار البياتى ودراسات جميل سعيد وغيرها ، كما انتقل بك الى الحديث عن الحركة الفكرية فى الكويت ونتاج عبد الله البصير وأدباء مجلة الكويت والمحافل الأدبية فى الأحمدى والكويت وغيرهما . ثم حدثك عن الأدب فى السعودية حديثا مستفيضا ويذكر لك حمد الجاسر الأديب المبرز فى البحث والتحقيق كما يذكر لك مؤلفاته «**مدينة الرياض عبر التاريخ**» و« **بلاد ينبع** » وبلاد العرب « **للأصفهانى** » كما يذكر لك عبد القدوس الانصارى ودوره فى انشاء مجلة « **المنهل** » التى أصدرها منذ ربع قرن ولاتزال حتى الآن تساهم فى تنمية الحركة الفكرية فى المملكة العربية السعودية – كما يذكر لك كتبه آثار المدينة المنورة واصلاحات فى لغة الكتابة والأدب ونحوها ، ويذكر لك **أحمد السباعى** وكتابه عن الأدب فى السعودية حديثا مستفيضا ويذكر تاريخ مكة وقصة فكرة وقال وقلت وغيرها ويذكر لك لقمان يونس وأحمد قنديل وغيرهما من أعلام الفكر السعودى مما قد يغيب انتاجهم عن مخيلة المفكر المصرى الذى يشاركهم فى العروبة والوطن العربى ، حتى اذا ما تعرض الحديث عن انتاج الأدباء فى افريقيا ذكر لك **محمود المسعدى** وأعماله الأدبية ألا وهى تلك القصة التى أصدرها منذ سنوات وكتب عنها الدكتور طه حسين دراسة قيمة اعتقد أنه نشرها فى جريدة الجمهورية آنذاك ولعله ضمها الى أحد كتبه الحديثة ، كما ذكر لك « **مولد النسيان** » للأديب نفسه ومدى ما ساهم به المسعدى فى حقل الفكر العربى المتأثر بالثقافة الأوربية الحديثة ، ثم يذكر لك دكتور جرينيوم أديبا آخر يثير الرغبة الى تتبع آثاره الفكرية وهو الأديب التونسى « **البيرت ميمى** » المولود عام ١٩٢٠ الذى ألف كتابا عن تونس كما تجلت فى كتابات الأدباء الفرنسيين .

والعجيب أن جوستاف جرينيوم يحيط علما بكل هذه الحركة الفكرية فى العالم العربى قاطبة ، حتى انه يحدثك عن أدباء امارات الخليج العربى والأحوال السياسية والثقافية والتعليمية فيهـــا حديث الخبير العـــالم الذى يثير الدهشة والعجب والاعجاب جميعا ·

وهو يرى **أن طه حسين** بلغ القمة فى الناحية الأسلوبية ، حيث يمتاز أسلوبه برنين خاص ، ووقع معين لا تلاحظه فى أساليب الكتاب الآخرين وهو أحيانا يعمد الى السجع أو التلوين اللفظى ولكن هذا السجع يأتى على غير افتعال أو اصطناع مما يحدث فى النفس أثرا طيبا ، ويمس شغاف القلوب ، وهو يمثل تطور الفكر العربى بعـــد لطفى السيد الذى نقل آراء اليونان الى الفـــكر العربى الحديث ، وكانت مجلة « الجريدة » لسان حال دعـــوته التـــحررية الكبرى وتخليص الفكر العربى من الأساليب العتيقة والموانع التى حالت دون تقدمه وانتصاره ·

أما توفيق الحكيم فيرى العلامة جوستاف فون جرينيوم أنه يمثل الروح الشرقية الصميمة وقد قرأ له كتاب « عصفور من الشرق » فلمس فيـــه تمسكه بروح الشرق التى يرى أنها المصدر الأول للفكر والثقافة والمعرفة ، كما أنها مصدر الاشعاع الفكرى للعالم فى الفنون والآداب ، سواء كانت فنونا جميلة كالموســـيقى والرسم أو فنونا نافعة تطبيقية ، وروح التمسك بالشرق تجلت واضحة فى كتاب الحكيم «عصفور من الشرق» كما أن قصة «**آهل الكهف**» تمثل تجربة فنية رائعة مستمدة من التاريخ ، أما دراساته فى « **التعادلية** » وفن الأدب ونحوها فهى عطاء جديد للفكر العربى، ومسرحيات الحكيم فى نظر المستشرق الكبير « جوستاف فون جرينيوم » تمتاز بالخصوبة والمهارة · وقد نشرت له حديثا مسرحية « **يا طالع الشجرة** » باللغـــة الانجليزية وهى محاولة مبتكرة فضلا عن أن كتابه « يوميات نائب فى الأرياف » قد ترجم الى اللغة الانجليزية تحت عنوان « حيرة الـ Maze of Justice

أما الكاتب الرائع الذى يعجب به جوستاف فون جرينيوم اعجابا عظيما فهو الأديب «**نجيب محفوظ**» الذى يرى أن قصصه وثائق أدبية رائعة عن الحياة الاجتماعية والفكرية فى مصر فى تلك الحقبة من التاريخ كما أن ثلاثيته تصور انطلاقات فكرية متنوعة ، وأجيالا متعاقبة متنوعة التفكير متباينـــة التصور والشعور ·

ثم ترتسم ابتسامة عريضة على وجه جرينيوم ويقول : لا تنس العقاد ؟! فاننى لن أنسى عبقرياته ومدى مساهمتها فى الفكر الاسلامى اننى لم ألتق بالعقاد فى حياتى مثل ما التقيت بطه حسين غير انى أكن له التقدير كما أكن التقدير للمفـــكرة المتـــحررة **الأديبة الدكتورة سهير القلماوى** التى أسعدنى أن أعرف انها تشرف على الحركة الفكرية والثقافية فى قطاع كبير من الدولة ·

ويأتى البريد الى الدكتـــور جرينيـــوم فاذا بدعوة من جمعية دراســـات الشرق الأدنى التى تعقد دورتها فى جامعة تورنتو فى كندة فى منتصف هذا الشهر فأسأله عن هذا المؤتمر فيقول انه سوف يتناول القضايا الفكرية والثقافية التى تشـــغل العالم وتهم الباحثين فى هذه المنطقة الحساسة من العالم · وسوف يحضره عـــــدد كبير من العلماء والبـــاحثين نذكر منهم وليم شروجر مدير مركز دراسات الشرق الأدنى فى جامعة ميتشجن ودون بيرتز عميد دراســـات الشرق الأدنى والدراسات الافريقية فى جامعة نيويورك والدكتور جون مريام الأستاذ بجامعة بولنج جرين ولاية اهـــايو مع زوجته كافلين هوارد كريمة الدكتور ورث هوارد Worth Howard مدير كلية ريكرز Riekers فى ولاية مين Maine ومدير الجامعة الأمريكيـــة بالقاهرة سابقا ·

ومما يذكر أن الملك فيصل قد منح هـــذه الجامعـــة عشرة آلاف دولار لانشاء قسم خاص بالدراسات العربية والاســـلامية ، وقد بدأت الدراسة فى كلية ريكرز وأقبل عليهـــا عدد من الأمريكيين ، ومن المنتظر أن تتشعب الدراسات العربية والاسلامية فى العام الجامعى المقبـــل حيث يشرف على هذا المركز الدكتور عبد المنعم شاكر الذى حصل على الدكتوراه فى العام المـــاضى من جامعة ميتشجن ·

لوس انجلوس

جمال الدين الرمادى

● إذا كنت تريد الحرب ، فيجب أن تحشد كل طاقاتك للحرب وإذا كنت تريد أن تتجه إلى السلام فيجب أن تتجه كل طاقاتك إلى السلام ، ولا عيب علينا إذا كانت تتجه طاقاتنا إلى إحقاق الحق في الأرض المقدسة .

حسين فوزي

القارىء ، وان اصل اليه بوضوح تام . ولذلك حين أكتب فصلا بعنوان « **احب اجدادى الى** » أقول فى نفس « **الى** » هذه بدون الشدة تقرأ الى، وبذلك لا يفهم القارىء ، ولهذا أكتب بدلا منها « **عندى** » . الحق انى ضيق الصدر جدا بهذا الوضع ، واحب ان أقول للدكتور حسين فوزى اننى أحيانا أجد صعوبة كبيرة جدا من مقالاته فى الاهرام لهذا السبب . هذه مشكلة كبيرة ينبغى ان نوجه اهتمامنا اليها .

د . **حسين فوزى** : الحروف « مفعصة » !! اختار لنا الاهرام اصغر بنط نكتب به . أنا نفسى لا أستطيع أن أقرأها .

يحيى حقى : وكيف تسكتون على ذلك ؟

د **حسين فوزى** : قل انت لهم هذا .

يحيى حقى : هذه ملاحظتى الاولى . الملاحظة الثانية هى اقامة جسر بين الكلام فى مقالة أدبية فى صحيفة يومية وبين الكلام فى قالب متصل فى كتاب . المقال فى الصحيفة الأدبية اليومية التى تموت فى نفس اليوم ، يتطلب الاستقلال والانفصال ؛ والفصل فى كتاب يراد له البقاء والاستمرار . وهذا الكتاب صادر فى شكل مقالات صدرت فى (جرنال) اسبوعى هو صحيفة التعاون . وانتم حين تتأملون هذا الكتاب تجدونه مقالات متتابعة، ومع ذلك يربطه خيط يصل بالقارىء من فكرة الى فكرة . وانا أحيانا أسأل نفسى : هل هذا يا ترى نوع من الكتابة التى يراد لها البقاء والاستمرار . ان يكون الكتاب وسطا بين المقالات الصحفية الادبية وبين شكل كتاب تحتاج فصوله الى ترابط وتناسق ؟

ابراهيم الصيرفى : هذا حول الكتاب ..

يحيى حقى : أما عن الكتاب فقد كان اهتمامى ان أقدم للقارىء نصا أدبيا ، يحتاج الى العناية بالتعبير وجماله . ومن الفصول التى أحب أن أضرب بها مثلا على ذلك « أحب أجدادى عندى » و « **الزير والبرج** » ، فهما من الصور الادبية التى كان فى ذهنى أن أكتبها .

أما من حيث المضمون فتلك هى النقطة التى انا مشتاق الى أن أسمع فيها رأى **الدكتور فؤاد زكريا والدكتور حسين فوزى** . لأن الكتاب ، كما ترون، يحاول أن يجدد الاهتمام بقضية كبيرة جدا كانت تشغل المثقفين من أيام الجبرتى والأفغانى والطهطاوى .. الخ ؛ هى قضية اللقاء بين الحضارة الشرقية العربية الاسلامية والحضارة الغربية . هذه الاهتمامات كانت محصورة فى دائرة المثقفين . وقد كان اهتمامى فى هذا الكتاب ان أقول ان هذا لا يكفى ، وانما يجب نقل هذه المشكلة الى وجدان الشعب ، يجب ان يحس بها . ولقد عبرت عن هذا فى فصل بعنوان « **ترجمة كلام صعب الى كلام سهل** » . لاننى أرى اننا لن نتقدم فى هذه لسبيل أبدا الا اذا اعدنا الاهتمام به والا اذا عملنا على نحو ما الى توصيل هذا الكلام لى وجدن لشعب . فلا تصبح المشكلة مشكلة مثقفين فحسب .

والكتاب ، على العموم ، نتيجة رحلة لى الى فرنسا ، وجدت نفسى منساقا الى أن اتامل ما هى الحضارة الأوربية وما هى الأحوال عندنا . ثم بدأت أكتب هذه الفصول المتتابعة ، التى اسميتها فى نهاية الامر « حقيبة فى يد مسافر » .

● لوقارنا بين حياتنا وحياة الغرب لوجدنا أن أهم ما يجب أن ننجزه لكي نلحق بهذا المستوى الرفيع هو مزيد من الاهتمام بالعقل وبالمعقولية سواء في حياتنا الخاصة أو في حياتنا العامة.

فؤاد زكريا

د · **حسين فوزى** : يا استاذ يحيى ماذا تركت لنا من الكلام ؟ هل تركت لنا ما نقوله عن اسلوبك ؟ جديد أم قديم ؟ كان ينبغى أن تترك لنا الفرصة · أما عن العامية فانت تعرف أننا جميعا نشجع هذه الاجيال الطالعه على الشغف بتحرر اللغة · وأنا امتدح لك شـجاعتك لأنك دائما كنت متقعرا · وقد دخلت مجال التقعر عندما قابلتـــك فى باريس ، اذ وجدتك وقد احضرت ميزان الذهب ، واخـذت تزن به الكلمات والجمل · وانت الآن قد تحررت وانا أهنئك على هذا ·

أما عن حكاية المقالة ؛ فانا أريد ان أقول لك شيئا هو انك اذا كنت أديبا فليس فى الصحافة مكان لك · واذا فرضنا ان الصـــحافة تحب ان ترقى اليك ، الى مستوى الاديب ، فانها تأتى بك زينة وتضـــعك على تاجها لتكتب أدبا لا لتكتب صحافة · الصحافه أخبار · والمقالة الصحفيـــة مقاله سياسية · أما عندما ترقى الصحافة فان الصحف تفرد اجزاء منها للادب وللعلوم · فاذا كتبت فصولك كان من اسوأ الامور ان تفكر فى ان تجعلهـــا كتابا · اعرف ادباء يفعلون هذا ، فيـكون عملهم كزائدة دودية فى الصـــحافة · يكتبون الفصل الطويل وفى ذهنهم ، بداية ، ان يكون فصـــلا فى كتاب · وهذه عدم امانة فى الصحيفة التى يكتب فيها هؤلاء · أنا بالصدفة اقرأ كتابا انجليزيا من كتب المقـــالات نشرته « بنجوين » فى عدة مجلدات ، حين تقرأها تشعر انها صحافة ، ولكنها صحافة راقية جدا · صحافة أدبية فاذا كانت المقالات التى تكتبها ذات ارتباط معين وترى انت ان تجمعهـــا فى كتـــاب لان موضوعها واحد، فى الفلكلور أو فى الرحلات مثلا، فهذا شأنك · ولكننى أرى ان تجمع المقالات بعد موت كاتبها ·

د · **فؤاد زكريا** : انا أيضا احب ان اتكلم قليلا حول الهامش · فخسارة أن أضيع الفرصة دون ان أبين المزايا العامة للكتاب كما أثارتها فى قراءته · **لقد استمتعت كل الاستمتاع بقراءة هذا الكتاب · وربما كان اكبر مصدر لمتعتى هذه هو شعورى ، الذى اعيه أشد الوعى ، بعجزى التام امام المقدرة الفـــائقة على الوصف التفصيلى التحليلى العجيب لأدق المواقف·** أنا شخص أعتبر نفسى مغرقا قليلا فى المشاكل الفكرية · ولذلك· حين أقف امام هذا النوع من الكتابة احس فعلا بالتضاؤل أمام هذه المقدرة الفذة على التحليـــل · لا مجرد وصف المنظر من خارجه وانما النفاذ الى اعماقه· عين لماحة تصل الى درجة الفراسة الغريبة فمثلا منظر الدليل والقطيع من خلفه · يمسك بالواحد اثر الواحد من الماشين خلفه وهو يصبحبهم فى مشاهدة المتحف · صحيح ان ذلك من قبيل الخيال · ولكن اى فرد منا شاهد هذا المنظر لابد أن يعترف للأستاذ يحيى حقى بالمقدرة الفائقة على التعمق من وراء مظاهر النـــاس الى ما يخفونه فى باطنهم أو ما يحاولون اخفاءه ·

لهذا السبب اعتبر هذا الكتاب وامثـاله لا مجرد كتـــاب فى الادب أو النقد الأدبى ، بل اعتبره كتابا يحتوى بداخله ثروة كبيرة جـــدا حتى من المعلومات السيكولوجية · ولذلك أريد أن اضيف جسرا ثالثا الى الجسور التى اقامهـا اســـتاذنا يحيى حقى ، **هو الجسر ما بين الادب والتحليل النفسى** · وجسرا آخر بين الثقـــافة البسيطة والثقافة العميقة · واذا سمحتم لى ان اورد جزءا من الكتاب ، سطورا قليلة منه ، وانا كرجل مرت بى مسائل من هذا النوع اقول ان هذه السطور لم يكن من الممكن ان تكتب الا بعد قراءة عشرات الكتب · فى الجزء الذى يتكلم فيه الاستاذ يحيى حقى عن اتهام الغربيين بقصـــور حضارتنا ، انظر ماذا يقول · انه يتكلم عن العربى ويقول انهم يصفونه بانه رجل مشرد رجاله · فكرة الانتماء الى الوطن معدومة عنده (ص ٧٦

و ٧٧ من الكتاب) ؛ فهل هذا ممكن ؟؟ ثم يقول بعد كلام قليل عن اللغة والعقلية العربية « هى عقلية صف خيام لا اقامة هرم ، ان أى مظهر من مظاهر البحث العلمى - حتى فى نحو اللغة العربية ذاتها - جاء من الاغريق ، التصوف ورد من الهند ، جميع جهابذتها تقريبا لا ينتمون الى الجنس العربى ، حتى فى ميدان اللغة ، ما أضافها من حضارة ، ليس عندها مسرح ، بل حكايات سمر .. ليس عندها تصوير ، بل زخارف لا تنفك عن التدخل الا لتتدخل من جديد ، ليس عندها نحت ، حتى الشعر ما هو الا فتافيت، ليس للقصيدة وحدة عضوية ، الغزل فى هذا الشعر غارق فى الحسية • المرأة عنده كتلة من الشحم واللحم ، الخ كل سطر من هذا الجزء حصيلة كتب عديدة • والحق انى لا استهين بهذا النوع من الكتابة وانما أكن له كل احترام • هو من البداية ، وان اتخذ شكل مقالات ، من البذور التى ترشحه وتؤهله لأن يكون عملا أدبيا وفكريا كبيرا •

ابراهيم الصيرفى : ربما كانت المقالات التى نناقشها هنا ، اذا كان الأستاذ الدكتور حسين فوزى يعترض على أن يكون فى ذهن الكاتب ، بداية ، ..

د - حسين فوزى : أنا لا أقصد الأستاذ يحيى حقى أبدا .. أنا أقصد شخصا معينا •

ابراهيم الصيرفى : أريد أن أقول ان المقالات هنا قد استطاعت أن تجمع بين استقلالها كوجبة تقدم فى صحيفة للقارىء العادى ثم استطاعت بعد ذلك أن تجمع فى كتاب لتكوين هذه الوحدة التى تؤلف الكتاب الذى تتكلم عنه الآن سيادتك والدكتور فؤاد •

يحيى حقى : الحق انى حين بدأت أكتب الكتاب لم تكن لدى فكرة عن كيف يسير قلت فى نفسى فلأكتب عن هذه الرحلة • وقادنى فصل الى أخر • وبعد مدة طويلة وجدت ان هذا الموضوع يمكن أن يخرج للناس فى كتاب• ولذلك أريد أن أقول للدكتور فؤاد والدكتور حسين فوزى اننى كلما تقدمت فى هذا الكتاب ، وجدت نفسى أسير من سهولة الى صعوبة • الشرح والوصف سهل ، وصف الخلاف بين الحضارتين سهل • لكن حين جئت الى باب .. ما هو الحل ؟ .. أحسست ، حقيقة ، انى تعبت ، أحسست انى لست على مستوى القمة بحيث أقول لنفسى انى سوف أجد حلا • ولكننى وجدت نفسى منساقا الى أن آتى بحل • فمن أين جئت به ؟ الحل كما قلت ، لا بد أن يأتى من وجدان هذا الشعب • وهنا انتقل ذهنى الى العقيدة • ولهذا لم أتصور الا أن يكون هذا هو الحل : **لا اجتهاد قبل فتح باب الجهاد • باعتبار أن الجهاد هو القوة الدافعة ، هو الحركة الديناميكية للدين والعقيدة التى بمقتضاها وبفضلها تتحرك هذه الأمة •**

هذه هى النقطة التى أحب أن أعرف : هل أخطأت فيها ، أم كنت فيها على صواب ؟ هذا الكلام قد يغضب أناسا لا يحبون الحديث فى العقيدة • أعترف لكم أن هذا الحل ، ولو انه يرضينى ، انما وصلت اليه بصعوبة بعد أن ساقتنى الفصول السابقة عليه قليلا قليلا الى هذا الركن الذى لم أجد سواه • فهل هناك ركن سواه ؟

د. فؤاد زكريا : هناك خوف من أن يكون فى هذا الحل ما يسمى بالحلقة المفرغة • أى أن الحل لا يكون الا بالجهاد، ومن ثم الاجتهاد ولكن الجهاد لا يمكن أن يكون سليما الا اذا وصلت الى الحل • هذه مسألة يخيل الى أن فى الجانب الايجابى فيها شىء من الدور كما يقولون فى المنطق •

يحيى حقى : ولكن يا دكتور فوزى هذه هى المشكلة الحيوية التى واجهها الجبرتى وغيره •

د - حسين فوزى : لا تهرب • لاننى سارد عليك فى هذه النقطة • أعطونى أولا فرصة أتكلم فيها عن خير الكتاب • أنتم تريدون أن تبدأوا النقطة التى اعتزمت ان أهاجمه فيها •

يحيى حقى : أريد أن أسألك أولا .. هل يرضيك أن نتناسى هذه القضية الحيوية أم يجب ان تثار ؟

د - حسين فوزى : تقول انك وصلت الى حل • لقد بدأتم بآخر الكتاب مع الأسف • فلنترك كل الكلام عن هذا متى يأتى دوره • هذا الحل ينطبق عليه بيت الشعر الذى يقول :

وداونى بالتى كانت هى الداء

نحن في عام ١٩٧٠ كما يقول الأستاذ يحيى حقي • وفي عام ١٩٧٠ لا تكون الحلول بالطريقة التي يقترحها ، اذا كان كل كتابه دفاعا عن الحضارة ودفاعا مجيدا ، ولا تنسوا أن يحيى حقي رجل دبلوماسي ، ودبلوماسي من أرق الدبلوماسيين ، ومن أرق الناس أخلاقا • ومع ذلك استطاع بشجاعة نادرة لا نجدها في أى كتاب سابق له • استطاع أن يتكلم .. **فضحنا وكشف عيوبنا** .. كشفها في مواجهة الغرب المتحضر • قالها بكل صراحة •

لقد سعدت بهذا الكتاب • جلست اليه جلسة لم أحبب أن أقطعها قبل اتمامه ، وانا من أسعد الناس به • وبعد أن انتهيت من قراءته اتصلت تليفونيا بيحيى حقي لأقول له ان هذا الكتاب عظيم جدا ، وكم أود أن يقرأه كل قارئ• ويحيى حقي محق اذ يكتب تلك اللغة الجميلة البسيطة ، وهذا أسلوبه عامة • وهو أسلوب ضروري جدا في هذه القضية • أضف الى ذلك سمعتك الطيبة واسمك ودبلوماسيتك • الكتاب من أعظم كتب يحيى حقي • **وأنا أصلا لا أحترم القصص كثيرا** • أحترم الكاتب حين يكون مفكرا• كاتب القصة صديق ، لكنه لا يرتفع في ذهني الى أن يكون من كبار العباقرة • عندي أن كتاب يحيى حقي كتاب يساوى أثقالا من الذهب وأحمالا من القيم الانسانية الكبرى • هذا ما أريد أن أقوله عن الكتاب ، ولأرجئ حسابه حتى يحين وقت ذلك •

ابراهيم الصيرفي : ذكر الأستاذ يحيى حقي أن عملية الوصف والمقارنة بين حضارتين مسألة لا تتطلب الا جهدا يسيرا • ويخيل الى أن هذا النتاج ليس وليد جهد يسير أبدا .. فما رأى الدكتور فؤاد زكريا في هذه الملاحظة ؟

د • فؤاد زكريا : أرى أن أقيم ما في الكتاب هو هذا • أنا مع الدكتور حسين فوزى في أن الحل الايجابي حل سأختلف فيه مع الأستاذ يحي حقي • لعل الجزء النقدى الذى **يشمل معظم فصول الكتاب هو في نظرى أقيم ما في الكتاب ، لأنه جزء نقدى نابع من القلب حقيقة** • فيه عنصر الاخلاص الذى تكلم عنه الدكتور حسين فوزى ، وفيه بالاضافة الى ذلك عنصر قد نحس به من بين سطور الكتاب ، هو عنصر المرارة الناجمة عن الظروف الخاصة ، الفترة الزمنية الخاصة التي يكتب فيها مثل هذا الكتاب • حين يسافر أحد المصريين أو العرب الى الغرب في هذه الفترة التي نعاني فيها من الشعور بالرغبة في التغلب على الهزيمة التي وقعنا فيها • هذا العنصر موجود ولكن الانسان يحس أنه مخيم على جو الكتاب باستمرار • المشكلة التي عالجها الكتاب هي ماذا جعل الغرب يصبح على ما هو عليه ؟ ؟ **يحيى حقي** : أوكيف ندركه •

د• فؤاد زكريا : لهذا السبب أقول • كيف نصبح كالغرب ؟ هذا في الحقيقة سؤال ثانوى • أولا ، كيف نفهم لماذا أصبح الغرب على هذا النحو • فاذا فهمنا هذا واستقر في أذهاننا ربما جاء الحل الايجابي تلقائيا • **المشكلة اننا لا نفهم هذه المسألة ، بدليل اننا نتصور ان حضارة الغرب هذه حضارة متخلفة عن حضارتنا نوعيا وكيفيا • وهذا في نظرى تزييف كبير** • ربما كان في الحضارة الغربية اختلاف نوعى ، ولكن هذا الاختلاف جانبي • أهم ما في الأمر أن في هذه الحضارة جانبا عالميا هو الطاغي فيها • وربما كانت الجوانب التي يختص بها الغرب نفسه ليست أهم جوانب هذه الحضارة • فما الذى يمثله هذا الجانب العالمي ؟ يمثل ما سيصير اليه الانسان عندما يتقدم ، أى انسان لا الانسان الغربي بالذات • نحن ، للأسف الشديد نخلط •

ابراهيم الصيرفي : هذا في مجالات الحضارة المختلفة من الناحية العلمية والعملية والفكرية.

د • فؤاد زكريا : في كل مجالات الحضارة .

ابراهيم الصيرفي : هذا يعني أن الأدب الرفيع للعالم كله ، لا نقول هذا للغرب . الموسيقى الرفيعة للعالم كله وليست للغرب فقط . وهكذا حتى في مجال العلم ايضا .

د • فؤاد زكريا : هذا أوضح في مجال العلم والتكنولوجيا . هي حضارة الانسان المتقدم ببساطة ، هي حضارة الانسان عندما يبلغ مرحلة معينة من التقدم . وهنا لا نقول انها نوع ونحن نوع ، لاننا لو قلنا هذا لظللنا طوال عمرنا نقول أن لنا مزايانا ولهم مزاياهم . لنا مزايانا ، كما أن حضارتهم في بعض جوانبها تصطبغ بالطابع المحلى . لكن الاهم من الكتاب ينبهنا الى هذه الحقيقة وبوضوح • وهذا هو الجانب الممتع فيه •

يحيى حقي : كان غرضي ، عندما تقدمت قليلا فى الكتاب توضيح الرؤية · أعني كانت لدينا افكار خاطئة عن الحضـارة العربية احببت انأزيلها ، كذلك كانت لدى الحضارة الغربية افكار خاطئة عن الحضارة العربية احببت ان افسرها وان اقول لاصحابها لا ··· ليس الأمر هكذا ، ولسنا كما تروننا · نحن كذا وكذا · هذا ما اقوله لهم · واقول لاهلى ولأهل بلدى : هؤلاء النـاس ليســوا كما تظنونهم · وكنت بذلك اهدف الى اقامة جسر كما يقول الدكتور فؤاد زكريا ·

كيف نصل الا اذا فهم كل منا الآخر حق الفهم حاولت ان ابدد ما لديهم من افكار خاطئة عنا وان ابدد ما لدينا من افكار خاطئة عنهم ·

ابراهيم الصيرفى : كان نفس تاريخ التقائنـــا بالحضارة الغربية هو نفس تاريخ التقاء اليابان بتلك الحضــارة ··· وها نحن نرى الفرق ·

د · حسين فوزى : هـذا بســبب الحلول التى يقدمها يحيى حقى ! هذا هو السبب !!

د · فؤاد زكريا : اخذت اليابان الجانب العام من الحضارة الغربية ، الذى تحدثت عنه ·

د · حسين فوزى : منذ مائة سنة دخلت اليابان الحضارة الغربية ، ونحن دخلناها منذ أكثر من مائة سنة · ومع ذلك اصبحت اليابان اليـــوم من أكبر الدول فى العالم · هزمت فى الحرب اسوأ هزيمة ، ومع ذلك خرجت قوية تبنى نفسها ، لان فيها الحضارة بلا رجعة · أما عندنا فان حبالا من مســد أو من حديد أو من صلب ، لا أدرى ، تشدنا الى الماضى دائما · ولذلك نجد عندنا طبعا عجيبا ، هو اننا نتحرك خطوة الى الامام وثلاث خطوات الى الوراء ·

آسف ان اسالكم : عن أى شيء تتكلمون ؟ لقد كنا نحيا وسط أوربا لقد ربى جيلنا على أن يتجه الى أوربا ، وأن يكون مثل أوربا · وكنا فى هذا الطريق ·· وتقولون اليوم أننا متخلفون ؟ ما حدث هو انعزالنا عن أوربا · وعندما انعزلت هذه الأجيال عن أوربا بدأ التقهقر العقلى · هذه هى المسألة وكنا دائما على اتصــال بأوربا · الاستاذ يحيى حقى يقول فى كتابه ان الاجريجى حين يفتح مخبزا تجده نظيفـــا يرتدى البالطو الابيض ، وترى كل محله نظيفـــا ، بالكروم ، بالنيكل ، لان الاسكندرية أقرب الى الحضــارة منا ·

كنا كطلبة أو كموظفين أو رجال اختصاص ، المهندس أو الطبيب الذى لم تتح له بعثة الىأوربا ، كان الواحد منا يدخر بعض المال ويذهب الى أوربا · الأطباء يذهبون الى المســتشفيات هناك المهندسون يشاهدون المشروعات · بهـذا نعيش وسط أوربا ، كنا نتقدم · هذا كل ما أريد أن أقوله ·

الاستاذ يحيى حقى يبحث عن السبب وراء تخلفنا ··· لا تخلف · وقد قال الدكتور فؤاد زكريا قولا عظيما جدا ، قال ان للعيوب عنـــدنا ما يقابلها فى أوربا ، ولو اردنا ان نجد فى أوربا من العيوب التى خلعها الاســتاذ يحيى حقى على شعبنا لأتينا بالكثير عن أوربا· لقد جاء بالفضائل التى تبدو عندنا تخلفية· لكن اذا رأيت تحركاتنا حقيقة ، تجد اننا فى طريق التقدم · فما الذى حدث ؟ حدث نوع من التخلف لأسباب خارجــة عن نطاقنا · جاءت الحرب العالمية · وبعد الحرب العالمية لا تنسوا مأساة فلســطين ، لأنها خلقت مشكلا عجيبا جدا · **انت اليوم فى موقف · اذا كنت تريد الحرب فيجب ان تحشد كل طاقاتك للحرب · واذا كنت تريد ان تتجه الى الســلام فيجب ان تتجه كل طاقاتك الى السلام · ولا عيب علينا ابدا اذا كانت طاقاتنا تتجه الى احقاق الحق فى الارض المقدسة ·**

ابراهيم الصيرفى : نحن نريد لهـذه الطاقات ان تتجه ووراءها هذا الثقل الحضارى وهذا الوعى وتلك الرؤية الواضحة التى نتكلم فيها الآن · يعنى اننى أرى ان النـــدوة يمكن ، فى مناقشتنــــا لهذا الكتاب ، ان تعطينـــا ارضية وجودنا ، لآن الكتاب يمســـك بجوهر المشكلة ·

د · حسين فوزى : جوهر المشكلة ان يحيى حقى ، وهذا ما أريد ان ارد عليه فيه ، يعتبر الحضـــارة الغربية ليست حضارتنا · يقول فى ص ٧٣ : (اما نحن فاذا ذهبنا الى روما أو أثينا ففى جعبتنا تراث عريق ، اصيل ، متميز ، له تعاليمه الخاصة به ، يكفينا اعتزازا ان بلادنا هى مهبط الاديان السماوية ،) أى ان كل ما وجده حضرته اننا مهبط الأديان السماو

من مسيحية ويهودية واسلامية ، ونسى ان مصر هى ، عند كل أوربى وكل أمريكى ، مهبط الحضارات • مصر مهبط الحضارات وكل أوربى يعترف بذلك • ما هى حضارة اليوم ؟ انا ضالع فى هذه الحضارة ثلاث مرات فى تاريخى • **المرة الاولى** هى الحضـــــارة المصرية القديمة ، وقد اعترفت اليونان بانها من أصول حضارتها • **المرة الثانية** فى مصر المسيحية • والمســـيحية فى أوربا تعترف بما كان للرهبنة المصرية فى العصر المسيحى من أثر عظيم جدا فى الدين المسيحى • وربما لايعرف ذلك المســـيحيون فى مصر • **والمرة ثالثة** نحن ضالعون فى هذه الحضـــارة عندما دخل الاسلام مصر ، واصبحت مصر فى العالم الاسلامى قطبا من اقطابه • فما ينســـبونه الى الحضارة العربية وما ادته لعهد الاحياء فى أوربا، ••• ارجوكم الا تنسوا مصر ، لان مصر جزء من هذا العالم العربى الذى اضاف واحتفظ بعلوم اليونان •

الاستاذ يحيى حقى ينسب الى الاوربيين ان الذين صنعوا الحضارة العربية ليسوا عربا ، مع ان هذا صحيح •• الذين صنعوها هم المسلمون• ولذلك اذا قلت حضارة اسلامية كنت محقا ، لان الرجل الذى عمل لك الاجرومية وأدب اللغة اما فارسى أو رومى أو تركى • فى عيد ابن ســـينا اختلفت ثلاث دول • العرب والفرس والاتراك كل منها يدعيه لنفسه ، وبذلك تحقق فى عظمة ابن سينا ما قيل عن هوميروس من ان سبعة مدن اختلفت وادعت نسبته اليها ، وانه ولد فيها • هذا ما أريد ان أقوله • حضارة أوربا انا ضالع فيها أكثر من الاسكندنافى • اذا كان الاسكندنافى صنع فيها شيئا فى القرنين الاخيرين ، فانا منذ أول التاريخ • هذه الحضارة التى تقول عنهـــا انها الحضارة الغربية ، هى حضارتى أكثر منها حضارة أى انسان • هذه هى المسألة •

الاستاذ يحيى حقى يقول : « **فهؤلاء العرب القادمون من الشمال** » الى آخر تلك الفقرة بصفحة ٧٣ • ثم يتهم شخصا ينفعل بالحضارة اليونانية انه لا يمكن الا ان يكون دعيا • بأى حق يا سيدى تقول هذا ؟ كيف تقول ان انسانا ينفعل بالبانثيون وينفعل بمايكل انجلو دعى وانت الرجـــل الذى قابلته فى روما ورأيته يسجد ويركع أمام تلك الفنون • هذه حضارتى ، كالحضارة المصرية ، كالحضارة الاسلامية • ميزة حضارة اليوم انهـــا اخذت كل الحضـــارات وانها تتحرك أمـــام كل الحضارات ، وانها تعترف بانهـــا تأخذ من كل الحضـــارات ، وتعترف بانهـــا جاءت من كل الحضـــارات • تعترف للاسلام وتعترف للعرب وللمصريين وتعترف للمسيحيه ، وقد خرجت من ارضنا • تقول انى ناتجة من كل هذا : من العهد القديم من الانجيل والتوراة ، من الاسلام ، ومن اليونان •

ابراهيم الصيرفى : واضح ان سيادتك متفق تماما مع الدكتور فؤاد زكريا فى هذه الاتجاه •

يحيى حقى : الحق اننى فى هذا الفصل ، بالذات الذى اشار اليه الدكتور حسين فوزى كنت شاهد صدق • نقلت فى الكتاب ما احسسته فى نفسى وما رأيته فى غيرى من المصريين • عندما كنت فى روما ــ كما يقول فوزى ــ كان يأتينى كثير من المصريين من اصـــدقائى ، فكنت اصحبهم الى كنيسة سان بيتر ، "القديس بطرس ، وأريهم آثار روما القديمة • لم احس لدى أى واحد منهم أية هزة روحية ، وانه انتقل من الظـلام الى النور • لكننى عندما قرأت ما قاله جـــوتة عن كيف كان الانتقال عبر الالب من بلاد الضباب الى بلاد النور، اكبر حدث فى حياته ، وعن المصورين الفرنسيين والهولنديين الذين يجرون من بلادهم الى الشمس •• انا طبعا شهدت للقارىء انه لا توجد هزة روحيه للقادمين من الجنوب ، من بـــلاد الشرق الى رومـــا ، كالهزة الروحية التى تصيب القادمين من بلاد الشمال • **هذه شهادة صدق** •

د • فؤاد زكريا : ربما نكون قد ابتعدنا قليلا عن روح الكتاب وعن هدفه اذا اختلفنـــا كثيرا فى مسألة الأصول • الكلام عن الاصـــول كلام يمكن أن يأخذ منا ســـاعات طوال • ولكن المشكلة التى يتصدى لها لكتاب ويعالجها، والتى كانت تقلق مؤلف الكتاب ، ونحس فى كل سطوره انه بالفعل مهموم بها هى الوقت الحاضر، أى ما فات فات ، فما الذى نفعله الآن •

يحيى حقى : بالضبط ••• بالضبط •

د فؤاد زكريا : تلك هى المشكلة العاجلة • لو سألنا الســـؤال : فيم تختلف الآن مهما كانت مسألة الاصول ؛ فيم نختلف الآن عن الغربيين ؟ الحق ان هناك كلمة لم تأت فى الكتاب،

وان كان الكتاب يشير اليها من قريب ومن بعيد ، **تلك الكلمة هي العقلانية** • انا أرى ان ما يلخص حضارة الغرب ، كما وردت في هذا الكتاب ، هو صفة العقلانية • ولو اخذنا هذه الصفة كمحور لوجدنا ان جميع الملاحظات الدقيقة الجميلة التي وردت في هذا الكتاب انما تدخل في اطار كلمة العقلانية • انهم مثلا قوم لا يبددون الوقت ، كما هو الحال عندنا ، لكل دقيقه عندهم حساب ، ولها قيمتها ، وكذلك نلاحظ عندهم عدم الخلط بين العلاقات الشخصية والعلاقات اللاشخصية • وكذلك تجرد الغربي من الانفعالات الحادة المفرطة •• لا ينفعلون اكثر من اللازم ، ولا يهدأون ، ان انفعلوا ، سريعا •

يحيى حقي : كما قلت في فصل « **الاشتعال والانطفاء** » •

د • فؤاد زكريا : فصل جميل للغاية ، ويدخل في نظري تحت باب العقلانية • كذلك التقدم التكنولوجي • عندهم النظام والدقة • كل شيء يأتي في وقته ، لا تبديد للطاقات ، سواء كانت طاقات الآلات أو طاقات البشر • لا تجد موظفا يقرأ « الجرنال » ويشرب القهوة ويستقبل زواره طول النهار • ليس عندهم شيء من هذا • كل ذلك يدخل في نظري في باب العقلانية • لدرجه ان الكلمة المستخدمة في مجال الاقتصاد و «ترشيد الانتاج وتنظيمه » وهي كلمة Rationalization في الانجليزية هي اصلا مشتقة من كلمة Ratio اللاتينية وتعني العقل ، أي تنظيم العقل والافادة منه الى أقصى حد ، وعدم تبديد أي طاقة• الكلمة مستمدة من العقل •

لو قارنا بين حياتنا وحياة الغرب في هذا لوجدنا ان اهم ما يجب أن ننجزه لكي نلحق بهذا المستوى الرفيع هو مزيد من الاهتمام بالعقل وبالمعقولية سواء في حياتنا الخاصة أو في حياتنا العامة •

ابراهيم الصيرفي : بطريقة نظرية ؟؟

د • فؤاد زكريا : اضرب مثلا •• يخيل الى ان الفنون في الغرب قد تاثرت بهذه العقلانية ؛ أنا مثلا عندما أرى الفرقة الموسيقيه ، الدقة الكاملة التي تؤدي بها هذه الفرقة « الاسكور » الذي تعزفه ، حركة الكمنجات المنظمه ، الاقواس في صعودها وهبوطها •• الهمس الخافت ثم الصخب العالي • كل هذا ليس الا عملية ترشيد كالتي تراها في المصنع في سيره المنتظم ، ومع ذلك فانها لا تتعارض مع الحساسية ولا مع الذوق ولا مع الجمال ، بل لقد زادته • هذا ما يميز الغرب عنا •

ابراهيم الصيرفي : كنت أريد ان أقول لسيادتك ما السبيل الى هذه الترشيدات وهذه العقلانية ؟ ما السبيل الى اكتسابها كحل من الحلول التي تتلمس ؟ هل تأتي بمزيد من الدراسة ؟ ام من الدراسة مقترنة بالعمل أيضا ومنعكسة عليه في حياتنا ؟

يحيى حقي : هذا أهم سؤال حقيقة ••

د • حسين فوزي : تحبوا اجاوب عليه ؟

الجميع : اتفضل يا دكتور فوزي ••

د • حسين فوزي : انا اصلي ••• يحيى لا يعرف اني باحث عن تلك الحضارة طول عمري ، والى الآن ، ودائما يستمر هذا البحث • اريد أن أقول لك انه ما زالت عندنا فكرة هي ان الذي يخلق الحضارة شخص واحد عبقري • كيف تتقدم أوربا ؟ هذه هي المانيا مهدمة بعد الحرب • كل بلد أوربي يحيا مع البلاد الاوربية الاخرى • الاتصال كامل • ما على الفرد الا ان يجهز عربته لينتقل في أوربا من بلد لآخر ، من اقصى أوربا الى اقصاها • النابغة العبقري يكتشف اكتشافا فيقوم احد المصانع بتطبيقه في بلد ما ، فاذا هو مطبق في الناحية الاخرى من أوربا ، وبطريقة أفضل •

د • فؤاد زكريا : الا نجد في الحضارة الاوربية جوانب سلبية أيضا ؟ صحيح لا ينبغي أن نخلط بين الجانب الشخصي والجانب اللاشخصي • لكن عندنا الجانب الانساني • يقع احد الناس على الارض فيتجمع حوله ثلاثون شخصا • اما هناك فلا أحد •• حتى يأتي الاسعاف وكذلك الجارة عندما يمكن ان تعنى بابن الجيران •

د • حسين فوزي : هؤلاء الناس الذين يلتفون حومه عندنا يختنقونه • في البلد المتحضر يحمل الشرطي تليفونا لاسلكيا في جيبه « يتصل » فيأتي الاسعاف •

د . فؤاد زكريا : والله رايتهم يهملونه . عندنا جوانب انسانية ..

ابراهيم الصيرفي : اذا سمحت لى .. هل هذه الجوانب وليدة اختلاف خلقي نوعي ابدى فى الانسان عندنا . أم اننا حين نتحضر .. د . فؤاد زكريا : هذا ما كنت سأقوله بالضبط. كنت أريد أن أقول : أليس من الجائز انقوة هذه الروابط عندنا نتيجة بقايا روابط مجتمع ريفي ؟

د . حسين فوزى : فى القرى الاوربية نجد ما قد يتفق مع روحنا .. الانسانيه كما يقول الدكتور فؤاد زكريا ان أزورك فتقدم لى فنجالا من القهوة واعطلك عن عملك . هذه انسانية . جاءنى ذات مرة صديق من لندرة وانا فى تولوز وحكى لى كيف انفق فى بنك تولوز وقتا طويلا كي يصرف نقوده . وقال لى لو ان الامور تجرى على هذا النحو فى لندرة لتعطلت وتوقفت كل حركة فيها . وعلى فكرة يا استاذ يحيى .. مصطفى كامل تخرج فى جامعة تولوز وليس فى جامعة مونبيلية .

يحيى حقى : نعم ..

د . حسين فوزى : وانا افخر انى كنت فى جامعة تولوز . وكثير من زملائه يذكرونه بالخير .

ابراهيم الصيرفي : لا شك ان هناك فرقا بين المدينة والقريه فى كل بلاد الدنيا .

د . فؤاد زكريا : **الحق انى لم اقل ما قلته على انه ميزة . انما اخشى ان أقول ان هذه الانسانية عندنا وليدة نوع من التخلف .**

يحق حقى : السؤال الاخير : هذهالهموم المحصورة فى هذه الندوة أو فى طبقات المثقفين .. كيف ننقلها الى وجدان الشعب ؟

ابراهيم الصيرفي : هذا هو السؤال !!

يحيى حقى : ماذا نفعل ؟ قلت نعمل ندوة فى الحى الذى يقع فيه الفرن ونجمع سكان الحى ونجلس معهم ، نقول لهم انتم ابناء الحى وتلك ظروفه . فماذا نفعل ؟

د . حسين فوزى : نغير طقم وزارة التربية والتعليم كلية . لان المدرس فى المدرسة الابتدائية ليس عنده الا الخطة والا الكتاب يدرسه ، ولكنه لا يقول للتلميذ الزم شارات المرور فى عبورك الشارع . التربية مفتقدة . لا بد من تربية الاولاد فى المدارس . ليست المدرسة عملية برامج وتحفيظ . المدرسة الى ذلك وفوق ذلك سلوك . لا انس وأنا فى المدرسة الابتدائية انى ذهبت ذات يوم بارد فى الشتاء وكنت ارتدى بالطو ، فخلعوه عنى وقالوا لى : ياولد اتلبس بالطو فى هذه السن ؟ فماذا تفعل حين تغدو شيخا ؟ ودخلت ارتعد من البرد .. ووقفت فى الطابور. هذه تربية لا أنساها وقد وجدت من عائلتى من يربينى نفس التربيه . ووجدت فيها شيئا من الاسبرطية فى تربيتى . المدرسة تخلق الشخص .

يحيى حقى : ووسائل الاعلام ؟

د . فؤاد زكريا : لها هى الاخرى ولا شك دورها فى التربية . واضح ان اجهزة الاعلام تشجع قيم التكامل والاهمال والبلطجة .. الخ . يجب ان يراعى اختيار ما يعرض على الناس بكل دقة ، من تمثيليات وأفلام .. الخ .

يحيى حقى : **لا تزال المهمة موكولة الى المثقفين . لا بد من الحاحهم على هذه القضية حتى تتبلور وتاخذ مكانها ..**

ابراهيم الصيرفي : والله انى لاتمنى ان يقوم المهتمون بهذه القضية بحملة اعلانات كحملة سافو ، يشغلون بها الرأى العام بطريقة مقصودة ومعينة فى سبيل بلدنا .

د . حسين فوزى : يا سيدى الاوربى المتحضر تربى فى بيته ومدرسته على الحياة . يعلمونهم فى المدارس الابتدائية حركة المرور فى الشوارع .

د . فؤاد زكريا : ولا تنس ان هذا الكتاب جهد فردى ، ولا يمكن ان يأتى الحل على يدى فرد . الفرد يتكلم بضميره واحلامه مثل الاستاذ يحيى حقى . لكن الحل انما يأتى على يد شعب كامل . وما لم يعمل الشعب ، ويبذل مزيدا من الجهد والعمل ، فلا أمل .

د . حسين فوزى : فى النهاية .. الاستاذ يحيى حقى صديقى وأنا استعمل صداقتى فى حرية النقد . لكننى احب ان اؤكد ان هذا الكتاب عبارة عن حجر هام جدا فى طريق الاصلاح

مجلة

الفكر المعاصر

فهرس

مارس ١٩٦٩ – فبراير ١٩٧٠

فهرس الكتاب

ف

ن

هـ

ى

فهرس المقالات

لوحتا الغلاف :

للفنان التشكيلى المعاصر بول كلى (١٨٧٩ - ١٩٤٠) الذى يعد واحدا من رواد الفن التعبيرى الألمانى ، وواحدا من طليعة رواد الفن التشكيلى الحديث ، ولقد ولد بالقرب من مدينة برن بسويسرا ، ولكنه نشا نشاة المانية خالصة . تتميز اعماله بروعة اللون وبراعة التكوين ، وقد عثر على لغته التشكيلية الخاصة مبكرا ، ولكنه عثر على رموزه الفكرية مؤخرا .. عندما لجا الى الأسهم واستخدمها رموزا تشير الى عالم الانسان .. النفسي والاجتماعى والميتافيزيقى . ويعد كلى الفنان التشكيلى الكبير الذى ظل ينافس بيكاسو طويلا على زعامة الفن الحديث ، حتى اضطره الموت الى التخلى عن تلك المنافسة لزميله الفنان العظيم .